

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الحاج لخضر - باتنة
كلية العلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية و آدابها

ابن الأبرار القضاعي
و مدائحه
في البلاط الحفصي
دراسة موضوعية فنية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم

إشراف الدكتور:
محمد حجازي

إعداد الطالب:
حميد طريفة

أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور:	عيسى مدور	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	رئيساً
الدكتور:	محمد حجازي	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	مشرفاً و مقرراً
الدكتور:	السعيد لراوي	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضواً
الدكتور:	العلمي المكي	أستاذ محاضر	جامعة أم البواقي	عضواً

السنة الجامعية:

1430 – 1431هـ/2009 – 2010م

مقدمة البحث :

يعد المديح ابرز أغراض الشعر العربي و أوسع موضوعاته و أبوابه ، فقد أخذ مساحة واسعة من دواوين الشعر و مدوناته الكبرى قديما و حديثا ، واستعمل الشاعر العربي منذ القديم المديح وسيلة للإعلاء من شأن بعض القيم السامية التي تسود بيئته ، فما الممدوح سوى أنموذجا عاليا مجسدا بسلوكه تلك القيم الرفيعة التي يحرص الشاعر على نشرها و حسن تمثيلها ، كما كان المديح مطية لتحقيق ما يصبو إليه الشاعر من الثروة و الجاه و المكانة ، عبر دغدغة عواطف الممدوح و إشباع رغباته النفسية من مجد و شهرة وذكر حسن ، الأمر الذي جعل الحكام و السلاطين يتنافسون على استقطاب الشعراء إلى بلاطهم و تقريبهم ، بل إن المديح أصبح في نظر علماء البرمجة اللسانية العصبية – في العصر الحديث – وسيلة علاجية فعالة ، بوسعها التخفيف من التوتر النفسي و الحد من العدوانية ، بتحويل التصورات السلبية للأفراد عن محيطهم الخارجي إلى تصورات ايجابية ، و بذلك يتحقق التوازن و الانسجام بين الحياة النفسية الباطنية للشخص و محيطه الخارجي .

و قد نال المديح مكان الصدارة في الشعر الأندلسي و المغربي على غرار ما نال من مكانة بالمشرق ، و برز في مضماره جمع من الشعراء الفحول الذين تجاوزت شهرتهم الآفاق ، و من هؤلاء الشعراء : أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي موضوع البحث المعنون: ابن الأبار القضاعي و مدائحه في البلاط الحفصي .

و قد نزع الشاعر مكرها عن الأندلس بعد سقوط مدينته – بلنسية – في أيدي الصليبيين سنة (636هـ) ، فالتجأ إلى الإمارة الحفصية الفتية ، مستنجدًا بسلطانها أبي زكريا ، طالبا العون و النجدة لرد الغزاة ، لكن ذلك لم يكن ممكنا ، فقد أحكموا قبضتهم على جل المدن و الحصون الأندلسية ، فقرر ابن الأبار الإقامة الدائمة

بالبلاط الحفصي بعد أن نجح في مد جسور التآخي بينه و بين السلطان و بعض نزلاء البلاط .

و تعود علاقتي بالأدب المغربي و الأندلسي إلى مرحلة الليسانس من دراستي الجامعية ، فقد بدأت هذه العلاقة في شكل ميل و انجذاب إلى دراسة الأدب الأندلسي و المغربي و مطالعة كل ما له صلة بذلك ، و سرعان ما تطور هذا الميل إلى إعجاب و شغف بالشعر — خاصة — و أضحت أسباب هذا الإعجاب أكثر وضوحا و أدق تحديدا ، إذ لا أخفي ما تثيره لفظة الأندلس في النفس من حرقلة و شجن ، و ما تستدعيه من طيف ماض مشرق ظل لقرون ينشر شذاه و أريجيه على تلك المنطقة ، أما عن علاقتي بالشعر المغربي القديم فهي طبيعية لا تحتاج إقامة الدليل عليها ، فكل إنسان مجبول على معرفة أصله و تمجيد أرومته ، فهي علاقة الفرع بالأصل و الغصن بالشجرة .

كما لا أنسى ما للشعر الأندلسي من عذوبة أسرة و سحر أخاذ ، لا يستطيع الخلاص من جاذبيته كل من يقترب منه و يتنسم من نفحاته و يغترف من معينه .

فالمغرب و الأندلس قد جمعت بينهما أواصر و صلات وثيقة في الكثير من مجالات الحياة: سياسيا و اجتماعيا و ثقافيا... و ما انفك التفاعل بين أدب كل منهما يزداد و يتطور ، و تلك الأواصر تشتد و تقوى إلى أن تحولت العلاقة إلى التحام لا يمكن فصل عراه و فك روابطه ، بل لقد أضحي المغرب و الأندلس — في أغلب الفترات التاريخية التي أعقبت الفتح الإسلامي لهما — إقليما واحدا لا يتجزأ ، و بعد نزوح جموع غفيرة من الأندلسيين إلى بلاد المغرب ، إثر سقوط جل مدنها في قبضة الإسبان الصليبيين ، امتزج الأدب المغربي بالأندلسي و اكتسب الكثير من عناصر القوة و النضج و الجمالية .

و يمكن أن نلتمس أسبابا و دوافع تقف وراء الإقدام على البحث في هذا الموضوع منها :

— ندرة البحوث و الدراسات حول الشعر المغربي و الأندلسي خلال القرن السابع الهجري ، فقد اعتادت الدراسات للأدب في المغرب و الأندلس التوقف عند حدود القرن السادس الهجري — عصري المرابطين و الموحدين و ما قبلهما — دون الامتداد إلى ما بعد ذلك ، و كأن الخيال قد نضب و القريحة انطفأت في الأجيال التي أعقبت تلك القرون ، كما ركزت معظم تلك الدراسات حديثها على الشعراء الأعلام دون أن تعير عنايتها لغيرهم من الشعراء الذين زاولوا نشاطا علميا و برزوا فيه ، أمثال : الشعراء الفقهاء ، الشعراء الفلاسفة ، الشعراء المؤرخين ...

— الواجب القومي و الوطني الذي يفرض علينا العناية بتراثنا الأدبي و ما أنضاف إليه من أدب الأندلسيين النازحين عن ديارهم عقب الأوضاع المأساوية التي تعرضوا لها خلال هذه الحقبة التي يغطيها البحث ، و الاطلاع على أوجه الحياة الأدبية بالدويلات المستقلة عن الموحدين ، و خاصة الدولة الحفصية التي بسطت ملكها على الجناح الشرقي للمغرب العربي و ضمت جزء شاسعا من وطننا العزيز ، فقد بلغت حدودها إلى ما وراء مليانة غربا ، بل ربما وصلت إلى مشارف تلمسان ، و استمر حكمها أكثر من ثلاثة قرون .

— التعريف بابن الأبار القضاعي و دراسة قسم من ديوانه ، فقد غطت شهرته بوصفه مؤرخا و فقيها على شاعريته ، بل إن جل كتب التراجم و الطبقات التي ترجمت لحياته ، لم تذكر أن له ديوانا شعريا ، و اكتفت في مجملها بالإشارة إلى عدد قليل من قصائده و مقطعاته ، و لم يُعرف أن له ديوانا شعريا إلا في نهاية الستينات من القرن العشرين ، بعد العثور على مخطوط لديوانه بالخزانة الملكية بالرباط ، و لم يمض عن تاريخ نشره إلا وقتا قصيرا ، الأمر الذي يجعلنا نرجح أن الدراسات التي اهتمت بابن الأبار و ديوان شعره قليلة إن لم نقل نادرة ، لم تف هذا الرجل حقه من التعريف و الدراسة الفنية لديوانه .

— محاولة التعرف على الخصائص الفنية و الموضوعية التي طبعت الشعر عامة و المديح خاصة بالبلاط الحفصي خلال القرن السابع الهجري ، و ما يمتلكه

من عناصر الجمال و الجودة و الأصالة تمكنه من الاستمرارية و البقاء و احتلال المكانة اللائقة به إلى جانب شعر مختلف أقاليم العالم الإسلامي .

و من كل هذه الحثيات وجدتي مدفوعا بقوة للبحث عن أنموذج أدبي عال يمكنه أن يقيم هذه العلاقة و يجسد هذا التمازج و الالتحام بين الشعر المغربي و صنوه الأندلسي ، فكان موضوع ابن الأبار القضاعي و مدائحه في البلاط الحفصي ، هو الرابطة بين شعر هذين الإقليمين .

من هنا فإن البحث سيتناول بالدراسة مختلف صور الحياة خلال القرن السابع الهجري بالأندلس و المغرب ، و التي كان لها الأثر الكبير في تكوين شخصية ابن الأبار ، و حضورا مكثفا في إبداعه الشعري ، إلى جانب دراسة حياته بمختلف جوانبها بكل من الأندلس و المغرب ، و آثاره العلمية و الأدبية مع العناية بديوانه الشعري الذي يتضمن المدونة التي يستهدفها البحث بالدراسة و التحليل ، الأمر الذي يوجب تحديد هذه المدونة و حصر أبعادها .

فقد جاء غرض المدح في ديوان ابن الأبار القضاعي ممتزجا بالاستتجاد و الاستعطاف ، وقد دعت إليهما الأحداث السياسية المأساوية التي عاشتها الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و اكتوى بنارها المسلمون في الأندلس و بلاد المغرب ، و نالهم من لفحها و لظاها عنت كبير .

و قصر ابن الأبار مدائحه على الحكام الحفصيين و خاصة السلطان أبي زكريا ، الذي أقام دعائم الدولة الحفصية و استقل عن دولة الموحدين ، و باستثناء قصائد المدح رقم : (54 ، 113 ، 152 ، 168) ، و القصائد رقم : (7 ، 8 ، 32) الموجودة بالملحق الأول ، فإن بقية قصائد الديوان في هذا الغرض كانت في مدح الأسرة الحفصية الحاكمة .

فقد سعى البحث إلى دراسة قصيدة المديح عند ابن الأبار للحكام الحفصيين دون غيرهم ، و تحليلها و مناقشتها لاستخلاص أهم قضاياها الموضوعية و الفنية ، و عدم إغفال ما يحيط بها من سياقات تاريخية .

و اقتصر البحث على غرض المديح دون بقية الأغراض الأخرى ، على عكس البحوث السابقة التي درست الديوان كله ، لتكون الدراسة أكثر عمقا و تركيزا ، و لأن مدائح الشاعر للحفصيين تغطي القسم الأكبر من ديوانه ، و قد توقف البحث عند المحطات الآتية :

مقدمة احتوت على أهم العناصر التي تطرق إليها البحث بالدراسة و التحليل .
التمهيد و عنوانه : صور الحياة في عصر ابن الأبار القضاعي ، الذي خصص للحديث عن البيئة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و الدينية بالأندلس و المغرب خلال القرن السابع الهجري ، و التي عاش فيها الشاعر و كان لها أثرها الواضح على شخصيته و شعره ، فالإنسان ابن بيئته التي لا فكاك له منها .

الفصل الأول و جاء بعنوان : ابن الأبار القضاعي حياته و آثاره ، و دارت الدراسة فيه عن حياة ابن الأبار القضاعي بمرحلتها الأندلسية و المغربية من جهة ، و آثاره الأدبية و العلمية من جهة أخرى .

الفصل الثاني و كان بعنوان : موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي ، و حاول البحث في هذا الفصل أن يتتبع الموضوعات البارزة في مدائح ابن الأبار للحفصيين ، و مدى مطابقتها لموضوعات المديح التي حددها النقد العربي القديم .

الفصل الثالث و عنوانه : البناء و الصورة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي ، و تناول الجوانب الفنية في مدائح ابن الأبار بالبلاط الحفصي ، مركزا على هيكل قصيدة المديح بنوعها : البسيطة و المركبة ، و ما تشتمل عليه من عناصر التقليد و التجديد ، كما تناول الحديث عن الصورة الشعرية و حصر أهم أنواعها و خصائصها الفنية .

خاتمة و تضم أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، بعد دراسة وتحليل لجوانب الموضوع ، حيث اهتمت الدراسة و أولت عنايتها به .

الفهارس الفنية الضرورية في مثل هذه البحوث العلمية .
لقد اتكأ البحث في مناقشته لكل القضايا التي تطرق إليها ، على الكثير من
المصادر و المراجع القديمة منها و الحديثة ، التي وفرت له السند العلمي الكافي
و أضاءت له مختلف الزوايا الغامضة ، و من هذه المصادر و المراجع :
كتاب العبر لابن خلدون ، نفح الطيب للمقري ، تاريخ إسبانيا الإسلامية للسان الدين
بن الخطيب ، الشعر و الشعراء لابن قتيبة الدينوري ، نقد الشعر لقدامة بن جعفر ،
دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، الحيوان للجاحظ ، العمدة لابن رشيق
المسيلي القيرواني ، منهاج البلغاء لحازم القرطنجي...

و من الدراسات الحديثة : عصر المرابطين و الموحدين لمحمد عبد الله عنان ،
النبوغ المغربي عبد الله كنون ، ظهر الإسلام لأحمد أمين ، في الأدب الأندلسي
لجودت الركابي ، الصورة الأدبية لمصطفى ناصف ، الصورة الفنية لجابر عصفور ،
المديح لسامي الدهان ، ملامح الشعر الأندلسي لعمر الدقاق ، الشعرية العربية لنور
الدين السد ، قصيدة المديح في الأندلس لأشرف محمود نجا ...

بالإضافة إلى عدد غير قليل من المعجمات اللغوية مثل : لسان العرب لابن
منظور ، تاج العروس لمرتضى الزبيدي ، المعجم الوسيط ، و الرسائل الجامعية
و الدوريات المتخصصة .

أما عن الدراسات السابقة التي تناولت ابن الأبار القضاعي ، فهي قليلة كما
سبق الذكر — فيما نعلم — فقد ألف عبد العزيز عبد المجيد كتابا حول ابن الأبار
بعنوان ابن الأبار حياته و كتبه دون أن يشير إلى إبداعه الشعري ، بل لقد أنكر أن
يكون لابن الأبار ديوان شعر . و بعد العثور على مخطوطة الديوان ، قام عبد
السلام الهراس بتحقيقه و نشره و أنجز دراسة فيه ، لكن هذه الدراسة تناولت
الديوان كله الأمر الذي أفقدها التركيز و التعمق ، كما قام الدكتور العلمي لراوي
بتناول ابن الأبار بالدراسة و البحث في رسالته لنيل درجة الدكتوراه ، حيث دار
القسم الأول منها حول حياة ابن الأبار و كتبه ، و خصص القسم الثاني منها لإجراء

دراسة فنية في شعره ، و قد انتفع البحث منها كثيرا ، غير أنني لاحظت أن هذه الجهود السابقة لا تزال في حاجة إلى من يكملها و يثريها ، فأخذت على عاتقي هذه المهمة الشاقة و الممتعة في الوقت نفسه ، و بدأت من حيث انتهت تلك الدراسات ، فكان بحثي المعنون : ابن الأبار القضاعي و مدائحه في البلاط الحفصي ، لعل و عسى — بعد ذلك — أتمكن من تقديم إضافة مفيدة إلى هذا الموضوع ، بالقدر الذي تسمح به أدواتي المعرفية المتواضعة .

و قد زواج البحث بين جانبين : التتظير و التطبيق ، فكل فصل منه يبدأ بطرح القضايا النظرية أولا ، و ينتهي بالتطبيق الذي نال القسط الأوفر في هذا البحث . و اعتمد البحث على منهجين أساسيين هما : المنهج الموضوعي و المنهج الفني ، بالإضافة إلى بعض المناهج الأخرى بصفة ثانوية ، فقد دعت الحاجة في هذه الدراسة إلى الاستفادة من مناهج مختلفة كل في موضعه ، فالمنهج التاريخي في التمهيد و الفصل الأول و في توثيق النصوص الشعرية عند الحاجة إليها ، و المنهج الموضوعي في الفصل الثاني ، و المنهج الفني عند الحديث عن أساليب التعبير و جماليات اللغة و أشكال الكتابة و نلمس ذلك في الفصل الثالث ، كما كان للتحليل مكانه من هذا البحث لاستخلاص أهم القضايا الموضوعية و الفنية ، فالبحت يرتكز أساسا على المنهج الموضوعي و المنهج الفني ، في حين أن المنهج التاريخي و المنهج التحليلي كانت الحاجة إليهما ثانوية تطلبتهما بعض السياقات ، و لهذا السبب كان وصف الدراسة بأنها موضوعية فنية .

ولا يفوتنا في نهاية المطاف أن نذكر بأن الاقتراب من الأدب المغربي و الأندلسي ، يعد مغامرة بحثية شاقة و مضنية لكنها ضرورية و ممتعة في الوقت نفسه ، يقطع الباحث شوطا طويلا فإذا التفت وراءه وجد نفسه يراوح المكان ، و لعل قلة المصادر و المراجع و مشقة الحصول عليها ، أهم العراقيل التي يتقاسمها جل الباحثين و يعانيتها معظم الدارسين في هذا الحقل المعرفي ، فلا ضرورة — و الحال هذه — أن نسترسل في سردها ، و بالرغم من كل الصعوبات ، فقد تم

إنجاز هذا البحث ، بفضل الله و توفيقه ، فإن كنت لا أزعم أنه قال كلمة الفصل في الموضوع ، فإنني أتمنى — صادقاً — أن يكون قد أضاف إلى الجهود السابقة فائدة جديدة ، و أن يفتح الطريق أمام بحوث لاحقة تثريه و تكمل ما فيه من نقص ، فالمعرفة الإنسانية تراكمية ، يضيف اللاحق إلى السابق ، أو هي مثل كرة الثلج المتدحرجة تبدأ صغيرة فكلما سارت كبرت ، أو كما قال الشاعر الحكيم :

و أزرق الفجر يبدو قبل أبيضه و أول الغيث قطر ثم ينسكب .

و يقتضي المقام أن أنسب الفضل لأهله و أن أعترف بالجميل لذويه ، فإن كان في هذا البحث من إضافة ذات قيمة و جديد مفيد ، فإن الفضل بعد الله عز و جل يعود إلى أستاذي الفاضل الدكتور محمد حجازي ، الذي أشرف على هذا البحث و تابع مراحل إنجازه خطوة خطوة ، فصوب أخطائه و قوم اعوجاجه ، و لم يضق صدره بي ذرعا لحظة ، و لم يبخل علي بشيء من جهده و وقته ، و منحني من خالص نصائحه و عظيم عنايته و توجيهاته القيمة ما أعانني و بعث الحماس في نفسي لإكمال هذه الرسالة ، فله مني جزيل الشكر و عميم الثناء و فائق التقدير ، و جزاه الله عن العلم و طلابه أوفر الجزاء ، و رزقه الصحة و العافية .

كما لا يفوتني أن أوجه شكري و عرفاني لكل الأساتذة الذين أناروا دربي و سدّدوا خطواتي و أزالوا عني غشاوة الجهل خلال مرحلة الدراسات العليا ، و أخص بالذكر الدكتورة : عبد الحميد بن صخرية ، علي عالية ، السعيد لراوي ، محمد زرمان ، كمال عجالي ، عيسى مدور ، صحراوي مقلاتي ، كما أشكر الدكتورة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين كلفوا أنفسهم عناء قراءة هذا البحث و تثمين محاسنه و تصويب أخطائه .

والله الحمد و الشكر و الثناء من قبل و من بعد على عونه و توفيقه و نعمه التي لا تحصى ، و أسأله السداد و الهداية و القبول ، و أن يعينني على شكره و ذكره و حسن عبادته .

تمهيد

صور الحياة في عصر ابن الأبار القضاعي

أ - الصورة السياسية

1- في الأندلس

2- في المغرب

ب - الصورة الاقتصادية و الاجتماعية

1- في الأندلس

2- في المغرب

ج - الصورة الثقافية

1- في الأندلس

2- في المغرب

د - الصورة الدينية

1- في الأندلس

2- في المغرب

إن الحديث عن العصر الذي عاش فيه الشاعر، يتطلب دراسة الأحوال العامة و الأحداث المتعاقبة من جميع جوانبها ، ليتمكن الدارس من معرفة العوامل التي ساهمت إلى حد كبير في تشكيل المسار العام الذي نهض بالحياة التي كانت مجالا رحبا و واسعا للشاعر خلال القرن السابع الهجري ، بمحطتيه الأندلسية و المغربية ، و بذلك تشكلت معظم الاستنتاجات و المفاهيم لدى الشخصيات المحورية التي كان لها الدور البارز في تلك الفترة ، و منها شاعرنا الذي هو محور الدراسة . و لكي يتم اكتشاف هذه المنظومة المعرفية للحيوات التي عاشها الشاعر ، فإنه حري بنا استبانتها حسب أهميتها و الدور الذي تؤديه في المجتمع ، إن إجابا أو سلبا ، و عليه فإن الحياة تنتظم بالصور الآتية :

أ - الصورة السياسية :

1 - في الأندلس :

شهد القرن السابع الهجري بالأندلس أحداثا سياسية و عسكرية كثيرة ، و كان من نتائجها : تراجع الحكم الموحد^{*} ، و انكسار شوكة المسلمين ، و انحصار رقعتهم و انتكاس رايتهم ، و ذهاب ريحهم في معظم جهات الأندلس . و بالموازاة فقد بدأ نجم الممالك النصرانية في الصعود ، و راياتهم المدعومة بالصليب في الارتفاع ، حيث توحدت كلمتهم ، و اجتمعت فلولهم ، و شرعوا في إسقاط المدن الإسلامية تباعا .

* - قامت دولة الموحدين على أنقاض المرابطين في بداية القرن السادس الهجري بالمغرب الأقصى ، و بسطت نفوذها على بلاد المغرب كلها و على الأندلس ، و قد أسسها محمد بن تومرت من قبيلة هرغة إحدى بطون قبيلة مصمودة ، يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، و قد شكك بعض المؤرخين في صحة هذا النسب ، غير أن ابن خلدون يؤكد . للمزيد ينظر/ عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 2000 م ، ص 27 - 28 .

ففي مطلع القرن السابع الهجري ، قرر البلاط الموحدى تنفيذ مشروعه القاضى بفتح الجزر الشرقية (ميورقة ، يابسة ، منورقة) ، و إخضاعها لسلطتهم — ، و القضاء على ملك بني غانية* فى عقر دارهم ، ثم ملاحقتهم فى المناطق التى احتلوها بالمغرب ، دون أن يكون لهؤلاء ملاذاً آمناً يتحصنون به ، و تمكن الموحدون من فتح ميورقة فى شهر ربيع الأول سنة (600هـ / 1203م)⁽¹⁾ .

لقد تمكن الموحدون من بسط سيادتهم على كامل الأندلس ، و القضاء على آخر جيوب مقاومة المرابطين و أتباعهم قضاء مبرما ، كما كان هذا الفتح تهديدا مباشرا للممالك النصرانية التى كان بنو غانية يسالونهم ، و يقيمون علاقات ودية معهم . و استمر الخليفة الناصر فى الاعتناء بشؤون الأندلس السياسية ، و العسكرية ، و الإدارية ، و ذلك بتوجيه الأوامر إلى سائر ولاة الأندلس بإعداد الجيوش ، و صنع الأسلحة ، و شراء العتاد الحربى ، كما قام بتعيين ولاة جدد على بعض المدن الأندلسية كإشبيلية ، و بسطة ، و شلب و بلاد غرب الأندلس ، و بطليوس ————— و جهاتها⁽²⁾ .

و عليه تم التحضير لغزوة كبيرة ضد الممالك النصرانية ، و الذين ما فتئ خطرهم يتزايد يوما بعد يوم ، من خلال سعيهم الحثيث لتوحيد صفوفهم و تدعيم قوتهم ؛ فقد وصلهم المدد بالمال و السلاح و الرجال من الكثير من الممالك النصرانية بأوروبا .

((فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة و بين الموحدين ، أخذ ملك قشتالة

* - يرجع أصل بني غانية إلى مسوفة إحدى بطون قبيلة صنهاجة البربرية ، و عرفوا ببني غانية على اسم أهم ، و كان علي بن يوسف المرابطى قد ولى على جزيرة ميورقة محمد بن علي المسوفى المعروف بابن غانية ، و بعد سقوط دولة المرابطين استقل بنو غانية بحكم ميورقة و الجزر القريبة منها. للمزيد ينظر/عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، 1981م ، ج 6 ، ص 390 - 409 . و علي محمد الصلابى : دولة الموحدين ، مؤسسة اقرأ للنشر ، مصر ، ط 1 ، 2007 م ، ص 128 .

(1) - بتصرف / محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين فى الأندلس ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، مصر ، ط 1 ، 1964م ، ج 2 ، ص 258 - 260 .

(2) - بتصرف / المرجع نفسه : ص 263 .

ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس ، و كان منذ هزيمة الأرك* الساحقة ، يتوق إلى الانتقام لهزيمته ، و رفع الوصمة التي لحقت من جرائها الجيوش النصرانية .
و في أوائل سنة (1209م) ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة في قواته ، و احتشد فرسان قلعة رباح في قلعة شلبطرة ... و سار ألفونسو صوب جيان و بياسة ، فانتسف الحقول و خرب الضياع ، و قتل و سبى ... و في العام التالي خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، و عاث في أراضي جيان و بياسة ، و وصل في عيئه إلى أراضي ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم⁽¹⁾ .
و لما كانت الحاميات الموحدية بالأندلس عاجزة على رد العدوان ، قرر الخليفة الموحي تجهيز حملة عسكرية لمواجهة خطر هجمات الممالك النصرانية .
يقول ابن خلدون (ت 808هـ / 1406م) : ((لما بلغ الناصر تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية... خرج من مراكش سنة تسع و وصل اشبيلية و استقر بها و استعد للغزو... و سار على التعبئة إلى الموضع المعروف بالعقاب** ، و قد استعد له الطاغية ، و جاءه طاغية برشلونة مددا بنفسه فكانت الدبرة على المسلمين ، و انكشفوا في يوم بلاء و تمحيص أواخر صفر سنة تسع و ست مائة ، و انكفأ راجعا إلى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها))⁽²⁾ .
و جاءت الفترة الثانية من هذه الأحداث و ما تلاها من تغير في سدة الحكم لدى هؤلاء ، بيد أن ذلك لم يكن له الأثر الذي يذكر ، بالرغم من طول خلافة بعضهم ، إلا أنها صورية شكلية لم تقدم في الأمر و لم تؤخر فيه ، و ذلك نظرا للأوضاع الغير اعتيادية التي كانت عليها الحال في تلك الفترة .

* - الأرك : حصن بالأندلس يقع قرب مملكة قشتالة النصرانية، دارت فيه معركة كبيرة بين قشتالة و حلفائها ، و بين الموحدين حيث حققت الجيوش الإسلامية بقيادة الخليفة الموحي أبي يعقوب المنصور نصرا ساحقا سنة 591 هـ . للمزيد ينظر/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، 133 - 143 .
(1) - محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، ج 2 ، ص 284 .
** - العقاب : موضع بين مدينة جيان و قلعة رباح ، وقعت به معركة العقاب الشهيرة بين مملكة قشتالة النصرانية و حلفائها، و بين الموحدين بقيادة الخليفة الناصر سنة 609 هـ ، و انهزم فيها المسلمون. للمزيد/ ينظر ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 336 .
(2) - المصدر نفسه : ج 6 ، ص 521-522 .

((و بعد موت الناصر تولى الخلافة ابنه يوسف المستنصر أبو يعقوب ولم يتجاوز العشرة أعوام ، و قيل ستة عشر عاما ، كان قليل الخبرة و التجربة... وقام أعمامه و مشيخة الموحدين بإدارة الدولة نيابة عنه ، فكانت أيامه كلها دعة و تواكل و هدنة))⁽¹⁾.

و بوفاة المستنصر سنة (620 هـ / 1223 م) ، دخل الموحدون في صراع دموي و تنافس حاد على السلطة ، و في هذه الأثناء ساءت الأحوال بالأندلس ، و ازدادت الهجمات النصرانية على مرسية و اشبيلية ، وسيطر حاكم برشلونة على ميورقة سنة (627 هـ / 1229 م) ، و قد اغتتم النصارى حالة الضعف و التفكك و زحفوا على الأراضي الإسلامية في وقت واحد ؛ فأرغون من الشــــرق ، و البرتغال من الغرب ، و قشتالة من الشمال ، بمساندة قوات صليبية من أنحاء أوروبا⁽²⁾.

((إزاء هذه الأوضاع المتردية جمع الأندلسيون كامل قواهم الذاتية ، و قاموا بانتفاضة شعبية شاملة ... و سلموا زعامتهم إلى رجال من أبنائهم ، كان أولهم ابن هود الذي تزعم الثورة سنة (625 هـ / 1227 م)، و ثانيهما أبو جميل زيان سنة (626 هـ / 1228 م) ، و آخرهم الثائر ابن نصر سنة (629 هـ / 1231 م))⁽³⁾. و في هذه الأثناء فر والي بلنسية أبو زيد بن أبي حفص بعد ثورة وزيره أبي جميل عليه ، و التجأ إلى حاكم أرغون ، ويذكر ابن خلدون أنه دخل في دين النصرانية⁽⁴⁾.

و تعد حادثة الارتداد هذه — إن صحت — دليلا على مدى الإفلاس و الهوان الذي أصاب الحكام الموحدين بالأندلس خلال هذه الفترة الحرجة في تاريخها ، و قد

(1) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس - المغرب و الأندلس ما بين ســــنتي (541 / 667 هـ - 1146 / 1268م) ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، 2005 م ، ص 126 .

(2) - بتصرف/ المرجع نفسه : ص 127 - 129 .

(3) - المرجع نفسه : ص 129 .

(4) - بتصرف/ المرجع نفسه : ص 129 - 130 .

تُكِبَتْ بقيادة ضعاف و متخاذلين همهم الوحيد البقاء في سدة الحكم ، و هم غير مؤهلين للقيام بأعبائه و تبعاته ؛ فجلبوا الويل على البلاد و العباد .

و ذكر لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ / 1374م) أن أبا جميل زيان قد دخل بلنسية ، و أعلن الولاء للعباسيين ، و بايعته بعض المدن والحصون الأندلسية ، و لم يمهل ملك أرغون طويلا ، و أوقع به الهزيمة بأنيشة قرب بلنسية ، و هلك فيها من المسلمين خلقا كثيرا ، و لم يجد من يمد له يد العون من أهل الأندلس؛ فأعلن بيعته لأبي زكريا الحفصي* حاكم تونس ، حيث قدم عليه كاتبه ابن الأبار مستجدا به لنصرة مدينته ، و ألقى بين يديه قصيدته السينية :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسًا

و لم يصل المدد و العون إلا بعد أن أحكم الحصار حولها سنة (635 هـ)⁽¹⁾.
((و واصل... ملك أرغون منازل بلنسية ورميها بالمجانيق و شدة القتال ؛ و ما زال المسلمون تنقص أعدادهم ، و النصارى تتوارد أمدادهم ... إلى أن بلغ الكتاب أجله ؛ فكانت المراوضة على إسلام البلد ، و الخروج عنه في الرابع عشر لصفر من السنة بعد سنة المنازلة))⁽²⁾ .

و سقطت الحواضر الأندلسية تباعا في أيدي الممالك النصرانية ، حيث سقطت قرطبة سنة (633 هـ / 1236 م) قبل بلنسية بثلاث سنوات ، كما لقيت المصير نفسه كلا من مرسية سنة (644 هـ / 1246 م) ، و إشبيلية سنة (646 هـ / 1248 م) ، و كان هذا السقوط المريع في مدة و جيزة⁽³⁾ .

* - يرجع نسب الحفصيين إلى هنتانة إحدى بطون قبيلة مسمودة البربرية، و كان أبو حفص عمر من أصحاب محمد بن تومرت المقربين، و هو الشخصية الثانية بعد عبد المؤمن بن علي في نظام الموحيين، ثم استقل بنوه بحكم إفريقية سنة 627 هـ بعد خلاف عقائدي مع المأمون الموحي، ثم ادعوا الانتساب إلى عمر بن الخطاب في عهد المستنصر الحفصي . للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 577 - 578 .

(1) - بتصرف/ لسان الدين بن الخطيب : تاريخ إسبانيا الإسلامية (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام) ، تحقيق/ ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، لبنان ، ط 2 ، 1956م، ص 272 - 273 .

(2) - المصدر نفسه : ص 273 .

(3) - بتصرف/ علي محمد الصلابي : دولة الموحيين ، ص 175 .

وكان لهذه الهزائم المتتالية ، أثرها البارز في مزيد من الانهزام و التقهقر من قبل المسلمين ، و قويت بالتالي شوكة النصارى ، و أخذوا بزمam المبادرة و الهجوم، و سيطروا على قلاع المسلمين قلعة تلو أخرى .

((لقد كان سقوط إشبيلية إيذانا بسقوط سائر المدن و الحصون الإسلامية فيما بينها و بين مصب الوادي الكبير، فاستولى النصارى تباعا على: شريش ، شذونة ، قادس ، شلوقة ، غليانة ، روضة ، ثغر شنتمرية ، و غيرها... و تحالف ابن الأحمر مع النصارى ، و عاونهم على قادس ، و بهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس ، و انكشفت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة))⁽¹⁾ .

و بهذه النكبات و الهزائم المتتالية ، انفرط عقد الأندلس الثمين و قد كان من قبل منظوما ، و لم يبق من المدن و الممالك الأندلسية الكبيرة ، إلا مملكة غرناطة بقيادة محمد بن يوسف ابن الأحمر ، فعرف كيف يستغل الموقف المضطـرم و يستثمره لصالحه ، في مهادنة النصارى ربحا للوقت و تحينا للفرصة .

و أستطاع هذا القائد بحنكته و دهائه أن يؤسس دولة في الجنوب الشرقي للأندلس ، و أعلن النصارى الحرب عليه في عام (660هـ/1261م) ، و تمكن من تحقيق نصرا كبيرا عليهم ؛ فانتعشت معنويات الأندلسيين بعد الأهوال و النكبات التي حلت بهم ، و لكن الهجمات من قبل ملك قشتالة لم تتوقف ؛ فبايع المستنصر الحفصي حاكم تونس ، حيث أمدّه ببعض العون و المساعدة لكنها لم تجد نفعا ؛ مما جعله يضطر إلى مهادنة ملك قشتالة ، ثم طلب العون من أبي يوسف المريـني* ،

(1) - المرجع السابق : ص 179

* - ينتسب المريـنيون إلى مجموعة قبائل زناتة البربرية ، و يذكر المؤرخون أنهم عرب صريجون ، و أنهم بعض ولد مادغيس بن بر بن قيس عيلان ، و قيل غير ذلك ، حياتهم قائمة على الترحال طلبا للماء و الكلا ، ولا يخضعون لحكم سلطان ، و يسكنون زاب إفريقية الى سـجلـماسة . للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 2 ، ص 5، 111 - 112 .

و مات ابن الأحمر سنة(671هـ) ، بعد أن وطد الملك لبني نصر استمر أكثر من مائتين و خمسين سنة أخرى⁽¹⁾.

في خضم هذه الأحداث الجسيمة ، و الأوضاع المضطربة التي شهدتها الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، هاجرت جموع غفيرة من الأندلسيين موطنهم متجهين صوب المغرب و المشرق ، بحثا عن الأمن و الاستقرار المفقودين بالأندلس السليبية ، و التي تكالبت عليها قوى النصرانية المدفوعة بحقد صليبي أعمى ، و تخاذل أبناءها في نصرتها و الدفاع عنها ، و قد وصف عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال* ، الحال المزرية التي بلغتها الأندلس ، و التفكك الذي باعد بين مدنها و أقاليمها ، فأضحت لقمة صائغة للأعداء ، فعند أخذ ألفونسو السادس لطليلة سنة(475هـ) قال قصيدته التي ظاهرها اليأس و باطنها الحث و التحريض و شحذ العزائم و الهمم و أيقاظ الضمائر ، و مما جاء فيها:

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسَ حُنُوا مَطِيَّكُمْ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
التَّوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَ أَرَى ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولًا مِنَ الْوَسْطِ
ونحن بين عدو لا يفارقنا كَيْفَ الْحَيَاةَ مَعَ الْحَيَاتِ فِي سَفْطِ**⁽²⁾.

(1) - بتصرف/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 182 - 183 .
* - هو عبد الله بن فرج بن زغلون اليحصبي ، كنيته أبو محمد ، و يعرف بلقب ابن العسال أو العسال ، من كبار زهاد طليطلة ، مشهور بالكرامات ، كان حافظا للحديث عالما باللغة متبحرا في علومها متقنا لفنونها ، غادر طليطلة بعد استيلاء العدو عليها ، فقصده غرناطة و بها توفي سنة (487هـ) . للمزيد ينظر/ ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، ج 2 ، ص 21 .
** - السفت : وعاء يوضع فيه الطيب و نحوه من أدوات النساء ، أو هو وعاء من قضبان الشجر توضع فيه الأشياء و الفاكهة و نحوها . للمزيد ينظر/ مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، إعداد/ إبراهيم أنيس و آخرون ، دار المعارف ، مصر ، ط 1 ، 1973م ، مادة (سفت) ، ج 1 ، ص 433 .
(2) - المقري : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1968م ، ج 4 ، ص 352 .

2- في المغرب:

عرف المشهد السياسي ببلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري ، اضطرابا و صراعا داميا بين الموحدين و حلفائهم ، و أنصار المرابطين الذين كانوا يطمحون في استعادة أمجاد دولتهم من جديد ، و خاصة من خلال حلفائهم من الأعراب و بني غانية ، و نتج عن هذا الصراع هزيمة القبائل المناوئة للدولة الموحدية من جهة ، و كذلك تصدع دولة الموحدين و انهيارها ، و ظهور دويلات جديدة بمختلف أنحاء المغرب من جهة أخرى.

ففي سنة (601هـ) خرج الخليفة الناصر لدين الله الموحدي في حملة عسكرية كبيرة لاسترجاع تونس و بعض مدن المغرب الأدنى و الأوسط ، و التي سيطر عليها بنو غانية من قبل ، فدخلها ثم حاصر المهديّة كذلك ، ولجأ ابن غانية إلى قابس هو و من معه من الأعراب ، فلاحقهم الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، و أوقع بهم الهزيمة بناحية تاجرا قرب قابس ، و استولى على معسكرهم ، ثم رجع الى المهديّة فكان سببا في استسلامها ، و لاحق الموحدون فلول بني غانية و الأعراب و القبائل المناوئة إلى ما وراء طرابلس ، و فر ابن غانية إلى صحراء برقة و انقطع خبره (1).

و يظهر أن متاعب البلاط الموحدي لم تنته بهزيمة بني غانية في الأندلس كما مر معنا من قبل ، فقد برز هؤلاء من جديد على مسرح الأحداث بالمغرب ، و استقطبوا إليهم بعض القبائل الأعرابية المعروفة بالغزو ، و تمكنوا من الاستيلاء على بعض المناطق الشرقية من بلاد المغرب .

ولما قرر الخليفة الناصر مغادرة إفريقية سنة (603هـ) ، أسند الى أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاني أمرها ، و أعطاه مطلق التصرف في إدارتها

(1) - للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 582 - 583 ، و ما تلاهما ...

كي يستطيع القيام بأعبائها ، و يقضي على الفتن و الثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية و أحلافهم من العرب⁽¹⁾.

و ذكر ابن خلدون أن الشيخ ابن أبي حفص قد اعتذر عن قبول هذه المهمة في البداية ، لكن إلحاح الخليفة الناصر عليه جعله يوافق بعد أن اشترط شروطا منها : العودة إلى المغرب بعد قضاء مهمات إفريقية في ثلاث سنين ، وأن يعطى مطلق السلطة في التولية و العزل ؛ فوافق الخليفة على هذه الشروط⁽²⁾.

و يمكن عد هذه الشروط إرهابات أولى ، و تباشير انفصال سياسي عن الدولة الموحدية ، و الإنفراد بحكم الجهة الشرقية لبلاد المغرب .

و عند وفاة الخليفة الناصر سنة (610هـ) ، تمهل الشيخ أبو محمد في بيعه الخليفة الجديد المستنصر ثم بايعه بالخلافة لاحقا.

و قام المستنصر بتعيين عمه أبا العلاء إدريس أميرا على تونس ؛ ليعنى بتدبير شؤونها إلى جانب الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، و لم يكن هذا التعيين محلا لرضا الشيخ و رأى فيه مضايقة له ، ولكن هناك من يقول بأن تعيين أبي العلاء لإمارة تونس لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبي محمد ببضعة أشهر⁽³⁾.

و من ثمة بعد تراكم هذه الأحداث بمجرياتها المتعددة و الكثيرة ، جاءت مرحلة أخرى : ((توفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس في مستهل شهر محرم سنة (618هـ / 8 مارس 1220م) ، بعد أن لبث نيفا و أربعة عشر عاما يضطلع بأعباء منصبه الشاقة... و كان لعزمه و شجاعته أكبر الأثر في تحطيم ثورة بني غانية ، و إنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، و حماية جناح الدولة الموحدية الشمالي الشرقي من الانهيار))⁽⁴⁾.

(1) - بتصرف/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 262 .

(2) - بتصرف/ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 583 .

(3) - بتصرف/ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، ج 2 ، ص 373 .

(4) المرجع نفسه : ج 2 ، ص 374 .

و لم يكن تعيين الشيخ ابن أبي حفص واليا على الجناح الشرقي لدولة الموحدين قرارا اعتباطيا ، بل هو تدبير مقصود يهدف إلى التخلص من نفوذ آل بني حفص في البلاط الموحي الذي سيطر عليه آل عبد المؤمن ، فقد كان أبو حفص عمر* الرجل الثاني في نظام الموحدين .

و مهما يكن من أمر فإن وفاة الشيخ أبي محمد عبد الواحد قد جعل يحيى بن إسحاق بن غانية يتحرك من جديد ضد الموحدين ، ويسيطر على بلاد الجريد** ، فتحرك إليه أبو العلاء في جيش من الموحدين و العرب الموالين لهم و أوقع بهم الهزيمة وشتت شملهم ، و كان ذلك سنة (621هـ/1223م) ، و استمرت غارات يحيى بن إسحاق بن غانية و من يواليه من القبائل العربية ، إلى أن مات على ضفاف نهر الشلف سنة (631هـ)⁽¹⁾.

و يظهر من خلال الأحداث التي لا تكاد تنتهي فصول منها حتى تبدأ الأخرى ، أن هذه البلاد قد تشكلت دقائقها و أحداثها وفق هذه الأنماط من السلوكات العنيفة المتعاقبة في بلاد المغرب ، و الذي لعب فيها بنو غانية أبرز الأدوار .

و بوفاة الخليفة الموحي المستنصر سنة (620هـ/1223م) ، دخل آل عبد المؤمن في صراعات دموية على السلطة ، حيث تداول عليها في فترة وجيزة ثلاثة خلفاء كان ثالثهم المأمون ، الذي دعا لنفسه بالخلافة ، و استعان بالنصارى على أخيه العادل سنة (624هـ)⁽²⁾ .

* - هو والد الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني الذي عينه الناصر الموحي واليا على المغرب الأدنى (الجناح الشرقي للدولة الموحدية) سنة (603هـ) ، و قد استقل بهذه الجهة ابنه أبو زكريا عن سلطة الموحدين في خلافة المأمون سنة (625هـ) .

** - هي منطقة صحراوية بالجنوب التونسي ، و من مدنها : قفصة و نفطة و الحامة و توزر... ينظر/ محمد بن عبد الله التتسي : تاريخ ملوك بني زيان (مقتطف من : نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان) ، تحقيق/ محمود بوعيد ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، 2007م ، (فهرس الأماكن للمحقق) ، ص 285

(1) - بتصرف/ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، ج 2 ص 374 - 378 .

(2) - بتصرف/ داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 127 - 128 .

و كان هذا الصراع إيذانا بتفكك و انهيار الدولة الموحدية ، في مختلف المجالات و الجهات التي بسطت عليها سلطتها من قبل ، و ظهور بعض الدول المستقلة بمختلف جهات بلاد المغرب ، مما مكن وسائل الضعف من الانتشار ، و وسائل التحلل و التمزق من الاتساع ، و هذه نتيجة حتمية .

وأرسل المأمون إلى والي تونس أبي محمد عبد الله ليأخذ منه البيعة ، فرفض مبايعته ، فأرسل إلى أبي زكريا الحفصي حاكم قابس ، و ولاه على بلاد إفريقية كلها ، وقبل بيعته وسيطر على تونس في الرابع و العشرين من رجب سنة (625هـ) ، ثم تخلى عن بيعة المأمون الموحيدي ، و انفصل نهائيا عن الدولة الموحدية سنة (626هـ / 1229م)⁽¹⁾ .

و تلقب بالأمير و وضع علامته في رسائله ، و جدد البيعة لنفسه سنة (634هـ) و ذكر اسمه في الخطبة بعد الإمام ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، و قد أشار عليه بعض الشعراء أن يتسمى بأمير المؤمنين في بعض قصائدهم إذ قال أحدهم :

ألا صل بالأمير المؤمنين فأنّت بها أحقّ العالمينا

و قد رفض ذلك حتى نهاية حكمه⁽²⁾ .

وبذلك قامت الدولة الحفصية ، وارثة الدولة الموحدية على بلاد المغرب الأدنى و الجهة الشرقية من بلاد المغرب الأوسط ، بزعامة الأمير أبي زكريا الحفصي ، الذي ((استطاع أن يخضع الجزائر ، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته ، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفا شديدا ، فاستقام له حكم البلدين حكما رشيدا يقوم على نشر العدل و الأمن في البلاد))⁽³⁾ .

(1) - بتصرف/ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم/ محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد الريحي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1968م ، ص 107-108

(2) - بتصرف/ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 594-595 .

(3) - شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 1 ، 1995م ، ص 40 .

و بدأت أهداف الحفصيين تتحقق تدريجيا ، و دولتهم تمتد باتجاه الغرب ، و ارثة بذلك الدولة الموحدية الآيلة للسقوط ، بفضل حنكة قادة الإمارة الحفصية الصاعدة .
و في سنة (633هـ / 1236م) تسلم يغمراسن ولاية تلمسان بعد وفاة أخيه ، فكان أول أمير من بني عبد الواد* أعلن استقلاله عن الموحيدين ، و يعتبر عهده بداية الدولة الزيانية و نهاية عهد الموحيدين بالمغرب الأوسط (1) .

و قد أظهر يغمراسن حنكة سياسية وحرية و عزما و حزما كبيرين ، فتمكن من تأسيس دولة قوية ، استعصت على الأعداء و ذلك لقوة شوكتها و دربة مراسها ، حتى أنها استمرت عدة قرون ، و قد وصف يحيى بن خلدون مؤسسها يغمراسن بقوله : ((فارع الثنية و عاطف الحنية ، و المستأثر دون الملوك بالخلال السنية)) (2) .

لقد شكل قيام دولة الزيانيين ضربة جديدة للموحيدين ، تضاف إلى الضربات التي تلقوها من قبل ، فانفرط عقدهم و ذهبت ريحهم و تلاشى ملكهم ؛ نتيجة الصراعات و الفتن التي نخرت جسد دولتهم ؛ فأخنى عليها الذي أخنى على لبد** .
و رأى الحفصيون أنهم أحق بوراثته ملك الموحيدين ، فشرع أبو زكريا في بسط سلطته على تلمسان ، و قرر إخضاعها لحكمه و ضمها إلى إمارته .

* - بنو عبد الواد : ينتسب بنو عبد الواد إلى قبيلة زناتة البربرية مثلهم في ذلك مثل بني مريـن، و هم من القبائل الرحـل التي تجوب الصحراء ، وكانوا يقصدون الشمال الغربي من الجزائر كل صيف ، و يضعون أنفسهم في خدمة والي الموحيدين على تلمسان، و يشاركون الموحيدين في حروبهم ، و قد أتاح لهم ذلك الإقامة بتلمسان ، و تأسيس إمارة مستقلة بها على يدي قائدهم يغمراسن بن زيان سنة 633 هـ ، للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 4 ، ص 3- 7 ، 97- 161 .

(1) - بتصرف/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 42 .
(2) - يحيى بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق/ عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980م ، جـ 1 ، ص 204 .

** - هو شطر بيت شعري من معلقة النابغة الديباني ، أخنى : بمعني أفسدها أو أتى عليها ، و لبد : اسم آخر نسور لقمان ، و كان ممن آمن بنبي الله هود ، فلما أهلك الله عادا ، خير لقمان بين بقاءه إلى أن تقنى سبع بعرات سمر من أظب عفر لا يمسه القطر ، أو بقاءه إلى أن تنتهي أعمار سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختار الأنسر فكان آخر نسوره يسمى لبد أي أنه لا يموت ، و يزعمون أنه حين كبر قال له : انهض لبد فأنت الأبد . و قد شاع هذا البيت على كل لسان و سارت بذكره الركبان ، و أصبح يضرب كمثل سائر ، حين الحاجة إلى مثل هذه الأوصاف . للمزيد ينظر/ الشيخ أحمد الشنقيطي : شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 5 ، 1404هـ/ 1983م ، ص 204

((و في شهر شوال من سنة تسع و ثلاثين و ستمائة تحرك إلى تلمسان في جيش جملته أربعة و ستون ألف فارس ، و في شهر ربيع الأول من سنة أربعين و ستمائة دخلها عنوة من باب كشوطة ... و صاحبها حينئذ أبو يحيى يغمراسن بن زيان العبد الوادي ... ثم رجع الأمير أبو زكرياء إلى تونس سالما غانما ، و قد سلم البلاد للعبد الواديين إلا من مليانة شرقا ... و في سنة ثلاث و أربعين و ستمائة وصلت بيعة إشبيلية و المرية و شريش و طريف و سبتة و قصر ابن عبد الكريم و سجلماسة))⁽¹⁾ .

و كانت بيعة أهل بلنسية قد وصلت من قبل — كما مر معنا — و من خلال تتابع الصراعات التي كانت قائمة حينئذ ، فقد فرضت بيعات جديدة و تغييرات منتظمة ، و إعادة رسم خريطة سياسية جديدة لبلاد المغرب .

و بايع المرينيون الذين كانوا يقاتلون الموحدين بالمغرب الأقصى أبا زكريا الحفصي خوفا من سطوته ، و حملوا الكثير من قبائل و أمصار المغرب المواليون لهم على مبايعته كذلك⁽²⁾ .

لقد استطاع السلطان أبو زكريا أن يرسخ دعائم مملكته بتونس ، و يواجه خصومه في الداخل و الخارج بحنكة و دهاء كبيرين ، كما تمكن من توسيع حدود دولته من طرابلس شرقا إلى تلمسان غربا ، و أن يحظى بثقة و رضا الكثير من المدن و الممالك الإسلامية بالأندلس و المغرب ، و لا أدل على ذلك من الوفود الغفيرة التي جاءت مبايعة من الممالك و الأمصار، و ظهر و كأنه سيعيد الوحدة السياسية لبلدان المغرب الإسلامي مرة أخرى.

و خرج أبو زكريا من تونس إلى جهة قسنطينة للإطلاع على أحوالها ، و وصل إلى باغاية* فأصاب السلطان هناك المرض ، فرجع إلى قسنطينة و منها

(1) - ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 109 .

(2) - بتصرف/ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 618 - 619 .

* - باغاية : قد يقصد بها ابن خلدون منطقة بغاي التي تقع بالقرب من مدينة خنشلة ، و هي من الأماكن التي لها تاريخها في الزمن المغربي القديم ، و أنشطة الصراع فيه .

توجه إلى بونة* و نزل بظاهرها ، فاشتد به المرض و توفي بها سنة (647هـ)
و دفن هناك⁽¹⁾ .

و بوفاته تنتهي فترة التأسيس و إثبات الوجود للدولة الحفصية ، و تبدأ مرحلة
جديدة من تاريخ هذه الدولة ، حيث يسعى البلاط الحفصي الجديد إلى تعزيز
المكاسب الثمينة التي تحققت من قبل ، و العمل على ترقية الحياة بكل صورها في
هذه الإمارة .

((وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي
تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام
(656هـ) ، وكان إعلانه كأمر المؤمنين للمسلمين سنة (657هـ / 1259م) ،
و بايعه شريف مكة بالخلافة))⁽²⁾ .

و بوصول بيعة أهل الحجاز ، حققت الدولة الحفصية الناشئة مكسبا سياسيا
و دينيا لم تكن تحلم بتحقيقه أعظم الإمارات في ذلك الوقت التي قامت بالمغرب
الإسلامي ، و أضحت تتمتع بثقة و احترام المسلمين في مختلف الجهات .

و يذكر الفلقشندي (ت 821هـ / 1418م) : ((إن المستنصر أول من تلقب
بأمير المؤمنين من خلفاء الدولة الحفصية ، و ذلك عقب سقوط الخلافة العباسية
ببغداد ، و مبايعة شريف مكة له بالخلافة))⁽³⁾ .

* - بونة : هي مدينة عنابة الواقعة بالساحل الشرقي للجزائر حاليا على مسافة 600 كلم شرق الجزائر العاصمة،
أسسها الفينيقيون، وغزتها قرطجنة، ثم استولى عليها ملوك نوميديا، و لما هزم يوغرطة سنة (105 ق م) ،
ضمت إلى ما يسمى ولاية إفريقية الرومانية، و أصبحت مقرا للأسقفية، فتحها المسلمون سنة 78هـ ، و قد
عرف بها أحمد البوني من خلال كتابه (التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف). للمزيد ينظر/
إسماعيل العربي : المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م ، ص 196 .

(1) - بتصرف/ ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6 ، ص 654 .

(2) - علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 267 .

(3) - صبح الأعشى في صناعة الإنشا : نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف
و الترجمة و الطباعة و النشر ، القاهرة ، ج 5 ، ص 135 .

و لقد كان للطابع الديني الأثر الكبير في حياة الخلفاء الحفصيين ، فهم جميعهم ينتسبون إليه ، و يحاولون العمل بمقتضاه ؛ لذلك كانوا يتسمون بأسماء عظماء العهد الإسلامي الأول ، حتى مراتبهم و أسماء إماراتهم .

حاول بنو حفص أن يربطوا أنفسهم بالأصل العربي ، فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب ، و أعلنوا ذلك في كل حفل و مناسبة ، و أطلقوا اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية (1) .

و يظهر أن الحفصيين و من خلال إدعاء الانتساب إلى عمر بن الخطاب سعوا إلى توفير الشرعية الدينية لدولتهم ، وربطها بالنسب العربي الصريح و المتمثل في قریش - قبيلة الرسول صلى الله عليه و سلم - على غرار العباسيين و الفاطميين من قبل ، و ذلك توطيدا لسلطانهم و كسبا لمحبة الناس و استدرازا لعواطفهم الدينية . و تمكن بنو مرين من إسقاط ما تبقى من دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ، و كان ذلك سنة (668هـ / 1269م) ، و بعد هذا التاريخ استقل المرينيون بحكم المغرب الأقصى و أنهوا تبعيتهم للحفصيين (2) .

و لم يمر وقت طويل على هذه الأحداث المتوالية ، ففي السنة نفسها ، كانت حملة النصارى بقيادة الفرنسيين على تونس ، إذ نزلوا ساحل قرطاجنة ثم انسحبوا منها صلحا بعد موت ملكهم و اختلال التوازن لديهم ، فصار أمرهم إلى رحيل ، و فعلوا (3) .

و استمر المستنصر الحفصي يسهر على شؤون الحكم و القيام بأعبائه ، و ازدهرت في أيامه الدولة الحفصية في الكثير من المجالات ، و كانت وفاته بتونس سنة (675هـ) ، وخلفه ابنه الواثق بعد أن بايعه الناس بالخلافة في السنة نفسها (4) .

(1) - بتصرف/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 267 - 268 .

(2) - بتصرف/ المرجع نفسه : ص 234 - 235 .

(3) - للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 667 ، 670 - 671 .

(4) - بتصرف/ ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 134 .

و مما تقدم ذكره يتضح أن الحياة السياسية بالأندلس وبلاد المغرب قد عرفت الكثير من الأحداث و الصراعات والفتن المتعددة الأطراف بين المسلمين فيما بينهم من جهة ، و بين المسلمين و النصارى من جهة أخرى ، و كانت نتائجها سقوط المدن و الممالك الإسلامية بالأندلس في أيدي النصارى ، و تراجع المسلمين و هجرتهم إلى المشرق و المغرب ، ولم يتبق للمسلمين في نهاية القرن السابع الهجري بالأندلس إلا مملكة غرناطة .

كما شهد هذا القرن ببلاد المغرب تفكك الدولة الموحدية إلى ثلاث دويلات هي: دولة بني حفص بالمغرب الأدنى و شرق المغرب الأوسط ، و عرفت ازدهارا كبيرا ، و هاجر إليها الأندلسيون بكثافة ، واستقطبت جل العلماء و الأدباء من أهل الأندلس ، و لذلك تعد الدولة الحفصية ، دولة العلم و العلماء ؛ لسعتها لهم ، و حرصها عليهم ، و دولة بني زيان بالمغرب الأوسط ، و عاصمتها تلمسان، و كان طابعها حربيا أكثر مع عنايتها بالعلم و العلماء أيضا ، و دولة بني مرين بالمغرب الأقصى و التي قضت نهائيا على الموحدين وذلك سنة (667هـ) .

لقد حرصت هذه الدول الفتية جاهدة العمل على استتباب الأمن و الاستقرار؛ وهما الشرطان الأساسيان في تحقيق التطور الاقتصادي المرجو ، و الرفاهية الاجتماعية المنشودة .

ب - الصورة الاقتصادية و الاجتماعية:

1 - في الأندلس:

يتأسس النشاط الاقتصادي على أركان ثلاثة تشكل حلقات مترابطة و متكاملة فيما بينها هي: الزراعة، و الصناعة، و التجارة، وقد شكلت هذه العناصر نواة الحياة الاقتصادية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، حيث شجع الموحدون السكان في نشاطهم الاقتصادي بمختلف أوجهه و اشرفوا عليه ، وذلك بحسب خصوصيات كل منطقة من مناطق الأندلس المناخية ، و الجغرافية ، و كذلك البشرية .

ففي مجال الزراعة ، ((كان للخلفاء الموحدين الفضل في تقريب و تشجيع المهندسين المبرزين بالمساحة و الفلاحة ... و إليهم يعود الفضل في تنفيذ كل المشاريع الهامة ، و بخاصة الاقتصادية منها))⁽¹⁾.

و لقد كانت أرض الأندلس مهيأة لمثل تلك الأعمال و الأنشطة المهمة ، إذ تعد — لخصوبتها و اخضرارها — جنة الله في الأرض .

لقد سعى الموحدون و بذلوا جهودا مضاعفة من أجل الاهتمام بالزراعة — و تحسين الإنتاج ، و تشجيع السكان على خدمة الأرض و حسن استغلالها ، فظهرت المشاريع الزراعية في مختلف جهات الأندلس ، و إليها يرجع الفضل في تحقيق الأمن الغذائي ، و قد عدت: سلة الغلال بالنسبة للدولة الإسلامية .

((و اهتم الموحدون باعمار أراضي جبل طارق الصخرية بالزراعة — و استتبات الكروم و البساتين ، حيث جمعت مياه الينابيع من سفح الجبل ، و أجري جدول يصب في خزانات ضخمة لري أراضيها ، ثم سربت للجبل و اشبيلية المياه العذبة في قنوات فخارية تحت الأرض))⁽²⁾.

لقد كان المناخ المناسب بالأندلس ، عاملا حاسما في ازدهار الزراعة و وفرة الإنتاج ، مكن أهلها من تأمين حاجياتهم الزراعية ، و رفع مستوى معيشتهم .

(1) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 141 - 142 .

(2) - المرجع نفسه: ص 142 .

((و قد عرف أهل الأندلس كيف يستفيدون من هذه الظروف الطبيعية المناسبة لجعل أراضيهم على درجة عالية من الخصب و العطاء ، و بخاصة في ظل حكم الموحدين الذي حقق للبلاد على جانبي المضيق استقرارا سياسيا ، و حرية اجتماعية))⁽¹⁾.

و تخصصت بعض جهات الأندلس ، بزراعة معينة تتناسب و طبيعة المناخ و نوعية التربة بها ، الأمر الذي ساعد على تحسين الإنتاج كما و كيفا .
لقد كانت بياسة تعرف بإنتاج الزعفران ، و تصدره إلى المدن المجاورة و إلى بلاد المغرب ، و جيان بإنتاج اللحوم و العسل و الحبوب ، واشتهرت اشبيلية بزراعة الزيتون و عصره و التين القوطي و الشعري ، وهما صنفان لا يوجدان إلا بها ، كما عرفت غرناطة بزراعة الكروم ، وكانت قرطبة واسعة السهول متنوعة المحاصيل⁽²⁾.

و تحدث الكتاب من الذين اشتغلوا بدراسة الحياة في الأندلس ، عن طبيعتها و الظروف التي صنعت منها ، تلك الأرض التي تميز أهلها بالبذل و العطاء في مختلف مجالات الحياة ، و تمكنوا من النهوض و تحقيق كل الحاجيات الضرورية ومنها ، ما ذكره سلامة عبيدات حين قال: إن عدد الطواحين وصل إلى أرقام كبيرة ، تدل على مستوى المجد الذي بلغته هذه البلاد التي تحسنت فيها حال أهلها كثيرا ، و منها جاء إبداعهم في جل المجالات: ((فتواجدت في الأندلس الطواحين المائية و النواعير ، مقامة على حواف الأنهار ، على طول الوادي الكبير ؛ قرب قرطبة ، و بالمنطقة الواقعة في المياه الواطنة من اشبيلية ، و يذكر أن هناك أكثر من ثلاثمائة طاحونة تدار بالماء في داخل أسوار غرناطة و خارجها فقط))⁽³⁾ .

و ظهرت في الأندلس خلال القرن (السابع الهجري) العديد من الدراسات الجادة عن الزراعة ، كان لها الأثر الكبير في تنمية هذا القطاع الحيوي الهام ، و الذي يعد

(1) - المرجع السابق : ص 143 .

(2) - للمزيد ينظر / المرجع نفسه : ص 143 - 144 .

(3) - المرجع نفسه : ص 145 .

الركيزة الأهم في التنمية الاقتصادية: ((فظهرت تقنيات الحراثة و البستنة و زراعة الأشجار الحرجية ، فضلا عن تقنيات علم الحيوان))⁽¹⁾.

و بفضل هذه الجهود المتواصلة من أهل الأندلس ، و بتشجيع و دعم من الخلفاء الموحيدين ، و حكام بعض الأقاليم المستقلة، تطورت الزراعة و تنوعت محاصيلها ، و صدرت بكميات وفيرة إلى خارج البلاد خلال هذا القرن .

ومع ذلك فقد واجهت الزراعة الأندلسية الكثير من الصعوبات و العراقيل لا من قلة خصوبة أراضيها ، و لا من شح المياه فيها ، و إنما من جراء كثرة الحروب و الغزوات ، التي كانت تقع بين الحين و الآخر في بعض المدن و الأقاليم الأندلسية من طرف الممالك النصرانية ، و بعض الحكام المسلمين .

وتسببت الفيضانات التي اجتاحت بعض المناطق ، في الكثير من الخسائر في قطاع الزراعة ؛ بسبب كثرة الأودية الدائمة الجريان ، و غزارة تساقط الأمطار، حيث يذكر محمد عبد الله عنان قائلا : ((وقع باشبيلية حادث مفزع هو وقوع السيل العظيم ، الذي لم يسمع بمثله من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ... و غمرت المياه المدينة بأسرها ... و اجتاحت هذا السيل وادي النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، و حتى ثغر قادس ، و مات من جرائه الكثيرون غرقا))⁽²⁾.

أما في المجال الصناعي الذي يمثل ركنا هاما من أركان النشاط الاقتصادي لدى جل الشعوب المتحضرة ، و مؤشرا واضحا على مدى التقدم التقني و العلمي ، و رافدا متميزا من روافد النهضة الاقتصادية للسكان ، فقد ظهر اهتمام الأندلسيين بالصناعة بوضوح ، بالإضافة إلى حرص الموحيدين على تنمية هذا القطاع الحيوي الهام .

وقد عرفت بلاد الأندلس خلال القرن السابع الهجري الكثير من الصناعات ، حيث توفرت المواد الخام ، و الأيدي الفنية الماهرة .

(1) - المرجع السابق : ص 144 .

(2) - محمد عبد الله عنان : الأندلس في عصر المرابطين و الموحيدين ، ج 2 ، ص 256 - 257 .

((و لم يتوان ملوك بني عبد المؤمن عن دعم آلاف الصناعات النسيجية والمعدنية ، الورقية و الزيوت النباتية ، و الصابون و الدباغة التي أنتجت صنوف الحقائق و الأحذية ، ثم صناعة الصباغة و الزجاج و الحبر))⁽¹⁾.

كما تميزت كل مدينة بصناعة معينة ، و برعت فيها ، واستطاعت أن تصدرها إلى خارج الأندلس ؛ فمن تلك المدن التي ذاع صيتها و اشتهرت في ميادين متعددة ، من هذا النهوض الصناعي الكبير في ذلك الوقت:

بلنسية التي تخصصت في صناعة النسيج الفاخر، و الذي كان يصدر إلى بلاد المغرب و اشبيلية ، وتخصصت مرسية في صناعة السجاد و الأفرشة و الأدوات المعدنية ، أما المرية فقد عرفت بصناعة الحرير بمختلف أنواعه و ألوانه ، وصناعة الفخار، كما ازدهرت صناعة الرخام الأبيض و الملون بقرطبة و غرناطة ، وانفردت هذه الأخيرة بصناعة الألبسة الملبدة⁽²⁾.

و اهتم الخلفاء الموحدون بالصناعات الحربية ، و ذلك من أجل تأمين البلاد و تحصينها ضد كل غزو محتمل ، و ضبط الأمن الداخلي ، و تحقيق الاستقرار المنشود للبلاد ، و من أجل ذلك :

((أقيمت الصناعات الحربية... لإنتاج الأسلحة ، من أسهم و رماح سيوف ، و ابتكرت المصانع الحربية المدافع القاذفة التي تقذف الكرات الحديدية الملتهبة))⁽³⁾.

لقد اعتنى الموحدون بالصناعة العسكرية المختلفة التي لا يمكن الاستغناء عنها لا في الحرب ولا في السلم ، فلا تكاد الحرب تضع أوزارها هنا إلا و يرتفع لهيبها هناك.

كما نشطت حركة التبادل التجاري خلال هذا القرن في داخل الأندلس ، و كذلك مع الكثير من الدول خارجها .

(1) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 146 .

(2) - بتصرف/ المرجع نفسه : ص 147 .

(3) - المرجع نفسه : ص 148 - 149 .

((و استمرت منتجات المدن الأندلسية تتدفق على المغرب ، و تصدر إليها الأخشاب و الحبوب و الكتان ، مما حدا بالموحدين أن يزدوا في عيار الدينار الموحيدي (رفع قيمة العملة) ، و قد نشطت حركة المراكب التجارية بين العدوتين ، تحمل الغلال و الطعام من المغرب ، و تعود بأنواع الفواكه و القطن و زيت الزيتون من اشبيلية إلى ميناء سلا ، فضلا عن المنسوجات البلنسية و أدوات الزينة من المرية))⁽¹⁾ .

إن هذا النشاط التجاري الكبير لم يكن مقتصرًا على بلاد الموحدين في العدوتين فحسب بل تعداه إلى الممالك النصرانية المجاورة ، و إلى من له التأثير المباشر عليهم و الاستفادة الكاملة من وجوده و انتظامه و نهوضه.

فقد عمل بنو غانية حكام ميورقة على إبرام المعاهدات التجارية مع الدول النصرانية القريبة مثل: جنوة ، و بيزة ، حيث كثرت المبادلات التجارية بينهم ، وكانت ميورقة تستورد منهم السفن و الأسلحة ، و تصدر إليهم الحبوب و منتجات الجزيرة الأخرى⁽²⁾ .

و قد كان لبعض المدن ، المكانة الرفيعة في ذلك الوقت ، حتى أن نشاطها تجاوز حدود الأندلس و بلاد المغرب ، إلى بقية البلدان الأخرى، التي كانت تستفيد من تلك النهضة التي تعددت مجالاتها و ابتكاراتها.

((كما كانت مدينة المرية ثغرا هاما تحط و تتطلق منها المراكب التجارية الدولية ، فلم يكن في بلاد الموحدين أكثر مالا من أهل المرية ، و لا أعظم تجارة ... حيث كان بها من الحمامات الوفيرة و الفنادق لاستقبال التجار من سائر الأقطار، نحو الألف فندق))⁽³⁾ .

و رغم الصعوبات و المخاطر التي طالما هددت التجار الأندلسيين كالقرصنة البحرية ، و قلة الأمن في الطرق البرية ، و كذلك الضرائب التي كانت تفرض على

(1) - المرجع السابق : ص 151 .

(2) - بتصرف/ محمد عبد الله عنان : الأندلس في عصر الموحدين ، ج 2 ، ص 258 .

(3) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 152 .

التجارة ؛ فإن ذلك لم يثن التجار من تسويق بضائعهم إلى مختلف الأسواق في الداخل و الخارج .

تلك هي أهم الملامح الجوهرية للحياة الاقتصادية بمختلف فروعها بالأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و لاشك أن للنشاط الاقتصادي آثاره العميقة على صورة الحياة الاجتماعية ؛ فهي ثمرة له و نتيجة عنه ، و لها سمات تعرف بها في الحياة بالأندلس خلال هذا القرن ، و تكمن في عناصر تشكلها النشاطات التالية كما يذكرها أحمد أمين: ((على كل حال كانت العناصر التي سادت الأندلس أربعة :

- (1) العرب ، و كانوا يحسون إحساسا قويا بأرستقراطيتهم لغابتهم على الإسبانيين و البربر و إدخالهم في الإسلام، و بلغتهم التي تفوق غيرها.
- (2) البربر ، و هم يشاركون العرب في البداوة و الإسلام و العصبية القبلية و الشجاعة، و لذلك وجد منهم العرب الأمرين عند فتحهم للمغرب.
- (3) الإسبان، و هم مسيحيون كاثوليك، يرون أن البربر و العرب دخلاء عليهم و أنهم أحق بملك بلادهم.
- (4) المسلمون المولدون من تزواج العرب بالبربر ، أو العرب بالإسبانيات و الصقالبة⁽¹⁾.

و قد انصهرت هذه العناصر السكانية انصهارا شديدا بفضل مبادئ الإسلام السمحة و قيمه الرفيعة ، و التي لا تقيم وزنا للعرق ولا للغة ولا للون ، فدخل السكان الأصليون في دين الله أفواجا ، و عاش سكان الأندلس في كنف الأمن و الاستقرار في بداية القرن السابع الهجري ، و كان نشاطهم هو الزراعة ؛ و ذلك لخصوبة أرضهم و وفرة المياه ، و ازدهرت الصناعة و التجارة ، و عرف السكان حياة البذخ و الرفاهية ، في الملابس و المأكول و المشرب.

(1)- أحمد أمين : ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط 5 ، 1969م ، ج 3 ، ص 1 - 2 .

((و عرفت للأندلسيين صفات خاصة ، فمثلا اشتهروا بالنظافة ... و قد اعتادوا أن يسيروا في الشوارع و رؤوسهم عارية ، حتى لقد ترى القاضى ، أو المفتي و هو عاري الرأس ، و يندر أن يتعمم ، و اعتادوا أيضا أن يلبسوا البياض عند الحداد ، و قال القائل :

يَقُولُونَ الْبَيَاضُ لِبَاسُ حُزْنٍ بِأَنْدَلُسَ فَقُلْتُ مِنَ الصَّوَابِ
أَلَمْ تَرْنِي لِبَسْتُ بَيَاضَ شَعْرِي لِأَنِّي قَدْ حَزَنْتُ عَلَى الشَّبَابِ⁽¹⁾.

و انتشرت في ربوع الأندلس البساتين و المنتزهات العامة منها: المنية العامرية ، و منية السرور، ومنية الناعورة ، و جنة وادي العسل ، و الرصافة بمدينة بلنسية ، و التي تغنى بجمالها الشعراء ، و عرف الأندلسيون ألوانا من الأطعمة ، و التي تعبر عن مستوى المعيشة التي كانوا عليها ، و قد ذكر طائفة منها صاحب كتاب الطبخ⁽²⁾.

و كان لهذه العادات الاجتماعية في القرن السابع الهجري آثارها الواضحة على الإمارات النصرانية المجاورة للمدن الإسلامية في الأندلس.

((و أخذت المرأة الإسبانية تترين بالحياء ، و تسبل الستار على وجهها ، و مارست عادة الجلوس على الأرض ، و قد ظلت الحياة الاجتماعية في اسبانيا متأثرة تأثرا كبيرا بالحياة الإسلامية))⁽³⁾.

لقد كان تأثير الحضارة الإسلامية واضحا على شعوب شبه القارة الايبيرية بل تعداها إلى مختلف شعوب جنوب أوروبا ؛ و تلك سنة الله في خلقه* .

(1)- المرجع السابق : ج 3 ، ص 8 .

(2)- بتصرف/ داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 179 ، 183 .

(3)- المرجع نفسه : ص 191 .

* - يذكر ابن خلدون أن المغلوب مولع أبدا بالافتداء بالغالب في شعاره و زيه و نحلته و سائر أحواله ، و السبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها و انقادت إليه ، و أن كل قطر يغلب على أهله زي الحامية و جند السلطان في الأكثر ؛ لأنهم الغالبون لهم ، حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى و لها الغلب فيسري إليهم من هذا التشبه و الافتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجالقة ، فإنك تجدهم ينشبهون بهم في ملابسهم و شاراتهم و الكثير من عوائدهم و أحوالهم . للمزيد ينظر/ ابن خلدون : المقدمة ، ص 114 - 115 .

غير أن الحال الاجتماعية قد تدهورت كثيرا ، نتيجة عودة الحروب ، و تفكك الدولة الموحدية و انهيارها ، و سقوط المدن الأندلسية في يد الممالك النصرانية ، فبدأ أهل الأندلس في هجرة مدنهم قاصدين بلدان المغرب ، و المشرق هروبا من

بطش الصليبيين ، و بحثا على الأمن و الاستقرار ، و قد بدأ تفكيرهم في الهجرة بعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب المذكورة آنفا ، حيث يقول إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي:

وَ قَائِلَةٌ: أَرَاكَ تُطِيلُ فِكْرًا	كَأَنَّكَ قَدْ وَقَفْتَ لَدَى حِسَابِ
فَقُلْتُ لَهَا: أَفَكْرُ فِي عِقَابِ	غَدَا سَبَبًا لِمَعْرَكَةِ الْعِقَابِ
فَمَا فِي أَرْضِ أُنْدَلُسَ مُقَامٌ	وَ قَدْ دَخَلَ الْبَلَا مَنْ كُلِّ بَابٍ ⁽¹⁾

(1) - المقرئ : نفح الطيب ، ج 4 ، ص 464 .

2- في المغرب:

اهتم الخلفاء الموحدون و ولاتهم في أقاليم المغرب ، في بداية القرن السابع الهجري بالنشاط الاقتصادي بمختلف جوانبه ، من زراعة و صناعة و تجارة... وعملوا على رفع الإنتاج و تحسينه ، و ذلك لتأمين حاجيات السكان الضرورية ، و تحسين مستوى معيشتهم ، و تحقيق التقدم المنشود للبلاد.

ففي مجال الزراعة أشرف الخلفاء على استصلاح الأراضي و زراعتها ، و استنبتات الكثير من الغلال و المحاصيل و إقامة البساتين ، ((وكان الخليفة الناصر يختلف دائما إلى بساتينه بمراكش ، و لشدة محافظته عليها من العبث ، و اهتمامه بها من التعدي ، عين عليها حراسا دائمين ليلا مع نهار وقد أولع ابنه المستنصر بتربية المواشي و تكثيرها ، إذ عمل على تحسين نسلها من الأنواع الجيدة ، و إهلاك الرديء منها ، فكان يؤتى إليه بأصناف البقر المحسن من الأندلس ، و يرسلها إلى الحظائر المعدة لذلك في بساتين مراكش))⁽¹⁾.

و استمرت عنايتهم و حرصهم على تنمية الزراعة وتطويرها في شتى المجالات، و كان لتلك العناية الدور البارز و الأثر المحمود لدى عامة الناس و خاصتهم حيث ؛ احتفى الجميع بخدمة الأرض و استصلاحها ؛ من أجل تأمين الغذاء و تصدير الفائض إلى مختلف الأقطار و الأمصار .

((وهكذا لاحظنا تنوع في الإنتاج و كثرته في المغرب ، فهو ينتج الغلال و الزيتون ، منها ما يستعمل للتغذية و الإنارة و العلاج ، بالإضافة إلى المزروعات الصناعية ؛ و أهمها قصب السكر في نواحي مراكش و سوس ، و القطن في جهات سجلماسة ، و تستنبت الحنا في أراضي درعة ، و غيرها من النباتات التي تستخرج منها الأصباغ))⁽²⁾.

(1) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 142 .

(2) - المرجع نفسه : ص 143 .

و عمل الخلفاء الحفصيون على تشجيع الزراعة و تنميتها ، و الاهتمام بإقامة البساتين و غرس الأشجار المثمرة ، فقد أنشأ المستنصر الحفصي بساتين رأس الطابية و أبي فهر قرب أريانة ، و التي وصفها ابن الأبار في شعره* ، كما عمل على جلب المياه إلى تونس العاصمة ، و تجديد الحنايا الرومانية الجالبة للمياه من زغوان من أجل سقي الأشجار و الزروع عامة .

و يذكر شوقي ضيف أن الكثير من مدن شرق الجزائر و وسطها ، و التي كانت خاضعة للحكم الحفصي ، قد عرفت بخصوبتها و إنتاج الكثير من المحاصيل الزراعية مثل : القمح ، و الشعير، و الكتان ، و الفواكه ، و العسل ... كما عرفت بتربية المواشي ، و تزرع الأشجار المثمرة كالجوز، و التين ، و السفرجل ، و الكروم ، و إن سهل المتيجة الذي يبلغ طوله — حسب — خمسة و أربعين ميلا و عرضه ستة و ثلاثين ميلا ، و ينتج القمح بكميات وفيرة⁽¹⁾.

و من هذه المحاصيل الوفيرة و المتنوعة نتضح مدى العناية و الاهتمام بقطاع الزراعة من طرف السكان ، و الدعم و التشجيع المقدم من الحكام الحفصيين . أما في المجال الصناعي ، فلم يكن الاهتمام به أقل من الاهتمام بالزراعة ، فقد : ((نهض الموحدون بالصناعة التي توفرت لها المواد الخام المنتشرة في أنحاء المملكة الواسعة من مختلف المعادن ... و لم يتوان ملوك بني عبد المؤمن عن دعم آلاف الصناعات النسيجية و المعدنية و الورقية و الزيوت النباتية و الصابون و الدباغة التي أنتجت صنوف الحقائق و الأحذية ، ثم صناعة الصباغة و الزجاج و الحبر، هذا عدا عن ثلاثة آلاف طاحونة ، تطحن بالطاقة المائية بفاس وحدها))⁽²⁾.

* - مثل قوله : و لا تكلفوا بالنند و المسك بعدها تراب أبي فهر هو المسك و النند
تذكر جنات الخلود حدائق زواهر لا الزهراء و لا الخلد

للمزيد ينظر/ أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي : الديوان ، تحقيق/ عيد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر/ ديون المطبوعات الجامعية ، تونس/ الجزائر ، ط 2 ، 1986م ، ص 148 .

(1) - بتصرف/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 54 - 57 .

(2) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 146 .

و ظهر اهتمام الموحدين بالصناعات الحربية بجلاء ، حيث: ((ازدهرت دورا لصناعة و إنتاج سفن الأساطيل الحربية ، و سفن النقل لحمل المحاربين و أسلحتهم و تموينهم في قصر معمورة قرب طنجة ، إذ كان مركزا لإنتاج المراكب و صنع الحراقات لنقل المسافرين))⁽¹⁾ .

كما حاول الحفصيون تنشيط الصناعة في الجهة الشرقية لبلاد المغرب على غرار الموحدين، فقد أشرف السلطان أبو زكريا على توجيه الحياة الصناعية و التجارية ، ((و بدأ بتخصيص أسواق للمهن و الحرف و الصناعات حول جامع الزيتونة و في أطراف المدينة ... مثل: أسواق الصباغين ، و العطارين ، و الشماعين، و الجلادين ، و أسواق الذهب و الفضة و الزجاج و النقش على النحاس و بعض المعادن))⁽²⁾ .

و يذكر شوقي ضيف عند حديثه عن مثل هذه الحرف ، التي تعطي انطبعا على توقد الحس و جودة القريحة و النهوض الحضاري المتميز ، أن بعض مدن الجزائر قد انتشرت فيها صناعات مختلفة : كالحداة ، و النجارة ، و الحياكة ، و استخراج المعادن ، كالحديد الذي عرفت بصناعاته مدينة عنابة ، و الرصاص و الزنك بسطيف ، و كان ببجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل و السفن⁽³⁾ . و كان لهذه الصناعات دورا هاما في تأمين البلاد ، و تنشيط التبادل التجاري بقسميه الداخلي و الخارجي ، و إيجاد حركية اقتصادية فاعلة .

و عمل البلاط الموحي على تنشيط الحركة التجارية الداخلية و الخارجية : ((وتشجيعا منه أعفى التجارة من الضرائب المقررة و أخضعها للدولة ، بأن راقب موازينها و جودتها ، و عين رجال الحسبة الذين كانوا يسهرون ليلا مع نهار يجوبون الأسواق ، و يضبطون الأسعار))⁽⁴⁾ .

(1) - المرجع السابق : ص 148 .

(2) - أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، دار المعارف ، تونس ، ط 1 ، 1988م ، ص 16 .

(3) - بتصرف / شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 57 .

(4) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 150 .

و بالرغم من الصعوبات الجمة التي تعرض لها التجار المغاربة ، حين يتجهون إلى المناطق الجنوبية الصحراوية ؛ لقلّة الأمن في هذه الطرق و كثرة مخاطرها ، الأمر الذي أضعف الحركة التجارية و حد من نشاطها : ((لكن بلاد الموحدين رغم ذلك ظلت تحتفظ بالرخاء في ميادين الزراعة و الصناعة و التجارة عبر سجل ماسة ، مروراً بطريق الذهب إلى بلاد السنغال الذي استمر عامراً ، في حين تعطلت باقي الطرق الصحراوية الأخرى))⁽¹⁾.

أما عن حركة التجارة في إمارة الحفصيين ، فقد شهدت تطوراً ملحوظاً بسبب الاستقرار الذي عرفته خلال هذا القرن ، حيث يذكر أحمد الطويل نقلاً عن ربير برينشفيك ، أن المملكة الحفصية قد ارتبطت بمعاهدات اقتصادية مع بعض الدول الأوروبية ، كالنرويج ، و أرغون ، و بيزا ، و صقلية ، و خاصة في عهد المستنصر الذي أرسل وفوداً إلى باريس سنة (1269م) لمعالجة بعض المسائل المالية⁽²⁾.

و عن الحركة التجارية بالجناب الغربي لمملكة الحفصيين — شرق و وسط الجزائر — و ما يلي ذلك من مملكة الزيانيين ، فلم تختلف عما كانت عليه الحال ببقية جهات المغرب باستثناء تلك الخصوصيات الطبيعية و البشرية التي يمنحها الإقليم .

((و اشتهرت مدينة بجاية بتجارة الرقيق بنوعيه الأبيض و الأسود مما أغرى إسحاق بن غانية أن يشحن أجفانه (سفنه) في رحلاته ... لاستخدامهم في الجندية و خدماً في القصور و عمالاً لفلاحة الأرض))⁽³⁾.

كما تبوّأت تلمسان في عهد الزيانيين مكانة هامة في التجارة بالمنطقة ؛ لما تتمتع به من خصائص جغرافية و اقتصادية : ((فقد سهل لها موقعها القريب من

(1) - لويس ارشيبالد : القوى البحرية و التجارية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، تقديم محمد شفيق غربال ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، 1370هـ/1950م ، ص 150 - 151 .

(2) - للمزيد ينظر / أحمد الطويل : في الحضارة العربية التونسية ، ص 15 و ما بعدها .

(3) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 153 .

الموانئ الساحلية الشمالية و وجودها في مكان تلنقي فيه الطرق التجارية الكبيرة ، أن تكون سوقا عالمية لمختلف السلع و البضائع المتباينة ، القادمة من وراء البحر الأبيض المتوسط ، و من بلاد المغرب و المشرق و جنوب الصحراء ((⁽¹⁾).

لقد حاول الخلفاء الموحدون و حكام الممالك المغربية المستقلة عنهم ، النهوض بالحياة الاقتصادية في بلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري ، و دفع وتيرة الإنتاج إلى الأمام ، لتلبية ضروريات الحياة ، و تحسين معيشة السكان ، و ذلك بحثا عن الاستقرار و التضامن الاجتماعي ، حيث يعدان الركيزتان الحاسمتان في كل تنمية منشودة ، و قد كان لهذه الحركية الاقتصادية آثارها الواضحة على الحياة الاجتماعية في كامل بلاد المغرب الإسلامي ، الذي أصبح قلعة من قلاع النهوض و التحضر ، على غرار ما كانت عليه الحال في بلاد الأندلس .

أما عن الناحية الاجتماعية خلال القرن السابع الهجري ، فقد عرفت جملة من المميزات و السمات ، نتيجة المعطيات الاقتصادية و التحولات السياسية الحاصلة في بلاد المغرب ، ففيما يخص التجانس السكاني ، يذكر شوقي ضيف أن سكان بلاد المغرب يتشكلون من ثلاثة عناصر كبرى هي: البربر و هم السكان الأصليون ، و ينقسمون إلى فرعين كبيرين هم: البربر البتر، و البربر البرانس ، و يرجع نسبهم عند بعض المؤرخين إلى العرب و عند البعض الآخر إلى الساميين و الحاميين ، أما العنصر الثاني لسكان المغرب ، فهم العرب الذين هاجروا أثناء الفتح الإسلامي و بعده ، و أما العنصر الثالث فهم الأندلسيون الذين أخذوا في الهجرة إلى بلاد المغرب في نهاية القرن الثاني الهجري ، و ازدادت هجرتهم خلال القرن السابع الهجري بعد سقوط مدنهم في يدي النصارى⁽²⁾ .

(1)- عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2002 م ، ج 1 ، ص 134 .

(2)- بتصرف/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 298 - 303 .

و قد أُلِفَ الإسلام بين هذه العناصر السكانية ، و ربط بينهم برباط الأخوة الإسلامية المتين ، و صهرهم في بوثقتهم صهرا كاملا .

و ارتكزت الحياة الاجتماعية في بداية الدولة الموحدية على إتباع المبادئ التومرتية*، و القائمة على الزهد و التقشف و التواضع في اللباس و المعيشة ، غير أن الخلفاء المتأخرين — القرن السابع الهجري — تخلوا عن تلك التعاليم ، ثم : ((أخذ الموحدون يقلدون الأندلسيين شيئا فشيئا ، في ارتداء مختلف أنواع الديباج من الملابس الحريرية و الصوفية و الكتانية و القطنية))⁽¹⁾ .

كما انتشرت مظاهر الاحتفالات البهيجة و أخذت طابعا رسميا : ((كان الجيش يسير للغزو بموكب احتفالي مهيب و بروز عظيم... و قد استمر العمل بهذا النظام الرتيب طوال حكم الموحدين))⁽²⁾ .

أما عن الحياة الاجتماعية في إمارة الحفصيين فقد عرفت تطورا متزايدا، حيث عمل حكامها على دفع عجلة التقدم و الازدهار في جميع المجالات، بتأمين البلاد و تحقيق الاستقرار و تنشيط الحياة بأوجهها المختلفة ، فأقاموا البساتين و المنتزهات منها : رياض رأس الطابية، و بساتين أبي فهر ، كما سبق الذكر .

و يتحدث ابن قنفذ القسنطيني (ت 809هـ/1407م) مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد أبي زكريا الحفصي قائلا: ((و كانت أيامه خير أيام و أكثرها سعادة ، و أدرها أرزاقا ، و أكثرها أفراحا ، و نام الناس معه على مهاد العافية ، و اكتسبوا الأموال ، و أكثروا الغراسات))⁽³⁾ .

و واصل الخلفاء الحفصيون العمل على ترقية الحياة الاجتماعية و تحسين معيشة السكان ، فقد ذكر أحمد الطويلي نقلا عن المؤنس لابن دينار ، أن في عهد

* - نسبة إلى محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية ، و الذي عرف بالتقشف و الزهد و الورع ، و الابتعاد عن بهارج الحياة الدنيا و مباهجها ، و قد كان حصورا فلم يتزوج ، كما لم يتخذ جارية (ملك اليمين) .

(1) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 182 .

(2) - المرجع نفسه : ص 171 .

(3) - ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 112 .

أبي يحيى أبي بكر (692هـ / 749م) : ((كان بتونس أزيد من (700) حانوت للعطارة ، و كان يصنع بتونس كل يوم (4000) قفيز* من القمح ألف ثبل ، و ألف تطحن ، و ألف تغربل ، و ألف تعجن ، و زهت البلاد في أيامه))⁽¹⁾ .

كما كان لهجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب و خاصة إلى إمارة بني حفص آثارها الواضحة على الحياة الاجتماعية ، و ذلك يرجع إلى ما حملوه معهم من خبرات و مهارات ، و تقاليد في فن العمارة و الزراعة و الصناعة ، و بعض العادات و التقاليد في المأكل و الملبس ما تزال آثارها ماثلة إلى اليوم⁽²⁾ .

أما عن مناطق شرق الجزائر فيذكر محمد الطمار قائلا: ((و وقع في هذه الآونة تغيرات اجتماعية أخرى ، تحركات الأعراب كان لها أثرها من الناحية الاقتصادية ؛ فنزح العمران إلى السواحل البحرية بعيدا عن أولئك العناصر))⁽³⁾ .

و ازدهرت الحياة الاجتماعية — كذلك — في إمارة الزيانيين ، حيث انتشرت المراكز التجارية و المرافق العامة ذات الطابع الاجتماعي ، مما أدى إلى انتشار الرخاء و ازدهار المجتمع ، بالرغم من الحروب و الصراعات مع الدول المجاورة .

لقد نشطت الحياة الاقتصادية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري بجوانبها الثلاثة : (الزراعة ، و الصناعة ، و التجارة) ، و ساعد على هذا النشاط عوامل مختلفة منها : العامل الجغرافي ، و العامل المناخي ، و كذا العامل البشري ، و على غرار ذلك عرفت الحياة الاجتماعية تطورا متزايدا ، و برزت مظاهر الثراء

* - القفيز : هو مكيال كان يكال به قديما، و يختلف مقداره في البلاد، و يعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جراما. و من الأرض قدر مائة و أربع و أربعين ذراعا. للمزيد ينظر / مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، (مادة قفز) ، ج 2 ، ص 851 .

(1) - أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، ص 18 - 19 .

(2) - بتصرف / محمد الطالبي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ، مجلة الأصالة ، تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية الجزائر ، مطبعة البعث ، قسنطينة — الجزائر ، العدد 26 ، 1395هـ / 1975م ، ص 46 .

(3) - محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ، منشورات الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، المطبعة الشعبية للجيش الجزائر ، ط 1، 2007م ، ص 90 .

و الرفاهية بجلاء في بداية القرن السابع الهجري ، غير أن الأوضاع السياسية المتفجرة بين المسلمين أنفسهم ، و بين النصارى المتربصين ؛ جعل النشاط الاقتصادي يخبو و يتضرر ، مما انعكس سلبا على الجانب الاجتماعي برمته ، و بدأت هجرة الأندلسيين نحو بلاد المغرب تتزايد .

أما في بلاد المغرب فقد عمل الموحدون و حكام الإمارات المستقلة عنهم ، على توفير الشروط الضرورية لدفع العجلة الاقتصادية قدما إلى الأمام ، و من أهمها : استتباب الأمن و تحقيق الاستقرار ، فنشطت الحركة الاقتصادية بمختلف جوانبها ، و ساهم ذلك في تحسين معيشة السكان و ازدهار الحياة الاجتماعية ، و استمر هذا الوضع إلى نهاية القرن السابع الهجري ، و استقطبت بلاد المغرب الكثير من الكفاءات الثقافية الأندلسية ، و في خضم هذه الهجرات الفردية و الجماعية نحو بلدان المغرب الإسلامي ، تشكل المشهد الثقافي ، و عرف زخما علميا و أدبيا متزايدا ، في كل من الأندلس المغرب .

ج - الصورة الثقافية:

1 - في الأندلس:

عرف المشهد الثقافي بالأندلس خلال القرن السابع الهجري ازدهارا كبيرا ، في معظم مجالات العلم و المعرفة — على غرار ما عرفه من قبل — و يرجع ذلك إلى حرص البلاط الموحيدي على تنشيط الجانب الثقافي برربوع إمارتهم الممتدة ، و رعاية الأدباء و المتقنين و تقريبهم و إغداق الأموال و الهدايا عليهم ، فراجت سوق الأدب و الشعر، و ازدهرت الحكمة و الفلسفة ، و تطورت مختلف العلوم و الفنون .

و قد اشتهرت الكثير من المراكز الثقافية بالأندلس ، و شكلت منارات إشعاع معرفي ، و وجهة مفضلة لدى الأدباء و العلماء يشدون رحالهم إليها من مختلف الجهات ، و من المراكز التي لا يجوز إغفالها ذكرها في تلك الفترة : ((قرطبة و شريش و مالقة و غرناطة و بلنسية و مرسية و اشبيلية...))⁽¹⁾.

و أضحت قرطبة — أم الحواضر الأندلسية — منارة إشعاع حضاري على مر العصور، و شكلت واسطة عقد الثقافة الأندلسية إلى أن سقطت في قبضة النصارى .

و حضيت قرطبة باهتمام العديد من الشعراء و الأدباء ، الذين تفننوا في وصف محاسنها ، و التغني بأمجادها و منجزاتها الحضارية ، كما نبغ بها و أمها العلماء و الأدباء من كل فج عميق ، منهم : ((الأول: ابن هشام القرطبي* ، و الثاني :

(1) - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تحقيق محمد لحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، (مقدمة المحقق) ، 1966 م ، ص 47 .

* - ابن هشام القرطبي : هو الشاعر الأندلسي أبو القاسم عامر بن هشام القرطبي ، ولد بقرطبة و بها نشأ و تعلم ، و كان شاعرا متهنكا ثم صلحت حاله ، رحل إلى مراكش - حاضرة الخلافة الموحدية - و أقام بها ، له شعر في وصف الأندلس و الحنين إلى مسقط رأسه ، توفي سنة 623 هـ . للمزيد ينظر / أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي : زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر ، أعده و علق عليه : عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي ، بيروت 1980م ، ص 104 .

أبو زيد الفازازي⁽¹⁾ .

و كانت إشبيلية من المراكز الكبرى في الثقافة الأندلسية في عصر الموحدين ، حيث اتخذوها مركزا لولاياتهم بالأندلس ، و بقيت مترددة بين الخضوع للموحدين ، أو الولاء لبعض القادة المحليين خلال القرن السابع الهجري ، إلى أن وقعت في قبضة النصارى .

((أنجبت إشبيلية كبار العلماء و الأدباء ، و أشاد بها شعراؤها ، و رثوها عند سقوطها بأروع القصائد ، و حن إليها العديد من شعراء الأندلس ، سواء من شعرائها أو الشعراء الذين أخذوا عن علمائها ، و أقاموا في أحضانها فترة من الزمن))⁽²⁾ .

و ازدهرت الحياة الثقافية بغرناطة ؛ و هي إحدى مدن جنوب الأندلس ، حكمها خلال هذا القرن الموحدون ، ثم خضعت لبني الأحمر ، و أنجبت هذه المدينة شعراء و علماء كثيرين ، برعوا في مختلف العلوم و الفنون ، منهم : ابن سعيد المغربي^{**} ، و أبو الحسن الششتري^{***} ، و غيرهما كثير⁽³⁾ .

* - أبو زيد الفازازي : هو الفقيه الشاعر الكاتب البلاغي اللغوي الفيلسوف عبد الرحمان بن بخلفتن بن أحمد أبو زيد الفازازي ، ولد بقرطبة و نشأ فيها ، ثم انتقل إلى تلمسان حيث تلقى علومه على أيدي شيوخها ، و منهم : أبو عبد الله التجيبي ، و أبو الوليد اليزيد بن عبد الرحمان بن بقي القاضي ، و كان كاتباً لدى أمراء الأندلس و مراکش ، و مال للتصوف ، له شعر غزير في عدة أغراض ، توفي بمراكش سنة 637 هـ . للمزيد ينظر / المقرئ : نفح الطيب ، ج 4 ، ص 468 - 469 .

(1) - محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري) ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، مصر ، ط 1 ، 2008 م ، ص 149 .

(2) - المرجع نفسه : ص 165 .

** - ابن سعيد المغربي : هو علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسي الغرناطي ، الأديب الرحالة و المؤرخ ، وصفه المقرئ بواسطة عقد بني سعيد ولد سنة 610 هـ ، غادر الأندلس و استقر بتونس ، ثم رحل إلى المشرق و أقام بمصر بعض الوقت ثم حج و رجع إلى تونس سنة 652 هـ ، و خدم في البلاط الحفصي خلال حكم المستنصر ، و كانت وفاته بها سنة 685 هـ ، ترك الكثير من المؤلفات منها : المغرب في حلى المغرب ، و المشرق في حلى المشرق ، و المرقصات و المطربات . للمزيد ينظر / المقرئ : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 262 - 292 .

*** - أبو الحسن الششتري : هو ابن عبد الله النميري الفقيه الصوفي من أهل العلم و العمل ، جال الآفاق و حج عدة مرات كما أقام بدمشق ، ألف العديد من الكتب منها : المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية ، و العروة الوثقى ، و الرسالة القدسية ، كما له ديوان شعر ، توفي بمصر سنة 668 هـ . للمزيد ينظر / المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 185 - 187 .

(3) - بتصرف محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي ، ص 200 .

و تألفت مدينة مرسية بين المدن الأندلسية و ازدهرت بها الحياة الثقافية ،
و سطع في سمائها الكثير من العلماء و الأدباء ، و الفقهاء و اللغويين و من أمثال
هؤلاء : ((الشاعر الذائع الصيت ، أبو بكر محمد بن أحمد ابن الصابوني
الإشبيلي*))⁽¹⁾ .

كما ازدهرت الحياة الثقافية بمدينة بلنسية، و تألفت بين حواضر الأندلس ، و قد
تحدث عنها المقري التلمساني (1041هـ/1632م) طويلا و أفاض في وصفها إذ
قال : ((تعرف بمطيب الأندلس ، و رصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، و فيها
البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء و الرونق ، و يقال إنه لمواجهة الشمس لتلك
البحيرة يكثر ضوء بلنسية ... و لم تخل من علماء و لا شعراء... وأهلها أصلح
الناس مذهبا ، و أمتهم دينا ، و أحسنهم صحبة ، و أرفقهم بالغريب))⁽²⁾ .

لقد ألهمت الطبيعة الساحرة لبلنسية الكثير من الأدباء ، و حركت خيالهم
الخصب ، فجادت قرائحهم بروائع البيان و نفثات اللسان ، كأنه السحر و لكنه
السحر الحلال ، من الشعر و النثر ، تردد صداه في المغرب و المشرق ، يشهد
على عبقرية الأندلسيين و جودة قريحتهم عبر العصور .

و نبغ في هذه المدينة العديد من العلماء ، و حظيت بالكثير من الشعراء
و الكتاب و المؤرخين : ((فمن شعرائها في القرن السابع الهجري: ابن الأبار
المتوفى سنة (658هـ) ، و أبو الربيع سليمان الكلاعي المتوفى سنة (634هـ) ،
و الشاعر الرحالة ابن جبير الكناني ** المتوفى سنة (614هـ) ، و من شعراء

* - ابن الصابوني : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الصابوني الإشبيلي ، نال شهرة واسعة في عصره ، استقدمه
والي مرسية في إمارة ابن هود ، ثم ألحق بالمأمون الموحي ، ثم قصد أبا زكريا الحفصي و مدحه ، ثم رحل
إلى مصر ، اشتهر بالتعفف و البلاغة و الأدب و كان شاعرا مطبوعا ، و توفي بالإسكندرية قبل سنة
638 هـ . للمزيد ينظر/ محمد العريس : موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، دار اليوسف ، بيروت ، ط 1 ،
2005 م .

(1) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 280 .

(2) - المقري : نفح الطيب ، ج 4 ، ص 54 .

** - ابن جبير الكناني: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني ، ولد سنة 540 هـ ببلنسية اشتهر
بالأدب و قرص الشعر و الكتابة ، و هو صاحب الرحلة المشهورة ، زار المغرب و المشرق ، توفي
بالإسكندرية سنة 614 هـ . للمزيد ينظر/ المقري نفح الطيب ، ج 2 ، ص 381 - 494 .

جزيرة (شقر) ، من أعمال بلنسية... أبو المطرف بن عميرة المخزومي* المتوفى سنة (656هـ) ⁽¹⁾.

لقد كانت الأندلس أرضا خصبة، و مناخا مناسبا ازدهرت فيها الثقافة ، و تنوعت بها مختلف العلوم و المعارف: كالفقه ، و الحديث ، و الأدب ، و التاريخ، و التصوف ، و الفلسفة ، و العلوم المادية بمختلف شعبها ، برعاية و تشجيع من خلفاء و ولاية الدولة الموحدية ، حيث كان بعضهم من من كبار العلماء و الشعراء . و عاشت الأندلس زخما معرفيا و ثقافيا كبيرا ، إلى أن عضها الدهر بأنيابيه ، و سحقها بكلكله ، نتيجة الصراعات الدامية و الحروب الطاحنة بين المسلمين المتفرقين فيما بينهم ، و الممالك النصرانية المتحالفة ، حيث استولت على جل المدن الأندلسية في وقت قياسي: ((و قد أصابت حرب الاسترداد القومية في الصميم الحياة الفكرية و الثقافية بالأندلس ، و كان لسقوط قرطبة بالخصوص من النتائج ما حمل كثيرا من أسر العلم و الأدب على الهجرة)) ⁽²⁾.

لقد حدث ما يشبه النزيف الذي أصاب الحياة الأدبية و العلمية بالأندلس ، حيث نزع خيرة أبنائها و حاملو راية حضارتها نحو بلدان المغرب و المشرق الإسلاميين، و بأعداد غفيرة بحثا عن الأمان و الاستقرار المفقود في ربوع الأندلس السليبية ، و التي لطالما عرف أهلها رغد العيش و صفو الحياة ، و تسلقوا مدارج الحضارة ، و لكن سنة الله حاكمة في خلقه .

و من بين كبار العلماء و الأدباء النازحين عن الأندلس في تلك الفترة الحالكة من تاريخها المليء بالأمجاد و البطولات: الفقيه المتصوف ابن عربي الحاتمي** ،

* - أبو المطرف بن عميرة المخزومي : هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي ، ولد بجزيرة شقر من أعمال بلنسية سنة 582 هـ، له علم بالفقه و الأدب و الشعر ، و ولي القضاء ببعض مدن الأندلس و المغرب، استوطن بجاية مدة طويلة، و عمل كاتبا في البلاط الحفصي في خلافة المستنصر، توفي بتونس سنة 658 هـ. للمزيد ينظر/ الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، 1970م ، ص 250 - 253 .
(1) - محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي ، ص 46 .

(2) - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 46 .
** - ابن عربي: محي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الصوفي الفقيه=

و ابن مالك*، و ابن البيطار**، و ابن الرومية***، و غيرهم كثير: ((ومثل هؤلاء ممن اضطر إلى مهاجرة مسقط رأسه الأندلس بدون رجعة إليه كثير، و قد رأيناهم إثر مفارقتهم له مقيمين إما بالمغرب بمراكش أو بإفريقية، و إما بالمشرق بسوريا أو بمصر أو بالحجاز. و هذا بدون شك عامل من عوامل انقراض الحياة الفكرية الإسلامية هناك))⁽¹⁾.

كما كان ابن الأبار من بين العلماء و الأدباء النازحين عن بلادهم الأندلس، و قد اختار تونس — حاضرة الدولة الحفصية — مقرا لإقامته، كما أقام ببجاية أيضا. و بالرغم من فداحة الخسارة التي أصابت الحياة الثقافية و الفكرية جراء هجرة الأدمغة و الكفاءات الأندلسية موطنها، فقد ساهمت هذه الهجرة في إنعاش الحياة الثقافية ببلدان المغرب؛ فازدهرت و ظهرت ثمارها بكل و وضوح في الكثير من شعب الحياة، و كانت هذه الهجرة بمثابة الغيث الذي أينما وقع نفع.

= الظاهري، ولد بمرسية سنة 560 هـ، تعلم بإشبيلية ثم ارتحل إلى المشرق و أقام بالحجاز و هو من كبار الصوفية الناشرين لفكرة وحدة الوجود، من بين مؤلفاته: الفتوحات المكية، و ترجمان الأشواق الذي ألفه بمكة المكرمة أثناء إقامته في ضيافة أحد فقهاءها. توفي بدمشق سنة 638 هـ. للمزيد ينظر/ المقري نفح الطيب، ج 2، ص 161-169.

* - ابن مالك: هو جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الجباني، اشتهر بالنحو و علوم العربية ولد ببيان سنة 600 هـ، و نشأ و تعلم بها علي يدي ثلة من الشيوخ منهم ابن الطيلسان و أبي رزين بن ثابت و غيرهم، رحل إلى دمشق و أقام بها و سمع من علمائها، ثم تصدر للدرس و التف حوله طلبة اللغة و النحو و علوم العربية، من مؤلفاته المشهورة: الألفية النحوية التي استقاها من ألفية ابن معطي الزواوي الجزائري، و له أيضا كتاب التسهيل، توفي بدمشق سنة 672 هـ. للمزيد ينظر/ المصدر نفسه، ج 2، ص 222-233.

** - ابن البيطار: هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار المالقي، اشتهر بالطب وله معرفة و دراية بالنبات، سافر إلى بلاد الروم و الإغريق، كما زار بلاد المغرب، ثم رحل إلى مصر و أقام بها في بلاط الكامل بن العادل حاكم مصر و كان رئيسا لسائر العشابين، من مؤلفاته: الجامع في الأدوية المفردة، و الإبانة و الإعلام بما في المنهاج من الخل و الأوهام، و الأفعال العجيبة و الخواص الغريبة، و شرح كتاب ديسقوريدوس، توفي بدمشق سنة 646 هـ. للمزيد ينظر/ المصدر نفسه، ج 2، ص 691-692.

*** - ابن الرومية: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي خليل الإشبيلي ولد بإشبيلية سنة 561 هـ و نشأ و تعلم بها مختلف العلوم من الفقه و الحديث و نبغ في الطب و معرفة النبات، رحل إلى دمشق و سمع من علمائها علوم الحديث، و من مؤلفاته الحافل في تكملة الكامل، و المعلم بما زاده البخاري على كتاب مسلم، كما ألف كتابا في النبات رتبته على حروف المعجم، توفي بإشبيلية سنة 637 هـ. للمزيد ينظر/ المصدر نفسه، ج 2، ص 596-598.

(1) - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء و سراج الأدباء، (مقدمة التحقيق)، ص 46-47.

2- في المغرب:

رعى خلفاء الموحدين و حكام الإمارات المغربية المستقلة عنهم ، الحياة الثقافية بمختلف جوانبها : العلمية ، و الأدبية ، و الفكرية ، و رصدوا للأدباء و العلماء الجوائز و المكافآت ، و عملوا على تقريبهم من بلاطهم ، و لاغرو في ذلك فقد كان الحكام أنفسهم شعراء و متقنين، و انتشرت دور العلم و مراكز الثقافة ، و أقبل الناس يغتربون من معينها الذي لا ينضب ، و كان لهجرة الأندلسيين إلى المغرب أثارا طيبة على الحياة الثقافية ؛ فتنوعت مصادرها و ازدهرت بمختلف شعبها و مجالاتها.

و من المراكز الثقافية الهامة التي اشتهرت بالمغرب خلال القرن السابع الهجري : ((مدينة فاس ، حيث اجتمع فيها علم القيروان ، حاضرة إفريقية ، عندما عاثت فيها غزوات الأعراب ... و علم قرطبة عاصمة الأندلس ، حينما اضطرب الأمن بعد بني أمية ، رحل من كان فيها من العلماء و الفضلاء فرارا من الفتنة إلى فاس))⁽¹⁾.

كما انتشرت مختلف العلوم و المعارف كالنحو ، و اللغة ، و العروض ، و البلاغة ، و التاريخ ، و الفقه و التصوف ، و تدرجت هذه المعارف في مدارج التطور و التقدم ، و نبغ فيها الكثير من أبناء المغرب مثل : ابن معطي الزواوي* ، و ظهرت المدارس النحوية كمدرسة فاس ، و مدرسة تلمسان، و مدرسة سبتة⁽²⁾.

(1) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 274 .
* - ابن معطي : هو أبو الحسين زين الدين أبو زكريا يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي، من قبيلة أفراوسن بزواوة ، ولد بالجزائر سنة 564 هـ ، أخذ العلم عن مشايخ بلده ثم انتقل إلى الشام فسمع من علمائها، و اشتهر بالنحو و علوم اللغة، و نظم الألفية في النحو المشهورة (بالدرة الألفية في علم العربية) و التي أخذ عنها ابن مالك و أشاد بها ، وله مؤلفات عديدة مثل كتاب العقود و القوانين في النحو، كما عرف بنظم الكتب و المعجمات، توفي بالقاهرة سنة 628 هـ. للمزيد ينظر/ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، بيروت ، ط 2 ، 1980 م ، ص : 167- 168 . موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين ، دار الحضارة ، الجزائر، 2003 م ، ص 17 . و ابن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج 6 ، ص 197 .
(2) - بتصرف/ عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، ص 126 .

و قد عرف المشهد الثقافي زخما علميا و أدبيا متزايدا في القرن السابع الهجري ، و بالرغم من الاضطرابات السياسية الدامية خلال فترة حكم المأمون ؛ فإن ذلك لم يمنع النشاط العلمي من مواصلة سيره الحثيث قدما إلى الأمام ، و تطوره نحو آفاق أرحب ، فقد حرص الخلفاء الموحدون من بعده على العناية بالجانب الثقافي و الفكري للدولة .

لقد كان الرشيد الموحي شديد العناية بالنواحي الأدبية و العلمية حيث أولاهما فائق عنايته ، و كان يتردد باستمرار على مدينة فاس — عاصمة الثقافة و الفكر — و ينفق بسخاء على العلماء و الأدباء و المثقفين ، و يشرف بنفسه على سير مختلف مرافق العلم و دور الثقافة ، على الرغم من الوضع السياسي المتفجر هناك ⁽¹⁾ .

و عرف المشهد الثقافي في دولة بني حفص خلال القرن السابع الهجري ، ازدهارا كبيرا ، بفضل عناية الخلفاء الحفصيين و رعايتهم للأدباء و العلماء ، و تقريبهم و إغداق الأموال و الهدايا عليهم ، و إقامة المنشآت الثقافية في مختلف أنحاء المملكة ، كما ساهمت هجرة العلماء و الأدباء الأندلسيين في إنعاش الجانب الثقافي بالإمارة الحفصية ، فاستقر بها عدد كبير منهم ، و احتلوا مكان الصدارة في البلاط الحفصي ، و زاحموا أبناء البلد الأصليين في مختلف مجالات الحياة .

((و اشتهر الخلفاء الحفصيون عموما برعاية الأدباء ... و تأسيس المؤسسات العلمية و الدينية من جوامع و مدارس و مكتبات و زوايا ، نذكر منها خاصة مكتبة أبي زكرياء الأول ، و كانت كتبها لا تقل عن 36000 كتاب))⁽²⁾ .

و كان السلطان أبو زكريا أدبيا شاعرا محبا للأدب ، ((و كان معدودا من العلماء و في الشعراء النبلاء ، و له شعر مدون))⁽³⁾ .

(1) - بتصرف حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 57 .

(2) - أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، ص 10 .

(3) - ابن قنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 112 .

و سار المستنصر على نهج أبيه في الاعتناء بالثقافة و تقريب العلماء و الأدباء من بلاطه ، فازدهرت مختلف العلوم و الفنون ، و أصبحت تونس قبلة للمثقفين .
((و قد تألفت مجالسه الأدبية و الفنية بألمع شعراء عصره من الأندلس —————
و المغرب و إفريقية ، و سيروا شعرهم فيه مشرقا و مغربا ، و ضمت هذه المجالس بالإضافة إلى الشعراء صفوة من اللغويين و المؤرخين و الكتاب و العلماء في شتى الفنون) (1).

و بذلك أتيح لمختلف العلوم و المعارف أن تزدهر و تتقدم في ظل الخلفاء الحفصيين خلال القرن السابع الهجري ، و تعرف رواجاً و انتشاراً كبيرين .
((فالعلوم الإسلامية و العلوم الأدبية علاوة عن غيرها من الصنائع و الحرف وجدت ما ينميها ، إذ توفرت عليها ثقافتان: ثقافة أندلسية وافدة ، و ثقافة أصيلة من مدرستين: مدرسة المهدية و مدرسة القيروان ، و لقحت الثقافتان بثقافة شرقية جلبها إما بعض الأندلسيين الوافدين الذين زاروا المشرق قبل أن يتوطنوا إفريقية ، أو بعض الأفارقة الذين قصدوا المشرق لتتيم هذه الثقافة) (2).

لقد غادر جمع غفير من الأندلسيين ديارهم متجهين نحو بلاد المغرب و المشرق ، فرارا من الأهوال و المحن التي تعرضت لها الأندلس ، و الخراب الذي لحقها جراء سقوط مدنها و قلاعها بأيدي الغزاة الصليبيين ، الذين زحفوا على الأندلس خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري ، و كان في مقدمة النازحين: العلماء ، و الأدباء ، و المثقفين ، و أصحاب الحرف و الصناعات ، و قرروا الإقامة بالإمارة الحفصية ؛ فقد عمل الحكام الحفصيون على استقطاب خيرة أبناء الأندلس النازحين ، لغرض تنشيط الحياة بمختلف جوانبها بإمارتهم الفتية خلال هذا القرن ، و من الشخصيات الأندلسية البارزة نذكر: أبو بكر بن سيد الناس

(1) - أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، ص 18 .

(2) - ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 28 .

اليعمري*، أبو المطرف بن عميرة ، ابن عصفور** ، حازم القرطاجني*** ، علي بن سعيد المغربي ، و قد جلب هؤلاء الأندلسيون معهم ما تعلموه بالأندلس من علوم و فنون منها ذلك الإنشاء الراقي الذي كان محل إعجاب الأفارقة و عدوه من محاسن الأندلسيين و امتيازاتهم⁽¹⁾.

لقد التقت بالإمارة الحفصية عدة ثقافات وافدة من الأندلس و المشرق و امتزجتا بالثقافة المحلية ، الأمر الذي أدى إلى تنوع فكري خصب و ثراء ثقافي مثمر ، تحول على إثره المغرب الإسلامي إلى قوة جذب و مركز ثقل للحضارة العربية الإسلامية ، بعد أن تراجع المشرق عن دوره الريادي في العالم الإسلامي خلال القرن السابع الهجري ، جراء الصراعات الداخلية التي ما فتأت تتخر جسد الدولة هناك ، بالإضافة إلى الأخطار الخارجية المتزايدة التي باتت وشيكة الوقوع ، و قد وصلت إلى ذروتها فسقطت الخلافة الإسلامية ببغداد في بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، فكل هذه التدايعات ساهمت في تحويل بلاد المغرب إلى قبلة يمم شطرها العلماء و الأدباء و دووا المهارات و أصحاب الحرف .

* - ابن سيد الناس اليعمري : هو الفقيه المحدث اللغوي المؤرخ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الاشبيلي، أصله من أبدة من أعمال جيان، ولد سنة 561 هـ كان خطيباً بالمسجد الأعظم ببجاية ، ثم استقدمه المستنصر الحفصي إلى مجلسه و كانت له حضوة عنده، كما كان حسن الكتابة و النظم، توفي بتونس سنة 659 هـ. للمزيد ينظر/ الغبريني : عنوان الدراية ، ص 246 - 249 .

** - ابن عصفور : هو الشيخ الفقيه النحوي اللغوي المؤرخ أبو الحسن علي بن عبد المؤمن بن محمد بن علي الحضرمي عرف بابن عصفور من أهل اشبيلية، نشأ و تعلم بها على ثلة من الشيوخ منهم : أبي علي الشلوبين ، أقام ببجاية و كان أستاذاً للأمير أبي يحيى ، ثم انتقل إلى تونس ، و كان من جلساء المستنصر الحفصي المقربين ، من مؤلفاته: المقرب في اللغة و النحو، توفي بتونس سنة 670 هـ . للمزيد ينظر/ المصدر نفسه : ص 266 - 268 .

*** - حازم القرطاجني : هو الشيخ النحوي الشاعر الكاتب الناقد أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني صاحب كتاب منهاج البلغاء و له عدة مؤلفات أخرى ، ولد بقرطاجنة الخلفاء بالأندلس سنة 608 هـ و نشأ بها ، و أخذ العلم على الكثير من الشيوخ منهم ابن رشيد الفهري صاحب الرحلة غادر الأندلس و أقام بمراكش في خلافة الرشيد ثم انتقل إلى تونس و عين في ديوان الإنشاء بالبلاط الحفصي في خلافة المستنصر ، توفي بتونس سنة 684 هـ . للمزيد ينظر/ المقرئ فنج الطيب ، ج 2 ، ص 584 - 589 .

(1) - بتصرف ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 28 - 29 .

و من العلماء و المفكرين الأفارقة : ابن حماد الصنهاجي* ، و ابن ميمون** ، وغيرهما كثير⁽¹⁾.

كما شجع الولاة الحفصيون العلماء و المثقفين ، و قربوهم منهم في قسنطينة و عنابة و بجاية و مدينة الجزائر ، فاشتهر الكثير منهم مثل : أبي القاسم بن السطاح*** ، و غيره من العلماء و المثقفين⁽²⁾.

و نشطت الحياة الثقافية بمختلف جوانبها في إمارة بني زيان خلال القرن السابع الهجري ، بتشجيع ملوك هذه الإمارة للعلم و العلماء ، و إقامة المدارس و دور العلم في مختلف جهات مملكتهم ، و رصد الجوائز و المكافآت للعلماء و الطلاب ، و العمل على إيجاد الشروط الضرورية المناسبة لإقامتهم ، و بخاصة في تلمسان حاضرة الدولة الزيانية .

و قد تحولت تلمسان إلى منارة إشعاع ثقافي ليس في بلاد المغرب فحسب بل في كامل العالم الإسلامي مشرقه و مغربه ، فأماها الطلاب من كل حدب و صوب ، و راجت فيها سوق العلم و الأدب ، و نبغ في مملكة الزيانيين الكثير من الأدباء و الفقهاء و اللغويين ، و في مختلف شعب العلم و المعرفة مثل : ابن خميس

* - ابن حماد الصنهاجي : هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي من قلعة بني حماد، تعلم هناك ثم ببجاية أخذ العلم عن كثير من الشيوخ منهم: أبي مدين شعيب ، ولي قضاء الجزائر ثم قضاء سلا بالمغرب الأقصى ، و من مؤلفاته: الإعلام بفوائد الأحكام ، و شرح مقصورة ابن دريد ، توفي سنة 628 هـ. للمزيد ينظر/ الغبريني: عنوان الدراية، ص192 ، و عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص197 .

** - ابن ميمون : هو الشيخ الفقيه النحوي المؤرخ الشاعر أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون القلعي، نشأ بالجزائر و تعلم بها ، ثم انتقل إلى بجاية و سمع من الكثير من الشيوخ مثل: الفقيه ابن محرز ، و ابن عميرة ، برع في علوم العربية كما برع في علم التصريف متأثراً بابن جني ، له الكثير من المؤلفات منها: الموضح في علم النحو، و نشر الخفي في مشكلات أبي علي و غيرها ، توفي ببجاية سنة 673 هـ. للمزيد ينظر/ المرجع نفسه: ص 267- 268 . الغبريني: عنوان الدراية ، ص 94- 99 .

(1) - بتصرف ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 29 .

*** - ابن السطاح : هو الشيخ الفقيه النحوي اللغوي أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر بن السطاح ، نشأ بالجزائر ثم رحل إلى اشبيلية و بها تعلم ، و من شيوخه: ابن زرقون، ثم انتقل إلى مدينة مرسية و أخذ عن أبي القاسم الطرسوني ، و اشتغل بالتدريس و التوثيق ، ثم رجع إلى وطنه سنة 623 هـ ، و سكن بجاية إلى أن توفي بها سنة 629 هـ . للمزيد ينظر/ الغبريني : عنوان الدراية ، ص 225 . عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص177 .

(2) - بتصرف محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ص 90- 93 .

التلمساني* ، و غيره من الأعلام ممن ذكرهم الحفناوي في كتابه تعريف الخلف
برجال السلف⁽¹⁾ .

و بالإضافة إلى ما قام به حكام بني زيان من تشجيع و تنشيط للحياة الثقافية
بمملكتهم ، فإن لهجرة الأندلسيين إلى الإمارة الزيانية و استقرارهم بها الأثر العميق
في ازدهار مختلف العلوم و الفنون بها .

((كان من نتائج نزوح الأندلسيين إلى تلمسان : ازدهار الحركة الفكرية بها حيث
قام مجموعة من أفراد هذه الجالية بنشر التعليم بواسطة إلقاءهم الدروس بالمؤسسات
التعليمية في تلمسان و المدن التابعة لها))⁽²⁾ .

و عرفت الحياة الثقافية بمملكة المرينيين خلال القرن السابع الهجري تقدما
ملحوظا ، بعد فتور أصابها بسبب الصراع السياسي بين الموحدين و المرينيين ،
غير أن الحكام المرينيين الذين آل إليهم حكم المغرب الأقصى عملوا جاهدين على
تنشيط الحركة الثقافية و بعثها من جديد .

((لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها إلى الأمام ، في ظل الدولة المرينية التي
ما فتئت ترعاها و تشجعها ، بمد يد الإعانة إلى رجالها و تنشيطهم حتى ينصرفوا
لخدمتها ، بل إن رجال الدولة أنفسهم كانوا يقدمون لها أجل الخدمات... فقد كان
السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب المنصور من أهل العلم))⁽³⁾ .

* - ابن خميس التلمساني : هو الفقيه الشاعر النحوي البلاغي الفيلسوف المتصوف الطبيب أبو عبد الله محمد بن
عمر الحميري الحجري الرعيني المعروف بابن خميس التلمساني ، ولد بتلمسان سنة 650 هـ ، و نشأ و تعلم
بها ، و انعزل عن الناس مدة إلى أن التقى بالرحالة المغربي العبدري ، ثم عمل في ديوان الإنشاء أيام السلطان
أبي سعيد الأول ، و غادر تلمسان و نزل بسبته ثم رحل إلى غرناطة ، واشتغل بالتدريس ، و نظم الشعر ، و قد
أثنى عليه العبدري ، وصفه يحيى بن خلدون بأنه شاعر المائة السابعة ، ترك ديوان شعر جمعه بعد وفاته محمد
بن إبراهيم الحضرمي ، بعنوان : الدر النفيس من شعر ابن خميس ، قتل بغرناطة في هجوم على قصر الوزير
ابن الحكيم سنة 708 هـ . للمزيد ينظر / عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ——— ، ص 135 - 136 .
و موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين ، ص 12 - 13 . أبو القاسم محمد الحفناوي : تعريف الخلف برجال
السلف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 2 ، 1405 هـ / 1985 م ، ص 375 - 390 .

(1) - للمزيد ينظر / المرجع نفسه : ص 180 و ما بعدها .
(2) - مختار حساني : موسوعة تاريخ و ثقافة المدن الجزائرية ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2007 م ، ج 4 ،
ص 48 .
(3) - عبد الله كنون : النبوغ المغربي ، ص 188 .

لقد وجدت الحياة الثقافية في أشخاص الحكام المرينيين ، من يرعاها و يشرف عليها و يقرب روادها ، و قد أتت هذه العناية و الرعاية أكلها ، فبرز الكثير من العلماء و الأدباء في مختلف شعب العلم و المعرفة ، و أضحت فاس قبلة مفضلة لطلبة العلم و الأدب ، و ذكر محمد عبد الله كنون جمع غفير من أعلام الثقافة بمختلف مجالاتها بإمارة بني مرين ، من أمثال الرحالة أبي عبد الله بن رشيد الفهري* و غيره كثير⁽¹⁾ .

لقد ازدهرت الحياة الثقافية خلال القرن السابع الهجري ، في كل من الأندلس و المغرب و حرص الخلفاء الموحدون في بداية القرن على رعاية العلماء و المثقفين في كل مجالات العلم و المعرفة ، و لا عجب في ذلك فقد كان جل خلفاء دولة الموحدين من العلماء و الأدباء ، و قد استمدوا نشاطهم الثقافي من توجيهات و تعاليم مؤسس دولتهم محمد بن تومرت ، و برغم الخلافات و الفتن داخل الأسرة الموحدية ، نتيجة الطموح السياسي لبعض القادة و الولاة ، و الصراعات الدامية مع الممالك النصرانية ، و التي أدت إلى هجرة أبناء الأندلس و مثقفها ؛ فقد واصلت الحياة الثقافية سيرها قدما إلى الأمام متوثبة تارة و متأنية تارة أخرى .

كما عمل حكام الإمارات المستقلة عنهم في الأندلس و بلاد المغرب على ترقية الحياة الفكرية ، و بدلوا جهودا كبيرة في بناء المنشآت الثقافية ، و في جلب العلماء و تقريبهم منهم ، و لم تخبو جذوة العلم و نهم المعرفة في أبناء الأندلس و المغرب حتى في أحلك الأيام و أصعب الأوقات ، و نبغ الكثير من العلماء و المثقفين في مجالات العلم و المعرفة ، و من أمثال : ابن الأبار القضاعي البلنسي الأندلسي .

* - ابن رشيد : هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي ، الرحالة الشهير ، و من علماء القرن السابع الهجري ، ولد بسبته سنة 657 هـ ، و بها نشأ و تعلم ، برع في الحديث و النحو و علوم العربية و الأدب و التاريخ ، كثير الترحال جال المغرب و المشرق ، ألف رحلته المسماة : (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهة إلى الحرمين مكة و طيبة) ، و له مؤلفات أخرى ، توفي بفاس سنة 721 هـ . للمزيد ينظر / الصفدي : الوافي بالوفيات ، دار النشر فرانز شتاينر ، شتوتغارت ، ألمانيا ، ط 2 ، 1991م ، ج 20 ، ص 147 .

(1) - بتصرف عبد الله كنون : النبوغ المغربي ، ص 206 - 207 .

د - الصورة الدينية:

1 - في الأندلس:

عرفت الحياة الدينية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري نشاطاً متزايداً ، على غرار ما عرفته بقية العلوم و المعارف العقلية منها و النقلية ، و بالرغم من الفتن و الصراعات المتعددة الأطراف بين المسلمين أنفسهم ، و كذلك حروب الاسترداد الصليبية ، و ما خلفته من خراب و دمار على كل المستويات ، بالإضافة إلى هجرة الكثير من العلماء و الفقهاء للأندلس ، فإن ذلك لم يحل دون مواصلة الحركة الدينية طريقها نحو التقدم و الازدهار في جل مناحيها و جوانبها المتعددة : كالفقه ، و التفسير ، و القراءات ، و علم الحديث ، و علم الكلام ، و التصوف ...

لقد بقي أهل الأندلس متمسكين بالمالكية* في الفقه و بالأشعرية** في العقيدة لقرون عديدة ، حيث يذكر أحمد أمين نقلاً عن المقدسي قوله : ((و أهل الأندلس على مذهب مالك ، وقراءة نافع . و هم يقولون: لا نعرف إلا كتاب الله ، و موطأ مالك...))⁽¹⁾.

* - المالكية : مذهب في الفقه الإسلامي، وهو من المذاهب السنية الأربعة المشهورة يقوم على إتباع الأثر - الكتاب و السنة - عكس بعض المذاهب الأخرى التي تأخذ بالرأي، ظهر بالمدينة على يدي إمام دار الهجرة و سيد فقهاء الحجاز أبو عبد الله مالك بن أنس ، و هو يمني الأصل، ولد بالمدينة سنة 93هـ و بها تعلم ، توفي بها سنة 179 هـ ، و ترك بعض المؤلفات منها: كتاب الموطأ ، و المدونة الكبرى... و قد انتشر مذهبه بالمغرب أكثر من انتشاره بالمشرق، و لا يزال إلى يومنا هذا. و قد حارب الإمام مالك أهل البدعة و دعاة الضلالة و كان يتمثل بقول الشاعر :

و خير الأمور ما كان سنة و شر الأمور المحدثات البدائع

للمزيد ينظر/ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي، مصر، 1976م، ج 2) في تاريخ المذاهب الفقهية) ، ص 176 - 224 .

** - الأشعرية : مذهب في الاعتقاد ومسلك في إثبات العقائد الإسلامية بالنقل و العقل معاً، كما أخذ بظاهر النص أخذاً مطلقاً مع ميله إلى الوسطية و الاعتدال، و ظهر هذا المذهب على يدي أبي الحسن الأشعري، و قد ولد بالبصرة سنة 260هـ ، و تخرج على المعتزلة في علم الكلام و تتلمذ لشيخهم في عصره أبي علي الجبائي، ثم وجد ميلاً إلى آراء الفقهاء و المحدثين فتخلى على فكر المعتزلة و سفه آراءهم، و صار يأخذ بمذهب الإمام أحمد بن حنبل حيث قدمه على سائر الفقهاء، توفي سنة 330هـ ، ألف الكثير من الكتب منها: كتاب الإبانة، و كتاب مقالات الإسلاميين ... للمزيد ينظر/ المرجع نفسه : ج 1 (في السياسة و العقائد) ، ص 180 - 194 .

(1) - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج 3 ، ص 13 .

و يمكن عد هذا القول دليلا على مدى تمسك أهل الأندلس بفقهِ إمام دار الهجرة و حرصهم الشديد على الوحدة المذهبية ، إلا أن ذلك لم يحل دون وجود من يأخذ ببعض المذاهب الفقهية الأخرى : كالمذهب الظاهري* ، و آراء المعتزلة و الفرق الكلامية القائلين بتأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم .

لقد عمل البلاط الموحدى على توجيه الحياة الدينية في الأندلس و جهة جديدة تقوم على الاجتهاد و نبد التقليد و الإلتباع المذهبي الذي شكل جوهر الحياة الدينية من قبل: ((فلما أتى الموحدون الأندلس أعادوا القول بالاجتهاد ، و رأوا أن المختصرات الفقهية جنت على الفقه ، فأرادوا إحياءه بالرجوع إلى الكتاب و السنة ، و استتباط الأحكام منهما ، و عدم العمل بأي مذهب من المذاهب المعروفة...))⁽¹⁾.

و كان من نتائج هذا التوجه الجديد في المجال الديني ، أن ظهرت الكثير من المدونات و الدراسات القرآنية و الحديثية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و نبغ العديد من المفسرين و المحدثين و الفقهاء ...

((و قد عنى الموحدون بالحديث الشريف عناية فائقة فكان إمامهم المهدي ابن تومرت محدثا حافظا غير أنه استند في مهدويته إلى طائفة من الأحاديث المنتحلة التي نسجها خيال غلاة الشيعة ليبرروا مبادئ الإمامة و المهدوية... أما الأحاديث التي نقطع بصحتها فيما جمعه ابن تومرت ، فهي تلك التي أخذها من موطأ الإمام مالك — رضي الله عنه — و جردها من الأسانيد و جعلها فقها سار عليه الموحدون))⁽²⁾.

* - الظاهرية : نسبة إلى الفقيه ابن حزم الظاهري الأندلسي الذي كان يأخذ بظاهر النص و يرفض تأويل آيات الصفات و المتشابه من القرآن الكريم خلافا لما كان عليه المعتزلة و الأشاعرة و بقية الفرق الكلامية .

(1) - المرجع السابق : ج 3 ، ص 65 - 66 .

(2) - عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب (في عهد عبد المؤمن بن علي) ، منشورات الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر ، 2007 م ، ص 300 .

و قد اشتهر الكثير من المحدثين الأندلسيين خلال القرن السابع الهجري ،
و عرفوا بالرواية و الحفظ و غزارة التأليف في هذا الباب من العلوم الدينية ، نذكر
منهم : المحدث الشهير أبو الربيع سليمان الكلاعي البلنسي — شيخ ابن الأبار — الذي
استشهد في موقعة أنيشة قرب بلنسية .

2- في المغرب :

و شهدت الحياة الدينية في بلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري ، نشاطا متزايدا على غرار ما عرفتة الحياة الدينية بالأندلس في الفترة نفسها ، فقد عمل الموحدون في بداية قيام دولتهم على نبد فقه الفروع بالعودة إلى الكتاب و السنة و أخذ الأحكام مباشرة منهما ، و قد بلغ هذا التوجه الجديد أوجه خلال حكم يعقوب المنصور — ثالث خلفاء الموحدين — الذي تجند لتطبيق خطة مؤسس دولتهم محمد ابن تومرت في محاربة علم الفروع ، حيث ينقل عبد الله كنون عن المراكشي قوله: ((و في أيامه انقطع علم الفروع و خافه الفقهاء و أمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه و سلم و القرآن ... فحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون و كتاب ابن يونس و نوار ابن أبي زيـد و مختصره و كتاب التهذيب للبراذعي و واضحة ابن حبيب و ما جانس هذه الكتب و نحا نحوها ... و أمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة ؛ الصحيحين و الترمذي و الموطأ و سنن أبي داود و سنن النسائي و سنن البزار و مسند ابن أبي شيبة و سنن الدار قطني و سنن البيهقي ؛ في الصلاة و ما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ... و كان قصده في الجملة محو مذهب مالك و إزالته مرة واحدة و حمل الناس على الظاهر من القرآن و الحديث))⁽¹⁾ .

إن ما قام به بعض حكام الدولة الموحدية من تضيق على المذاهب الفقهية و الحد من انتشارها ، و حث الناس على الأخذ بظاهر النص — القرآن الكريم و السنة النبوية — لا يعني تبنيهم للمذهب الظاهري ، و لم يمنع ذلك من مواصلة المذهب المالكي انتشاره في بلاد المغرب و التفاف الناس حوله ، ((و الحجة

(1) - عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ص 119

الكبيرة في أن القوم لم يكونوا على مذهب أهل الظاهر ، هي مجموعة كتب المهدي بن تومرت هذه التي نشرها المستشرق المجري جولدزهير و تشمل على كتاب أعز ما يطلب و العقيدة المرشدة وكتاب الطهارة الذي يقال إن المنصور جمع كتابا في الصلاة على منواله ، إلى غير ذلك من تعاليق المهدي و كلها ليس فيه ذكر للظاهرية و لا لعلم من أعلامها ، بل إن في تعاليقه الأصولية ما يعارضها و هو إثبات القياس و مدحه مما لا يجنح إليه أهل الظاهر كما هو معلوم))⁽¹⁾ .

غير أن الخلفاء المتأخرون في الدولة الموحدية ، قد تخلوا عن هذا المنهج الذي أقره المهدي بن تومرت و تبعه فيه الخلفاء الأوائل ، فقد نما علم الفروع من جديد و أقبل الناس على الفقه المالكي ، و ظهرت الكثير من الدراسات الفقهية ، وبلغ هذا الأمر ذروته بسقوط دولة الموحدين و قيام الدولة المرينية ، فقد عرفت العلوم الشرعية و علم الفروع خلال فترة حكم بني مرين ازدهارا و انتشارا كبيرين ، ((أما العلوم الشرعية ، و هي الفقه و الحديث و التفسير و توابعها فقد نُحِيَ فيها منحى التبسيط و التفريع ... و بلغ التوسع في ذلك منتهاه . يدلنا على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العصر ، و التأليف العظيمة التي وُضِعَتْ في فروع الفقه ...))⁽²⁾ .

(1) - المرجع السابق : ص 125

(2) - المرجع نفسه : ص 189

الفصل الأول

ابن الأبار القضاعي حياته و آثاره

أ - حياة ابن الأبار القضاعي

- 1 - نسبه
- 2 - مولده
- 3 - نشأته و تعليمه
- 4 - شيوخه
- 5 - رحلاته
- 6 - أخلاقه
- 7 - مكانته بين أهل عصره
- 8 - وفاته

ب - آثاره الأدبية و العلمية

- 1 - تلامذته
- 2 - مؤلفاته
- 3 - ديوانه
- 4 - مدائحه في البلاط الحفصي

تكتسي دراسة حياة ابن الأبار القضاعي أهمية قصوى ، و تعد حلقة هامة لا مناص من الوقوف عندها ، بالتعرف على أهم مراحل حياته ، و الوقوف عند محطاتها الكبرى بدء بنسبه ، مروراً بمولده ، نشأته و تعليمه ، رحلاته ، أخلاقه ، مكانته بين أهل عصره ، وفاته ، و صولاً إلى آثاره العلمية ، من أجل الاقتراب أكثر من الشاعر و التعرف إلى الظروف و الملابسات الحياتية لديه ، و التي كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته و صقل تجاربه و إثراء خياله ؛ فراح يحلق في الأعالي و ثاباً إلى المعالي وقد ألهمت قضايا أمته نفسه .

إن دراسة هذه الجوانب التي أحاطت بالشاعر ، كفيلة بالإجابة عن بعض التساؤلات العالقة ، و جديرة بالكشف عن أهم عوامل نبوغه ، و أسرار شاعريته الفذة التي ألبسته تاج الخلود فملاً الدنيا و شغل الناس .

أ - حياة ابن الأبار القضاعي :

1 - نسبه :

((هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمان بن أحمد بن أبي بكر القضاعي* البنسي ، اشتهر بلقب ابن الأبار))⁽¹⁾ .

و يتحدث الصفدي (ت 764هـ/1363م) عن نسب ابن الأبار بشيء من التفصيل مع اختلاف طفيف قائلا : ((ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن

* - القضاعي: نسبة إلى قبيلة قضاة العربية اليمنية ، و يقال لبني قضاة و هم قبيلة من حمير من القحطانية ، و هذا هو المشهور في قضاة ، و عليه جرى ابن الكابي و ابن إسحاق و غيرهما من النسابين . قال في العبر و قد يحتج له بما رواه ابن الهيثم عن عقبة بن عامر الجهني (رضي الله عنه) ، قال قلت يا رسول الله : ممن يمن قال من قضاة بن مالك ، و في ذلك يقول عمرو بن مرة القضاعي :
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر بن قضاة بن مالك الحميري .

فالقضاة منسوب إلى قضاة واسمه عمرو بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ و إليه تنسب الكثير من قبائل اليمن مثل كلب و جهينة... و ذهب بعض النسابين إلى أن قضاة من العدنانية ، و يقولون هذا هو قضاة بن معد بن عدنان ، قال ابن عبد البر و عليه الأكثر ، قلت و الأشهر هو الأول و الله أعلم . للمزيد ينظر / محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ص 19 .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

عبد الله بن عبد الرحمان بن أحمد بن أبي بكر الحافظ العلامة أبو عبد الله القضاعي
البلنسي الكاتب الأديب المعروف بابن الأبار و الأبار))⁽¹⁾ .

و قد أجمعت جل المصادر* التي ترجمت لابن الأبار على هذا النسب ، مع
بعض الفوارق في إيراد الترجمة طولا و قصرا .

و يظهر جليا من هذه التراجم : أن اسمه محمد ، و كنيته أبو عبد الله ، و لقبه
ابن الأبار ، أو الأبار .

و ذكر بعض الدارسين الذين تعرضوا لحياته : أن هذا اللقب أطلقه عليه
خصومه لسوء هيأته و لباسه ، و بذاعة لسانه و حدته ، ومن هؤلاء نجد إبراهيم
الأبياري محقق كتاب المقتضب من تحفة القادم لابن الأبار ، حيث ذكر في مقدمة
التحقيق: أن هذا اللقب أطلق على أبي عبد الله لصفات كان يتصف بها منها : أنه
خبث اللسان إذا هجا ، و أنه أشبه شيء بالفأر في إيذاء خصومه و الكيد لهم في
الخفاء ، بالإضافة إلى دمامة منظره و رثاءة هيئته⁽²⁾ .

غير أن هناك من نفى هذه المزاعم ، و أكد أن هذا اللقب أصيل كان أجداده
يحملونه و يعرفون به ؛ فقد ذكر محقق ديوان ابن الأبار قائلا: ((و هو لقب أصيل
كان أجداده يحملونه و يعرفون به ، و كان هو يوقع بعض رسائله به ، و من الخطأ

(1) - الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج 3 ، ص 355 .

* - من المصادر التي ترجمت لابن الأبار نذكر : الغبريني: عنوان الدراية ، ص 309 - 313 . الصفدي :
الوافي بالوفيات ، ج 3 ص 355 - 356 . أبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفذ
القسنطيني : الوفيات ، تحقيق: عادل نويهض ، المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1 ،
1971م ، ص 324 - 325 . محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ،
بيروت ، 1974م ، ج 3 ، ص 404 - 405 . ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 652 - 655 .
المقري : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 589 - 594 . محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحيدين ،
ج 2 ، ص 705 . جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال ، مصر ، 1913م ، ج 3 ،
ص 77 - 78 . أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج 3 ، ص 279 - 280 . و غير ذلك من المصادر و المراجع .
(2) - بتصرف/ ابن الأبار: المقتضب من تحفة القادم ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية / دار
الكتاب المصري / دار الكتاب اللبناني ، ط 2 ، 1982 م ، (مقدمة التحقيق) ، ص 16 .

القول بأن اللقب جديد أطلق أول ما أطلق عليه ، كما أنه لم يكن — كما قيل — سبة له لبذاءة لسانه و رثاءة هيأته ((⁽¹⁾).

و لم يكن ابن الأبار القضاعي أول من حمل هذا اللقب من أعلام الأندلس وعلمائها ؛ بل سبقه إليه غيره من الشعراء و الكتاب منهم : ابن الأبار الخولاني* .
و ينحدر ابن الأبار من قبيلة عربية (قبيلة قضاة اليمانية) ، التي استوطن جل أفرادها المهاجرين شرق الأندلس ، و يذكر الغبريني (ت 714هـ / 1315م) قائلاً : ((هو من أهل بلنسية و أصله من أجردة** و هي وما والاها دار القضاعيين بالأندلس))⁽²⁾.

و يشير ابن الأبار نفسه في بعض قصائده صراحة إلى نسبه اليماني إذ يقول :
لَهَا اللَّهُ لَمْ ضَنْتَ عَلَيَّ بَوَصْلَهَا وَلَمْ حَرَمْتَنِي الْقُرْبَ دُونَ دَرَى الْقُرْبِ
وَمَا ضَرَّهَا أَنِّي يَمَانٍ وَأَنَّهَا لِقَيْسٍ ، أَلَسْنَا فِي تَعَارُفِنَا عُرْبًا؟⁽³⁾
فقد ذكر الشاعر تصريحاً لا تلميحاً ، أنه ينحدر من قبيلة عربية يمنية ، كما يشي البيت الأخير بالكثير من المعاني و الدلالات ، التي تعبر بوضوح عن مدى اعتزاز ابن الأبار بنسبه العربي الصريح - على عادة العرب جميعاً - و تمسكه به ، و افتخاره الكبير بأصله اليماني .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .
* - ابن الأبار الخولاني : أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني الأندلسي الأشبيلي المعروف بابن الأبار الشاعر المشهور - كان من شعراء المعتضد بن عباد بن محمد اللخمي صاحب اشبيلية - المجيد في فنونه ، و كان عالماً فجمع و صنف ، و له في صناعة النظم فضل لا يرد ، و إحسان لا يعد ، و له ديوان شعر ذكره ابن بسام في الذخيرة . توفي سنة 433 هـ . للمزيد ينظر / أبو العباس شمس الدين بن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج 1 ، ص 141 - 142 .
** - أجردة : هي البلدة التي سكنها القضاعيون بالأندلس كما يسميها الغبريني ، غير أن جل المصادر التاريخية ، تدعوها أندة ؛ فقد يتعلق الأمر بخطأ وقع فيه صاحب عنوان الدراية ، أو أن لها أكثر من اسم .
(2) - أحمد الغبريني : عنوان الدراية ، ص 309 .
(3) - ابن الأبار : الديوان ، ص 66 .

2- مولده:

((ولد ابن الأبار في مدينة بلنسية (Valencia) التي أنجبت كثيرا من العلماء و الشعراء و الشخصيات، وذلك في فجر يوم جمعة في أحد شهري ربيع سنة 595هـ / دجمبر أو يناير سنة 1198م))⁽¹⁾ .

وقد أكدت جل المصادر و المراجع التي ترجمت لابن الأبار هذا التاريخ ، غير أن هناك من أورد تاريخا آخر لمولده ، فقد ذكر الغبريني في عنوان الدراية تاريخا آخر لمولد الشاعر مخالفا لما أجمعت عليه معظم المصادر هو (575هـ)⁽²⁾ .

و قد يرجع هذا الخلاف حول سنة مولد ابن الأبار بين الغبريني و بقية أصحاب كتب تراجم الأعلام ، إلى التصحيف و التحريف الذي لا يستبعد وقوعه في بعض النسخ المخطوطة لكتاب عنوان الدراية ، إذ يستبعد أن يصدر هذا الخطأ من الغبريني نفسه المشهود له بالحصافة و الدقة و الأمانة و الضبط ، بالإضافة إلى قرب عصره من العصر الذي عاش فيه ابن الأبار.

و إذا كان الخلاف قد حصل بين المصادر التي ترجمت لابن الأبار حول تاريخ مولده ؛ فإن ذلك لم يحصل حول مكان ولادته ، فقد أجمعت كل المصادر التي في أيدينا ، أن مولده كان في بلنسية إحدى مدن شرق الأندلس و قواعدها الكبرى ، وقد وصفها المقري التلمساني بقوله : ((تعرف بمطيب الأندلس ، و رصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، و فيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء و الرونق ، و يقال إنه لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بلنسية إذ هي موصوفة بذلك ... و لم تخلو من علماء و لا شعراء ، و لا فرسان يكابدون مضايق الأعداء ... و أهلها أصلح الناس مذهبا ، و أمتهم دينا ، و أحسنهم صحبة ، و أرفقهم بالغريب))⁽³⁾ .

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

(2)- بتصرف / الغبريني : عنوان الدراية ، ص 309 .

(3)- المقري : نفح الطيب ، ج 3 ، ص 589 .

و مهما يكن من أمر الخلاف الحاصل حول تاريخ ميلاد ابن الأبار ، فإنه من الراجح أن مولده كان في نهاية القرن السادس الهجري ، الذي شهد أحداثا كبرى في الأندلس ، و صراعات عنيفة بين المسلمين و الصليبيين الذين بدأ خطرهم يزداد يوما بعد يوم ، و شرعوا في حشد قواتهم و توحيد كلمتهم تحت راية الصليب ، استعدادا للانقضاض على المسلمين في الأندلس الذين بدأت أحوالهم في التدهور، بسبب الخلافات السياسية الحادة بين العصب المتنافسة على السلطة هنا و هناك .

3- نشأته و تعليمه :

بمدينة بلنسية المشهورة بجمال طبيعتها و اعتدال مناخها ، و في عائلة معروفة بالعلم و الثراء ، نشأ ابن الأبار تنشئة صالحة محاطا برعاية عائلته التي وفرت لابنها ظروفًا تساعد على النبوغ و التفوق ، فشب الشاعر شغوفًا بالمعرفة ، حريصًا على طلب العلم ؛ فقد كان والده من أعيان بلنسية و علمائها ، حيث يذكر محقق الديوان متحدًا عن الأجواء التي أحاطت الشاعر منذ ولادته : ((نشأ ابن الأبار في بيئة تمتاز بجمال الطبيعة و بين أهل عرفوا بحسن الطباع و كرم النفوس و أناقة الأزياء ، و في جو علمي مثقف متفقه . كان والده من علماء بلنسية ، له علاقات و صلات علمية بعدد من علماء الأندلس عموماً و شرقياً خصوصاً . اشتهر بملازمته لشيخ الأندلس أبي الربيع سليمان الكلاعي إذ كان من أخص بطانته و أدنى صنائعه إليه))⁽¹⁾ .

لقد جند والد ابن الأبار كل ما في وسعه من الوقت و الجهد ، و استغل جل معارفه و علاقاته من أجل تنشئة و تعليم ابنه و توجيهه الوجهة الصحيحة ، فقد كان يطمح أن ينال ابنه مكانة مرموقة بين أقرانه و معاصريه ؛ و أن يتبوأ أعلى الدرجات العلمية ، فيحقق الوالد من خلال الولد كل رغباته التي عجز هو عن تحقيقها في بيئة كانت تقدر العلم و تجل العلماء وتعترف لهم بالفضل و ترعى لهم المكانة.

و يظهر أن ابن الأبار كان الولد الوحيد في أسرته ، فلم تحدثنا المصادر التي ترجمت له — على كثرتها — أن له إخوة ، الأمر الذي جعله يحظى بكامل الرعاية من أسرته و والده على الخصوص .

فقد ((اهتم الوالد بتوجيه ولده محمد الذي كان — فيما يبدو — ولده الوحيد ، وحرص على أن يوفر له كل الظروف و الفرص لطالب العلم ، و من ذلك أنه كان

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

يصحبه معه إلى مجالس العلم و زيارة العلماء و يستجيز له الأعلام و هو بعد لم يتجاوز مرحلة الطفولة و الصبا))⁽¹⁾ .

و ليس غريبا على والد ابن الأبار أن يكون حريصا أشد الحرص على توفير الأجواء الملائمة لابنه من أجل طلب العلم و تحصيل المعارف ، فقد كان هو نفسه من المثقفين الملازمين للعلماء و المترددين على حلقات الدرس .

((عرف ابن الأبار بالجد و المثابرة و البحث و الاستقصاء ، و لم يقتصر في الأخذ عن شيوخ بلنسية و شرقي الأندلس بل نراه يقوم برحلة علمية عبر بعض المدن الأندلسية للدراسة و الأخذ و ذلك أثناء حياة والده))⁽²⁾ .

و هكذا فقد ورث ابن الأبار عن أبيه روح الجد و التفاني في تحصيل العلم و المعرفة و تحقيق الأهداف بصبر لا يفتر و عزيمة لا تلين ، يدفعه في ذلك شغف العلم و نهم المعرفة ، و لم يتوان في سبيل ذلك على المغامرة و ركوب المخاطر ، فقد تجشم عناء السفر و الارتحال عبر كامل ربوع الأندلس للدراسة و الأخذ عن كبار علمائها .

لقد كان ابن الأبار شعلة من الذكاء و النباهة ، الأمر الذي مكنه من تحصيل العلوم و المعارف المتاحة في عصره في شتى المجالات ، فقد فاق الكثير من معاصريه في الأندلس و خارجها ، و طبقت شهرته الآفاق ، و عمل حكام الممالك و الأمصار على تقريره منهم و ضمه إلى بطانتهم و مستشاريهم .

((و يظهر من خلال ما قاله — ابن الأبار — عن نفسه أنه على قدر كبير من الذكاء و الفطنة ، فقد بدت عليه سمات النباهة منذ طفولته الأولى على غير عادة الأطفال ، إذ من العادة أن يظهر الاستعداد للتحصيل العلمي في العام الخامس

(1) - المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، الصفحة نفسها .

أو السادس ، لكن ما حدث مع الشاعر أنه ما إن بلغ عامين حتى أجاز له القاضي أبو بكر بن أبي جمرة جميع روايته ((⁽¹⁾).

و إذا كان موضوع ذكاء ابن الأبار أمرا مقبولا بل راجحا ؛ للجو العلمي الممتاز الذي أحيط به منذ ولادته ، فإن مسألة حصوله على إجازة من أحد العلماء و هو لم يتجاوز العامين من عمره مسألة لا يمكن تقبلها بسهولة ، و يزداد الأمر صعوبة إذا صدرت هذه الإجازة من طرف عالم يعرف قيمة العلم و جدارة من يحمله ؛ لأن ذلك يخالف العادة و يناقض المنطق السليم ، إلا إذا كان حصول هذا الأمر يرتبط بعلاقات والده و صلاته بعلماء الأندلس ، فتمكن من الحصول لابنه على هذه الإجازة استثناء ، و هذا يعني أن إجازة ابن الأبار المبكرة لا يمكن أن تقوم دليلا على ذكائه و فطنته بأي وجه من الوجوه ، ذلك أن الحصول على إجازة العلماء ليس بالأمر اليسير حصوله ، حتى للذين قطعوا أشواطا معتبرة في طلب العلم .

غير أن حقيقة الموضوع هي أن هذه الإجازة المبكرة ، كانت موجهة في الأصل لوالد ابن الأبار و أضيف اسم الابن فيها إلى أبيه تكريما ، فقد ذكر ابن الأبار أن أبا بكر بن أبا جمرة كتب لوالد ابن الأبار يجيز له جميع روايته و ألحق في الإجازة الولد بالوالد⁽²⁾ .

((كانت حياة ابن الأبار العلمية حافلة و جلييلة و لذلك لا يأخذنا العجب إن رأيناه يأخذ عن أكثر من مائتي شيخ خلال حياته . و لم يكن يستكف عن الاستفادة ممن هم أقل منه علما و مكانة ، و كانت له علاقة مع علماء غير أندلسيين كالشيخ عبد العظيم المنذري صاحب الترغيب و الترهيب . و لم يعقه عن مواصلة الأخذ

(1)- العلمي لراوي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير بابن الأبار (595هـ - 658هـ / 1199م - 1260م) حياته و مؤلفاته و دراسة فنية لشعره ، مخطوطة رسالة الدكتوراه ، قسم اللغة العربية و آدابها ، جامعة الإخوة منتوري ، قسنطينة ، 1997م - 1998م ، ص 19 .

(2)- بتصرف/ أبو عبد الله محمد بن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، 1956 م ، ج 2 ، ص 889 .

و الطلب إلا رماح تناوشت جسمه لتنتزع منه روحه و تقضي على تلك الهمة الجبارة ((⁽¹⁾).

لقد كان ابن الأبار محظوظا خلال مسيرته العلمية حيث تداول على تعليمه و تكوينه هذا العدد الجم من خيرة شيوخ الأندلس و علمائها ، فلا عجب — و الحال هذه — أن يكتسب الشاعر ثقافة واسعة و زخما علميا كبيرا كان له الأثر البعيد في غزارة التأليف لديه في مختلف مجالات العلم و المعرفة .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .

4 - شيوخه :

كان المسار التعليمي لابن الأبار القضاعي موفقا إلى حد بعيد ، فقد ساهمت العديد من العوامل في تكوينه و صقل مواهبه ؛ الأمر الذي مكنه من الحصول على ثقافة واسعة و رصيد معرفي كبير ، و قد عرفت حياته التعليمية محطات مختلفة بداية بأسرته التي لم تدخر جهدا في تعليم ابنها و تزويده بمختلف المعارف ، ثم انتقل من محيطه التعليمي الصغير — أسرته — ليندمج و يمتزج بفاعلية كبيرة في محيط أوسع منه ، لم تتوقف حدوده على مدينة بلنسية فحسب بل يتعداها إلى كل بلاد الأندلس .

((بدأ التحصيل العلمي مبكرا ، إذ حفظ القرآن عن والده عبد الله بن أبي بكر ، استمر في تحصيل العلوم وفق نظام التحصيل المتبع آنذاك ، و هو نظام الاستماع و الإجازة* ، فأخذ عن ما يفوق مائة شيخ من فطاحل علماء الأندلس ، هؤلاء الذين درس عنهم ابن الأبار مباشرة أو بطريقة غير مباشرة هم قادة العلم في الأندلس ، حفظ عنهم القرآن و تلاوته بالقراءات السبع ، روى عنهم الحديث و الأخبار و تعلم عنهم اللغة ونحوها و الأدب و أجازوه لفظا و خطا ، هذا يكشف المبلغ الكبير الذي بلغه في العلم))⁽¹⁾ .

لقد كان النظام التعليمي السائد في عصر ابن الأبار و ما قبله ، هو نظام الأخذ عن الشيخ سماعا سواء كان ذلك في المسجد أو بمنزل الشيخ ، فلم تكن هناك هياكل تعليمية مخصصة ، و لا مؤسسات و هيئات رسمية تشرف على التعليم عكس ما هي عليه الحال في وقتنا الحاضر ، فقد كانت الأسرة هي المنوط بها مهمة تدريس

* - الإجازة عبارة عن شهادة أو إقرار من الشيخ أن التلميذ قد فهم كتابه الذي يدرسه له فهما جيدا و استوعبه استيعابا تاما ، و أصبح قادرا على تدريسه لغيره ، فهذا هو نظام الاستماع و الإجازة ، و تكون الإجازة إما لفظية أو مكتوبة أو كليهما معا ، و قد تكون الإجازة للصبيان و حديثي السن من باب التشريف ، يمنحها الشيخ بناء على ما يلاحظ على الطفل من استعداد فطري و فطنة وذكاء ، و تكون خاصة بأبناء السادة ، و قد حصل ابن الأبار على إجازة من الشيخ أبي بكر بن أبي جمرة و لما يتجاوز السنتين من عمره .

(1) - العلمي لراوي : ابن الأبار بين التأليف و الإبداع ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 13 - جوان 2000م - شركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، ص 223 - 224 .

و تعليم أبنائها، بحسب قدرتها المادية على ذلك و درجة الوعي لديها بأهمية التعليم ، الأمر الذي حرم الكثير من الأبناء من نيل قسط من العلم و المعرفة ، و من هنا يمكن القول إن فرص التعليم كانت منحصرة — في الغالب — على أبناء الطبقات الميسورة الحال ، كأسرة ابن الأبار التي كان لها نصيبا من العلم وحظا من النعمة و فضلا من الثراء.

((ونعتقد أن أول من جلس إليه يتعلم عليه ، هو والده يتعلم عليه القرآن بقراءة نافع و يسمع منه الأخبار و الأشعار ، فهو المعلم الأول لابنه ، فبعد أن حفظ عليه و أمتحنه و تأكد من استيعابه و تمثله لما تحصل عليه ، منحه جميع كتبه ثم سمح له بمصاحبته للأخذ من الشيوخ الذين روى عنهم الوالد و انفرد الولد بالأخذ عن شيوخ آخرين لم تتح الفرصة للوالد أن يجالسهم بحكم مهامه المختلفة))⁽¹⁾ .

ثم كانت المرحلة التعليمية الموالية في حياة ابن الأبار ، فبدأ يتردد على حلقات الدرس و التي غالبا ما كانت تعقد بالمساجد عقب كل صلاة أو بمنازل الشيوخ و الأساتذة المتصدرين للتدريس ، و ينتقل من بلدة لأخرى طلبا للعلوم و تحصيلها للمعارف المتاحة في ذلك العصر .

((و لم يكتف ابن الأبار بالدراسة على علماء بلنسية ، بل قام برحلة طويلة جاب بها الأندلس ، و أصبح يجمع إلى تضلعه في الحديث ثقافة جامعة لعلوم عصره ، ثم عاد أخيرا و لما يبلغ الثلاثين من عمره))⁽²⁾ .

إن كثرة الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن الأبار و ما يمتازون به من التحصيل و تنوع المعارف و العلوم لديهم ، قد ساهم في تكوينه و اكتسابه ثقافة موسوعية ثرية و حافلة .

((فهو قد درس على شيوخ كثيرين يردد أسماءهم في مؤلفاته ، و ينقل عنهم ،

(1) - لراوي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير بابن الأبار ، (مخطوطة رسالة دكتوراه) ، ص 19 .

(2) - محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، منشورات مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط 1 ، 1962م ، ص 321 .

أمثال أبي عبد الله بن نوح ، و أبي جعفر الحصار ، و أبي الخطاب بن واجب ،
و أبي الحسن بن خيرة ، و أبي سليمان بن حوط ، و أبي عبد الله محمد بن عبد
العزيز بن سعادة ، و يمكننا أن نعد أبا الربيع بن سالم في طليعة شيوخ ابن الأبار ،
فقد لزمه قرابة عشرين عاما ، و أبو الربيع أكبر محدث في عصره ، و أشهر
علماء الأندلس في زمانه ، و هو الذي علم ابن الأبار صناعة الكتابة ، و أورثه
إياها ((1).

و قد ترجم ابن الأبار نفسه في بعض كتبه للكثير من العلماء و الشيوخ الذين
كان لهم الفضل الكبير في تعلمه و تكوينه في مختلف العلوم و الفنون ، و من بين
هؤلاء الشيوخ الذين تتلمذ عليهم :

— **محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقي** : هو من أهل بلنسية
و علمائها ، ولد سنة (530هـ) ، وتعلم على خيرة مشايخها ، و زاحم العلماء
و الفقهاء ، توفي سنة (608هـ) ، و كان محدثا حافظا و عالما بالأنساب و الأخبار
و القراءات ، اشتغل بالقضاء في بعض مدن الأندلس و إماما خطيبا بجامع بلنسية
مدة ، و طال عمره حتى أخذ عنه الآباء و الأبناء (2) ،

كما ((كان من الراسخين في العلم بارعا في العربية و الفقه و الإفتاء)) (3) .
و يظهر بوضوح انطلاقا من تاريخ وفاة هذا الشيخ ، أن ابن الأبار قد أخذ
عنه بعض العلوم و المعارف كالفقه و القراءات في بداية حياته الدراسية ، إذ توفي
الشيخ و لم يتجاوز ابن الأبار الثالثة عشرة من عمره .

— **محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري النحوي** :
من أهل بلنسية و كنيته أبو عبد الله ، قرأ عنه ابن الأبار قبل وفاته سنة (610هـ) ،
أي قبل أن يبلغ سن الخامسة عشرة ، و يقول عنه أنه لم يكن يعتمد على النقل فقط

(1) - المرجع السابق : ص 321 .

(2) - بتصرف / ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج 2 ، ص 582 - 584 .

(3) - صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج 2 ، ص 239

بل كان يعمل العقل و المنطق ، عارفا بعلوم اللسان و متبحرا في العربية ، عاكفا على إقرائها و التعليم بها قائما على كتابتها بصيرا ، بصناعة الحديث مكبا عليه ، قرأ و أقرأ جمعا كبيرا و أفاد و استفاد كثيرا ، و قد نقلت من خطه ما نسبته إليه في هذا الكتاب " تكملة كتاب الصلة" و أجاز لي بلفظه و سمعت منه بعض نظمـه ، و كان شاعرا محمودا⁽¹⁾ .

— أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعادة : من أهل شاطبة ، قدم إلى بلنسية في أول شوال سنة(610هـ) ، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هديـل و غيره من كبار العلماء ، سمع من أبي عبد الله بن سعادة و أبي حفص بن واجب لما جاء بلنسية أخذ عنه ابن الأبار و سمع منه و أجاز له ، توفي بشاطبة يوم الثلاثاء التاسع من شوال سنة(614هـ) بعد أن عمر طويلا فبلغ المائة سنة⁽²⁾ .

— داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمان بن سليمان بن عمر ابن خلف بن عبد الله الرؤوف بن حوط الله الأنصاري الحارثي : من أهل أندة و كنيته أبو سليمان و ولد بها سنة(552هـ) ، سكن مالقة ، و أخذ عن أبيه و أخيه ، و تجول ببلاد الأندلس للسمع من علمائها و الأخذ عن رواتها فزار بلنسية و شاطبة و مرسية و قرطبة ... و سمع و روى عن ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة و ابن زرقون و غيرهما من علماء الأندلس و فقهاءها ، و كان شديد العناية بالرواية و لم يكن في وقته من يجاريه فيها ، ولي قضاء الجزيرة الخضراء ، ثم ولي قضاء بلنسية في آخر سنة(608هـ) ، توفي بمالقة و هو على قضائها سنة(621هـ) ⁽³⁾ .

— محمد بن ابراهيم بن مسلم البكري و يكنى أبو عبد الله : هو من أهل بلنسية و قد أخذ العلم عن أبي عبد الله بن نوح و لازمه ، و أخذ عنه العربيـة و الآداب و علم بها ، و كان مقدما حسن التعليم ، و أخذ عنه ابن الأبار علوم اللغة

(1)- بتصرف/ ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج 1 ، ص 313 .

(2)- بتصرف/ المصدر نفسه : ج 1 ، ص 313 - 314 .

(3)- بتصرف/ المصدر نفسه : ج 1 ، ص 316 .

قرأ عليه كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي ، و كان من أهل الديانة و النزاهة — و الانقباض ، و توفي سنة (627هـ) ⁽¹⁾ .

— ((محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر المكتب : من أهل بلنسية يكنى أبو حامد ، أخذ القراءات عن أبيه ، و سمع من أبي العطاء بن نذير و أبي عبد الله بن نسع كثيرا و من غيرهما و أدب بالقرآن ، و هو معلمي و عنه أخذت قراءة نافع و به انتفعت في صغري ، و سمعت منه و أجاز لي ، و سمع مني كتاب "معدن اللجين في مرثي الحسين من تألّفي ، و كان ناشئا في الصلاح محافظا على الخير متواضعا ، يجمع إلى جودة الضبط براعة الخط ، و صلى بالناس الفريضة ، في مسجد رحبة القاضي — من داخل بلنسية — دهرا طويلا ، و كان من العدالة و النزاهة بمكان ، و رحل حاجا في سنة (632هـ) ، فمرض بالإسكندرية أو في طريقه إليها ، و توفي بعيذاب — قاصدا بيت الله الحرام — في آخر سنة (633هـ))) ⁽²⁾ .

— أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي : هو الحافظ المحدث الشهير سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري الكلاعي ، ولد ببلنسية سنة (565هـ) ، فاق أهل زمانه في علم الحديث و الرواية ، و كان له حظ وافر في الأدب و البلاغة و الخطابة و الشعر ، له الكثير من المؤلفات في شتى فنون الكتابة منها: الإكتفاء في مغازي الرسول (صلى الله عليه و سلم) و الثلاثة الخلفاء ، كتاب مصباح الظلم و كتاب الأربعين و غيرها ، توفي شهيدا في موقعة أنيشة قرب بلنسية سنة (634 هـ) ، و قد كان لأبي الربيع سليمان الكلاعي الأثر الكبير في حياة ابن الأبار العلمية و الأدبية ، الأمر الذي جعله يردد اسمه في جل ما ألفه من كتب ، كما بكاه عند استشهاده بقصيدة من أجود ما قال في الرثاء ⁽³⁾ .

(1) - بتصرف/ المصدر السابق : ج 1 ، ص 986 .

(2) - المصدر نفسه : ج 2 ، ص 635 .

(3) - بتصرف/ صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج 15 ، ص 432 - 436 .

— أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة البلسي : كان من مقرئي القرآن و من رواة الحديث ، و خطيب مسجد بلنسية و إمام الصلاة تقلد الإمامة أربعين سنة فيها ، و كان رجلا مجتهدا في طلب العلم بالأندلس و المشرق ... توفي في أواخر رجب سنة(634هـ)⁽¹⁾ .

— ((الشيخ أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى ابن مطروح التجيبي : و كان فقيها عارفا بالأحكام ، عاكفا على عقد الشروط ، من أهل الشورى و الفتيا أديبا شاعرا مقدما فكها ، صدوقا في روايته . سمعت منه حكايات و أخبارا و أنشدني لنفسه و لغيره كثيرا و أجاز لي غير مرة لفظا جميع ما رواه و أنشأه ، توفي الشيخ عند المغرب من ليلة يوم الجمعة التاسع و لذي القعدة سنة(635هـ) و الروم محاصرون لبلسية))⁽²⁾ .

— الشيخ نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن نذير الفهري ، يكنى أبو عامر: أخذ القراءات عن أبيه أبي العطاء ، و سمع منه ، و من أبي بكر بن جزي ، و أخذ العربية و الأدب عن أبي محمد بن عبدون ، و كتب إليه من أهل المشرق جلة من العلماء الأفاضل ، عني بعقد الشروط ، فلم يكن أحد يدانيه في ذلك حسن مأخذ ، و سهولة الألفاظ ، و براعة مساق مع المشاركة في الفقه ، و كان قائما على الكامل للمبرد كثيرا ما سمعته يورد أشعاره و يسرد من حفظه أخباره ، و ولي قضاء بعض المدن الأندلسية ، و كان محدثا حافظا ، فأخذ عنه طلاب العلم ، و يذكر ابن الأبار أنه سمع منه كثيرا و أجاز له لفظا و خطا ، بقي الأستاذ ببلنسية حتى أخذها ملك أرغون ، فانتقل إلى مدينة دانية و ولي قضاءها إلى أن توفي بها في منتصف شهر شعبان سنة(636هـ)⁽³⁾ .

(1) - بتصرف/ ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلاة ، ج 1 ، ص 681 .

(2) - المصدر نفسه : ج 2 ، ص 517 .

(3) - بتصرف/ المصدر نفسه : ج 2 ، ص 424 - 425 .

— أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسي : من أهل بلنسية ،
يكنى أبو الخطاب حامل راية الرواية بشرق الأندلس ، و آخر المحدثين المسنين .
ولد في بلنسية سنة (537هـ) و توفي بمراكش ، قرأ ابن الأبار عن الشيخ
أبي الخطاب الحديث و التاريخ حوالي سنة (609هـ) ، و أجاز له غير مرة خطا
و لفظا ، و كان ابن الأبار يسند إليه كثيرا من روايات الحديث و روايات الأخبار .
ولي أبو الخطاب القضاء في بلنسية و شاطبة ، اختصر تأليف ابن بشكوال في
الغوامض و المبهمات و رتبته ترتيبا مفيدا ، و اختصر كتاب الفصل للوصل
المدرج في النقل لأبي الخطيب⁽¹⁾ .

لقد كان شيوخ ابن الأبار القضاعي الذين تناوبوا على تدريسه و تعليمه مختلف
العلوم و الفنون ، سواء كان ذلك ببلنسية — مسقط رأسه — أو خارجها كثيرون ،
و لن يستطيع هذا البحث أن يحيط بهم و إن حرص على ذلك ، فقد ألمحنا إلى
بعضهم و خاصة إلى من كان لهم الأثر الكبير على المسار التعليمي لابن الأبار
الذي اغترف من معينهم و لم يفتأ يردد أسماءهم في ثنايا كتبه .

(1) - بتصرف/ المصدر السابق : ج 1 ، ص 106 .

5- رحلاته :

عرف ابن الأبار القضاعي في حياته الرحلة و ألف السفر و التنقل ، و كان ذلك لطلب العلم أو لدواعي السياسة التي اشتغل بها ، فبعد أن أخذ بعض المعارف و العلوم في مدينته ، خرج يطوف في حواضر الأندلس و مراكزها الثقافية ، يدفعه إلى ذلك طموحه العلمي الذي تميز به منذ صغره .

لقد كانت رحلة ابن الأبار الأولى من أجل طلب العلم ، فبعد أخذه عن شيوخ بلده — بلنسية — شد الرحال و ولى وجهه شطر المراكز الثقافية المعروفة إذ ذاك بالأندلس ، ((و لم يقتصر في الأخذ عن شيوخ بلنسية و شرقي الأندلس ، بل نراه يقوم برحلة علمية عبر بعض المدن الأندلسية للدراسة و الأخذ و ذلك أثناء حياة والده))⁽¹⁾ .

لقد أفاد ابن الأبار من رحلته هذه الشيء الكثير ، حيث زار خلالها معظم المدن الأندلسية و مراكز الثقافة بها ، و حصل من العلوم و المعارف رصيذا متميزا ما كان ليتأتى له لولا سفره هذا الذي استغرق عدة سنوات .

((عاد إلى بلنسية عندما بلغه نعي والده ، و خلفه في مكانته لدى أبي الربيع الكلاعي الذي أستأثر ابن الأبار بإعجابه و حبه حتى أصبح أقرب تلامذته و أحب طلابه))⁽²⁾ .

ويظهر جليا أن عودة ابن الأبار من رحلته العلمية الطويلة ، قد حدثت و لما يتجاوز الرابعة و العشرين من عمره ، فقد ذكر هو نفسه عند ترجمته لأبيه قائلا : ((توفي ببلنسية — و أنا حينئذ بنغر بطليوس — عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة(619)هـ ، و دفن لصلاة العصر من يوم الأربعاء — بعدده))⁽³⁾ .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .

(3) - ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج 2 ، ص 891 .

أقام ابن الأبار في بلنسية بعد موت أبيه ملازماً لشيخ الأندلس أبي الربيع سليمان الكلاعي — صديق أبيه — الذي عمل على إلحاقه كاتباً في بلاط حاكم بلنسية أبي عبد الله بن أبي حفص الموحي ، ثم لدى ابنه أبي زيد عبد الرحمان .
غير أن إقامته لم تستمر طويلاً ، فقد عاد للسفر و التجوال من جديد ، لكن هذه المرة لم تكن رحلته لطلب العلم ، بل كانت رحلة اضطرارية لدواعي السياسة و مشاكل الحكم و الإدارة ، و كانت وجهته بلاد النصارى ، و ذكر محقق الديوان متحدثاً عن هذه الرحلة السياسية : ((و في سنة (626هـ / 1228م) التجأ مع سيده المخلوع هذا إلى بلاد النصارى الاسبان (الأرغونيين)⁽¹⁾ .

و قد أشار ابن الأبار في شعره إلى رحلته هذه إلى بلاد النصارى مع حاكم بلنسية المخلوع ، محاولاً تبرير ما فعل و التخفيف من جسامته ذلك الخطأ الذي ارتكبه في حق نفسه و وطنه حيث يقول :

قالوا: الخروج لأرض الروم منقصة فقلت: كلا و لكن صاها باء
إذا خرجت وفاء ثم عدت تقى أثنت بفعل عداي و الأعباء
و كان لي في قرش أسوة و كفى مع النجاشي ترضاها الألباء⁽²⁾ .

و بالرغم من العناية التي حظي بها ابن الأبار إلى جانب الحاكم الموحي المخلوع عند الأرغونيين ، إلا أنه لم يستطع إخفاء مرارة مغامرته السياسية التي قادت إلى أعداء بلده و أمته ، لكنه سرعان ما استدرك الموقف و رجع إلى الأندلس ، بعد أن تأكدت له خيانة الحاكم الموحي أبي زيد الذي ارتد عن الإسلام و اعتنق المسيحية .

((فلم يلبث إلا قليلاً حتى عاد إلى دار الإسلام حيث وجدناه في وادي أش (Guadix) في شوال سنة (626هـ / أغسطس 1229م) . و إثر ذلك اتجه نحو صديقه القديم أبي الحسين الخزرجي ... حاكم شاطبة (Jativa) من طرف ابن

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .

(2) - المصدر نفسه : ص 55 .

هود و مدحه بقصيدتين فيهما تفاصيل جديدة عن حياته و عما تعرض له من النهب و السلب و هو في طريق العودة إلى بلاده المسلمة ((⁽¹⁾).

لقد انتفع ابن الأبار من مغامرته السياسية هذه الكثير ، و أضاف إلى رصيده الحياتي الثري تجارب جديدة ، كان لها أثرها العميق على مستقبل حياته ، فأصبح أكثر رصانة و رزانة ، و أشد حنكة و أقوى مراسا في مواجهة التحديات و تقدير عاقبة الأمور عما كان عليه من قبل .

و بعد إقامة ابن الأبار في شاطبة مدة لم تُعرف بالتحديد ، عاد من جديد إلى مسقط رأسه بلنسية التي غادرها من قبل ، نادما على ما بدر منه معذرا للحاكم الجديد أبي جميل زيان بن مردنيش الذي أطاح بالحاكم السابق أبي زيد بن عبد الرحمان الموحدي ، و ((استقبله أبو جميل زيان بن مردنيش استقبالا حسنا إذ لم يتكرر لصداقته و عشرته القديمة في بلاط الحاكم الموحدي ، حيث كانا يعملان جنبا إلى جنب في خدمته))⁽²⁾.

استقر ابن الأبار في بلنسية إلى جانب حاكمها الجديد كاتبا له ، و مساعدا على تصريف شؤون الحكم و الإدارة ، و كان ذلك إيذانا بنهاية تجواله و رحلاته خلال المرحلة الأندلسية في حياته .

لم يلبث ابن الأبار إلا قليلا في بلنسية ، التي سرعان ما حاصرتها القوات الصليبية الغازية و ضيقت عليها الخناق ، فقد عاد ابن الأبار إلى حياة الترحال من جديد و اختاره حاكم بلنسية ليرأس وفد البيعة إلى الإمارة الحفصية في الشمال الإفريقي ، و طلب العون و المساعدة من سلطانها أبي زكريا الحفصي .

و يذكر ابن خلدون متحدثا عن وفد بلنسية بقيادة ابن الأبار قائلا : ((و لما دلف الطاغية إلى بلنسية و نازلها بعث زيان بوفد بلنسية و بيعتهم إلى الأمير أبي

(1) - المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 10 - 11 .

زكريا ، و كان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ ، فحضر مجلس السلطان و أنشد قصيدته على روي السين يستصرخه ((⁽¹⁾) .

لقد كانت هذه الرحلة الرسمية خارج حدود الأندلس ، فاتحة عهد جديد في حياة ابن الأبار ، فعرف كيف يستغلها و يستثمرها لصالحه ، فقد استشرف بعلمه و بعد نظره مصير الأندلس المحتوم و ضياعها من أيدي المسلمين .

((و عندما وصل لتونس ألقى ابن الأبار بين يدي أبي زكريا قصيدته السينية المشهورة التي كان لها أكبر الصدى في الأندية الأدبية بتونس ، و اعتبرت نموذجا احتداه بعض الشعراء المعاصرين هناك دون القدرة على النظم في مستواها))⁽²⁾ .

و تعد هذه القصيدة من عيون شعره و غرر نظمه ، و مما جاء فيها قوله :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجَتِهَا دَرَسًا
وَ هَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسًا⁽³⁾

لقد كانت هذه القصيدة فاتحة مدائح ابن الأبار في البلاط الحفصي ، وقد ضمنها صرخة استغاثة لمدينته بلنسية ، ((فهي من أبدع قصائد النجدة و الاستغاثة في الشعر العربي... صور فيها هذا الشاعر مأساة الأندلس بوهج بكائي و إن شئت جنائزي تفوق في حدة نبرته على بكائية الرندي و غيره ، مصورا في كل ذلك ما آل إليه أمر الأندلس و موجهها صرخة الاستغاثة للأمير الحفصي))⁽⁴⁾ .

لقد حققت رحلة ابن الأبار إلى تونس أهدافها المنتظرة ، فعلى المستوى السياسي و العسكري ، كان رد الأمير أبي زكريا سريعا و فوريا ، ((فاستجاب للنداء الملح و بعث بمعونة ضخمة من السلاح و المواد الغذائية ، إلا أن الحصار كان شديد الإحكام ، بحيث لم يدع فرصة للسفن التونسية للاقتراب من شاطئ بلنسية

(1) - ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 653 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .

(3) - المصدر نفسه : ص 395 .

(4) - عبد الله حمادي : دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة و النشر قسنطينة ، ط 1 ، 1406هـ - 1986م ، ص 82 .

و الاتصال بالبلنسيين المحاصرين ، مما اضطرها إلى أن تفرغ شحناتها في ميناء دانية))⁽¹⁾ .

و من الناحية الشخصية فقد تمكن ابن الأبار من ربط علاقات وطيدة مع بعض الشخصيات الفاعلة في البلاط الحفصي ، بل مع السلطان الحفصي نفسه ، و كانت هذه العلاقة بمثابة التمهيد لإقامته بالإمارة الحفصية و استقراره بها فيما بعد .

((عاد ابن الأبار إلى بلنسية ، و لعله كان صحبة النجدة الحفصية و وجد إخوانه المحاصرين قد نفذ صبرهم و عزموا على تسليم المدينة ، و اختاره الأمير زيان ليكون نائبه في مفاوضات التسليم ، و ليوقع وثيقة الهزيمة و تسليم البلد للأرغونيين ، و ذلك في (17 صفر 636هـ / 28 سبتمبر 1238م)))⁽²⁾ .

استمرت رحلات ابن الأبار ذهابا و جيئة بين حاضرة الدولة الحفصية و المدن الأندلسية المتساقطة — دانية ثم مرسية و قبلهما بلنسية — طلبا للنجدة و سفيرا لهذه المدن التي أحرق بها الأعداء و أحاطوها من كل جانب ، و بعد أن تأكد من عدم جدوى مساعيه في طلب العون و الاستغاثة للمدن الأندلسية المحاصرة، و أنها لا محالة صائرة إلى أيدي الأعداء ، قرر مغادرة الأندلس و الإقامة بصفة دائمة بالإمارة الحفصية .

((و كأن ابن الأبار قد أدرك بعد سقوط بلنسية أن الغزاة سيواصلون هجماتهم على المدن الإسلامية الباقية في الأندلس واحدة إثر أخرى ، فعزم على الهجرة بأسرته إلى تونس ، لاجئا إلى حمى السلطان الحفصي الذي لقي منه خلال سفارته السابقة لديه كل رعاية و تكريم ، و كذلك غادر ابن الأبار في أواخر صفر من عام 636هـ) أرض الأندلس إلى غير رجعة))⁽³⁾ .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .

(3) - محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 322 .

لقد كانت هذه الرحلة آخر عهد ابن الأبار بالأندلس ، التي بكأها في شعره
و تحصر على ضياعها ، و بقي دائم الحنين إليها شديد الشوق إلى مراتبها كثير
الوصف لمناظرها .

((و اتجه أولا إلى بجاية التي كانت المرسى الرئيسي الذي يكون صلة
الوصل بين شرقي الأندلس و المغرب الأوسط و الأدنى ، و هناك استقبله أبو يحيى
بن أبي زكرياء و ولي عهده ، و مدحه بقصيدة بكى فيها وطنه و وصف مأساة أمته
و كارتته و ضياعه))⁽¹⁾ .

لقد وجد ابن الأبار في بجاية كرم الضيافة و حفاوة الاستقبال من طرف أهلها
عامة و حاكمها — ولي العهد الحفصي — خاصة ، الأمر الذي جعله يقيم بها مدة ،
فقد كانت منارة للعلم و مقصدا للعلماء و المثقفين .

((لم يقيم كثيرا في بجاية التي وجد لدى أميرها كل إكرام و ترحيب إذ كانت
تونس هدفه ، فوصل إليها و هو لا يزال مثخنا بجراح النكبة و مثقلا بهوم الغربة
و ممزقا بإحساس الجلاء و النفي ، و صحبته زوجة مكلومة و بنات هدهن الحزن
و الأسى لا تنطق إلا بالدموع السوافح . لكن الأمير خفف من مأساته و عالج
جراحاته بما أعدق عليه من نعم و أولاه من كرم))⁽²⁾ .

حظي ابن الأبار في البلاط الحفصي بالتقدير و الإجلال ، و أحيط بعناية
السلطان أبي زكريا الذي كان شديد الحرص على تقريب العلماء و الشعراء من
بلاطه ؛ كيف لا و هو نفسه شاعر مفلق و عالم نحير .

و قد تبوأ ابن الأبار في البلاط الحفصي المكانة التي يستحق ، بفضل مواهبه
الجمّة و مهاراته الإدارية التي اكتسبها خلال عمله لدى الحكام الأندلسيين من قبل .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 12 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 12 .

استمر ابن الأبار في خدمة السلطان الحفصي أبي زكريا مدة ، غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما تمكن بعض حساده و منافسيه من إيغار نفس السلطان عليه فأمر بعزله من منصبه ، فرحل من جديد إلى بجاية منفيا .

((و في آخر صفر سنة (646هـ) نجده في بجاية منفيا متألما ، يستعطف ولي العهد أن يشفع له عند الأمير فيؤلف كتابه ((إعتاب الكتاب)) ليخفف من غلواء الأمير و غضبه و يستدر حلمه و عطفه ... و في رمضان أو شوال سنة (646هـ) / دجمبر أو يناير سنة (1248م - 1249م) كانت بشائر العفو تملأ جوانحه و بيته فرحا و سرورا))⁽¹⁾ .

و رجع ابن الأبار من جديد إلى تونس ليستأنف عمله في البلاط الحفصي كاتبا ، و بقي هناك يزاول مهنته إلى أن توفي السلطان أبو زكريا الحفصي ، و خلفه ولده و ولي عهده المستنصر الذي أبقى ابن الأبار في منصبه بالبلاط .

غير أن الرحلة كانت قدر ابن الأبار الذي لا مهرب له منه ، فلم يلبث إلا قليلا في منصبه حتى تعرض للنفي و الإبعاد من جديد ، بسبب نفسيته الصعبة و تأمر حساده عليه ، فقد رحل منفيا إلى بجاية مرة أخرى ، و بقي بها فترة أطول من ذي قبل ، حيث تفرغ للتأليف و التدريس ، و ((لم نستطع تحديد تاريخ النفي ، و لكننا على يقين أن ابن الأبار كان في بجاية للمرة الثالثة في رمضان سنة (650هـ / نوفمبر 1252م) ، و قد أتاحت له إقامته الجديدة بهذه المدينة أن يقوم بنشاط علمي أخذ و عطاء و تدوينا و تأليفا ، امتدت به هذه الإقامة بالتحقيق سبع سنوات من سنة (650 - 657هـ) ، و إن كنا نظن أنها أكثر بقليل))⁽²⁾ .

لقد تخلص ابن الأبار في مدينة بجاية ، من أرجاس السياسة و متاعب الإدارة و أجواء التنافس و الصراع داخل البلاط ، و تفرغ بهذه المدينة للنشاط العلمي الخالص ، بتردده على دور العلم و الثقافة بها للتدريس ، و التف حوله جمع

(1) - المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 13 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 13 .

غير من طلبة العلم يأخذون عنه مختلف العلوم و الفنون ، كما أقبل على التأليف و التصنيف ، و كانت رحلته القصيرة هذه إلى بجاية من أخصب فترات حياته العلمية ، و رب محنة في طياتها منحة .

و من الراجح أن يكون ابن الأبار قد حاول خلال فترة النفي هذه الاتصال من جديد بالبلاط ، في محاولة لاستعادة مكانته الضائعة و إعادة بناء الثقة بينه و بين الأمير الحفصي ، وذلك بالنظر إلى طموحه السياسي الكبير الذي ميزه منذ الفترة الأندلسية في حياته ، و توجت اتصالاته بالنجاح فقد استدعاه المستنصر الحفصي إلى بلاطه مرة أخرى .

((ثم رضي عنه و استقدمه و رجع إلى مكانه من المجلس))⁽¹⁾ .

و كان من عادة ابن الأبار الهجرة و الترحال فعاد إلى تونس ، غير أنه لم يجد من الحفصيين ما كان ألفه منهم في سابق عهده بهم من التكريم ، فقد سعى خصومه للإيقاع به من جديد ، لعلمه و ذكائه و مواهبه التي لا يستطيع منافسوه أن يجاروه فيها ، و لذلك لم يمهله هذه المرة طويلا ، و لم يروا سبيلا للتخلص منه غير القتل و التتكيل ليخلو لهم وجه الأمير .

لقد كانت رحلة عودة ابن الأبار من بجاية ، نهاية رحلاته و خاتمة مطافه و تجواله فقد أدمن الرحلة منذ سن مبكرة .

و تعد الرحلة عنصرا تكوينيا لازما و حيويا في حياة الشخصيات العلمية منذ القديم ، و لم يشذ ابن الأبار القضاعي عن هذه القاعدة ، بل كان التنقل و الترحال قدره الذي لم يفارقه منذ شبابه الباكر ، و كانت رحلاته إما لطلب العلم أو لدواعي السياسة التي ابتلي بها فأورثته الهم و الغم و الحسرة و قادتة إلى الهلاك .

(1) - ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 654 .

6- أخلاقه :

تميز ابن الأبار القضاعي بصفات و أخلاق ، كان لها أثرها الظاهر على مسيرة حياته بمختلف نواحيها سلبا و إيجابا ، و طبعت علاقاته بمعاصريه ، وبلورت أفكاره و قناعاته ، و شكلت جزء من شخصيته و أسلوب حياته .

فقد تميز منذ نعومة أظفاره بالذكاء الحاد و الفطنة العالية ، و لا أدل على ذلك من حصوله على بعض إجازات العلماء و هو في مرحلة الطفولة كما سبقت الإشارة .

و بالإضافة إلى الذكاء و الفطنة ، فقد اتصف بالجد و المثابرة في تحصيل الأعمال و تحقيق الأهداف ، وقد أكد محقق الديوان هذه الصفة بقوله : ((عرف ابن الأبار بالجد و المثابرة و البحث و الاستقصاء))⁽¹⁾ .

كما تميز ابن الأبار خلال مسيرة تعلمه و دراسته بالبساطة و التواضع ، و تحدث بعض من ترجموا له أنه كان يستفيد من الجميع حتى ممن هم أقل منه علما و منزلة : ((و لم يكن يستنكف عن الاستفادة ممن هم أقل منه علما و مكانة))⁽²⁾ .

و تعد هذه الصفات مجتمعة — الذكاء و الفطنة ، الجد و المثابرة ، البساطة و التواضع — المقومات الأساسية و الشروط الضرورية الواجب توفرها في طالب العلم الجاد في طلبه الساعي إلى تحصيله .

و لعل المكانة العلمية الكبيرة التي بلغها ، و الأنشطة الدراسية الموفقة التي قطعها ، و المؤلفات الكثيرة التي تركها ، قادرة على أن تشكل قرائن و أدلة كافية للاستئناس بها في إثبات هذه الصفات السابق ذكرها .

و قد ساهمت هذه الصفات التي تمتع بها ابن الأبار ، في تكوينه العلمي مساهمة كبرى ، و كان لها أثرها البعيد في حياته بمختلف جوانبها ، فقد تمكن من

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .

تحقيق طموحاته العلمية و السياسية و الاجتماعية ، فأصبح من الشخصيات البارزة في عصره و من ذوي الحل و العقد* ، و تقوم المناصب العلمية و السياسية التي شغلها بالأندلس و بلاد المغرب ، شاهدا على مقدار النجاح الذي تحقق له بفضل هذه الصفات .

و إلى جانب هذه الخلال الحميدة و الأخلاق الحسنة التي رفعت ابن الأبار درجات في سلم المجد و الفضيلة ، فقد كان يتصف إلى جانب ذلك بصفات و أخلاق مستقبحة ، نزلت به دركات و أزرت بمكانته ، بل لقد قادتة إلى الهلاك .

و تحدث بعض من ترجم لابن الأبار عن الصفات السلبية في شخصيته ، و التي عرضته للمؤاخذه و التوبيخ و العزل من المناصب التي شغلها في الكثير من المناسبات ، و من هذه الصفات : الكبرُ و الافتقار لروح التواضع — عكس ما عُرفَ عنه خلال مرحلة تعليمه — و الأنفة و الغلو في العزة بالنفس التي ينفر منها الحكام ، و ((كانت تعتريه حدة ، يسميها بعضهم بأوا ، يبعثها شعور بالعزلة و التفوق ، أفسدت ما بينه و بين أبي زكريا فعزله من منصبه))⁽¹⁾ .

لقد جلب ابن الأبار على نفسه غضب السلطان الحفصي ، أبي زكريا الذي كان له الفضل في تقريبه منه و تعيينه كاتباً في بلاطه ، فقابل ذلك الإحسان بالإساءة ، و ما كان ذلك ليحدث لولا نفسيته المتقلبة و مزاجه الحاد الذي أفسد عليه حياته و علاقاته .

و لم يتعظ ابن الأبار من العقاب الذي لحقه ، و لم يحفظ الدرس الذي تلقاه ، فقد تكررت هفواته بسبب هذه الصفات السلبية التي لم يستطع أن يتخلص منها ، الأمر الذي يدفع بقوة إلى القول ، إن هذه الصفات مستحكمة في طبعه و ليست مكتسبة أو عارضة في حياته ، فقد أعاد الموقف نفسه مع الأمير الحفصي الجديد ،

* - هم أصحاب الرأي و المشورة و الفضل ، خاصة في جلائل الأمور و عظام الشؤون ، و يتشكلون من العلماء و القادة و ذوي الجاه و السلطان ... أو هم (النخبة) بالمفهوم السياسي الحديث و المعاصر .
(1) - المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 12 - 13 .

((فكان يزري على المستنصر في مباحثه و يستقصره في مداركه ، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس و ولايتها عليه))⁽¹⁾ .
و كانت العقوبة هذه المرة شديدة ، فقد عزل من منصبه بالبلاط و نفي إلى بجاية التي قضى بها سنوات عديدة ، و بقي أثر جريسته يلاحقه حتى بعد أن عاد إلى تونس بدعوة من السلطان .
إن الاسترسال في الحديث عن أخلاق ابن الأبار السلبية منها و الايجابية ، ليس القصد منها الإحصاء و التتبع ، بل يكفي إثبات بعضها بالقدر الذي يجعلها قدرة على النهوض لتشكل دليلا كافيا على شخصيته و مدى تأثيرها في مسار حياته إيجابا و سلبا .

(1) - ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 653 .

7 - مكانته بين أهل عصره:

حظي ابن الأبار القضاعي بمكانة مرموقة و منزلة عالية طيلة حياته بمحطتها الأندلسية و المغربية ، كيف لا و هو الشاعر المفلق و العالم النحرير ؟
و رغم جو التنافس الحاد الذي كان سائدا بين العلماء و الأدباء ، حيث وصل في مناسبات كثيرة إلى درجة الخصومة و الصراع ، إلا أن ذلك لم يحط من مكانة ابن الأبار و لم يزعزعه عنها ، فقد ظل معاصروه يجلونه و يعرفون له قدره .
و يذكر المقرئ قائلا : ((و قال في حقه ابن سعيد في المغرب ما ملخصه :
حامل راية الإحسان ، المشار إليه في هذا الأوان))⁽¹⁾ .

فهذا اعتراف ضمني من ابن سعيد — أحد معاصري ابن الأبار الأبار — فيه إقرار بالمكانة التي وصلها ، و أسبقيته في العلم و الأدب ، ذلك أن حامل الراية يكون عادة أمام القافلة يقودها نحو غايتها النبيلة و هدفها المنشود .
و ينقل المقرئ عن ابن سعيد شهادة أخرى تؤكد ما ذكره من قبل ، حيث يقول : ((قال ابن سعيد في القدح المعلى في حقه : كاتب مشهور و شاعر مذكور ، كتب عن ولاية بلنسية ، و ورد رسولا حين أخذ النصارى بمخنق تلك الجهات ، و أنشد قصيدته السينية :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلَسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجَتِهَا دَرَسَا

و عارضه جمع من الشعراء ما بين مخطئ و محروم ، و أغري الناس بحفظها إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم *))⁽²⁾ .

(1) - المقرئ : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 591 .

* - هي قصيدة الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم التغلبي قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، و تعد هذه القصيدة من المعلقات السبع ، و قد شغف بحفظها و روايتها قومه ، فقال أحد شعراء خصومهم من بني بكر يهجوهم بانسغالهم بها عن المكارم : أَلْهَى بَنِي تَغْلِبَ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيدَةً قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ

يُفَاخِرُونَ بِهَا مَذَّكَانَ أَوْلَهُمْ يَا لِلرِّجَالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَسْئُومٍ . للمزيد ينظر/ ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، تحقيق و شرح/ أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، 1426هـ / 2006م ، ج 1 ، ص 228-230

(2) - المقرئ : نفح الطيب ، ج 4 ، ص 432 .

و على غرار ما قاله ابن سعيد المغربي في حق ابن الأبار ، فقد إعترف له بالفضل جمع غفير من أعلام عصره و أنزلوه المكانة اللائقة به .

كما اعترف له ابن عبد الملك المراكشي بالفضل و سعة العلم و حصافة العقل فقال : ((و كان آخر رجال الأندلس براعة و إتقانا ، و توسعا في المــــــــعارف و افتتانا ، محدثا مكثرا ، و ضابطا ، عدلا ، ثقة ، ناقدا ، يقظا ، ذاكرا للتواريخ على تباين أغراضها ، مستبحرا في علوم اللسان نحوا و لغة و أدبا ، كاتبا بليغا ، شاعرا مقلقا مُجيدا . عني بالتأليف و بحث فيه و أعين عليه بوفور مادته و حسن التهدي إلى سلوك جادته و صنف فيما كان ينتحله مصنفات برز في إجادتها ، و أعجز عن الوفاء بشكر إفادتها))⁽¹⁾ .

و على النقيض من ذلك ، فقد وُجِدَ من الأعلام و الشخصيات من ذهب إلى الناحية السلبية من مكانة ابن الأبار ، و وجه نقدا لاذعا له ، و أحصى نقائصه و عدد مثالبه .

فقد ذكر المقري قائلا : ((و كان أعداؤه يلقبونه بالفار ، و حصلت بينه و بين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري مهاجاة ، فقال فيه :

لا تعجبوا لمضرة نالت جميع ع الناس صادرة عن الأبار
أو ليس فارا خلقة و خليقة و الفار مجبول على الإضرار
فأجابه ابن الأبار :

قل لابن شلبون مقال تنزهه غيري يجاريك الهجاء فجار
إنا اقتسمنا خطيتنا بيننا فحملتُ برة و احتملتُ فجار⁽²⁾ .

لقد كان ابن شلبون شديد التحامل على ابن الأبار ، إذ وجه له هجاء مقذعا تأباه الأخلاق الفاضلة و تنفر منه الفطرة السليمة ، حيث تجاوز فيه الهجاء بالصفات النفسية — على عادة العرب في الهجاء — إلى التعبير بالصفات الحسية ، مما

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 17 .

(2) - المقري : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 593 .

يكشف مقدار الحسد و الحقد الذي يكنه له ، و مبلغ المنزلة العلمية العالية التي حققها ابن الأبار ؛ فكل ذي نعمة محسود .

غير أن ابن الأبار كان رصينا في رده على ابن شلبون ، مترفعا عن مجاراته في هجائه ، فهو يعرف قدر نفسه و مكانته حق المعرفة ، و يدرك أن التعاليم الإسلامية قد نهت عن هذا المسلك من القول ، و قبحت الاتجاه إليه .

و قد قيل : ما إن تتكاثر مواهب الله على شخص ، حتى ترى كل منقوص يطوي جوانحه عن غضب مكتوم و يود زوال النعمة و انطفاء العظمة .

و تقوم الوظائف السامية التي تبوأها ابن الأبار في الأندلس و في الإمارة الحفصية ، دليلا آخر على مقدار المكانة التي حظي بها في حياته ، و من تلك الوظائف : ((كتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص ابن عبد المؤمن ببلمسية ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد))⁽¹⁾ .

و بعد عودة ابن الأبار من مغامرته السياسية التي قادتته إلى بلاد النصارى ، فقد التحق كاتبا في بلاط الأمير أبي جميل زيان بن مردنيش ، فقد ذكر محقق الديوان : ((فألحقه زيان بحكومته و عينه وزيره في تلك الظروف الحرجة الخطيرة و اختاره ليرأس وفد البيعة و طلب الغوث و النجدة من تونس الحفصية))⁽²⁾ .

كما عمل ابن الأبار بالقضاء خلال فترة حياته الأندلسية ، حيث عين قاضيا في بعض المدن : ((و تولى قضاء دانية (632هـ / 1235م) لفترة قصيرة))⁽³⁾ . كما كان سفيراً عن بعض المدن الأندلسية إلى الإمارة الحفصية للبيعة و طلب الغوث و النجدة ...

(1) - ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 653 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .

(3) - داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 249 .

فكل هذه الوظائف التي شغلها في الأندلس ، و المهام التي كُلفَ بأدائها ، تعد تعبيراً صادقاً على المكانة العالية التي احتلها عن جدارة و استحقاق بالأندلس .

و بعد سقوط بلنسية و بعض المدن القريبة منها ، خرج ابن الأبار قاصداً الإمارة الحفصية ، و قد وجد بها كل الرعاية و الترحيب ، فقد أنزله حاكمها أبو زكريا الحفصي المكانة اللائقة به ، و أفسح له أبواب بلاطه ثم عينه — لاحقاً — كاتباً لديه ، ((و عندما توفي أبو عبد الله البجائي المعروف بابن الجلاء سنة (638هـ / 1241م) صاحب العلامة في بلاط أبي زكرياء ، أسندت هذه المهمة إلى ابن الأبار الكاتب المنشئ البار ، و استطاع أن يصل إلى مكانة مرموقة لدى الأمير الذي أصبح ابن الأبار ركناً من أركان دولة الشعر في حكمه ، و حلاه بفخر قضاة في بعض الأبيات من نظمه))⁽¹⁾ .

و وجد ابن الأبار من الأمير المستنصر العناية نفسها التي و جدها من سلفه ، فقد ألحقه ببلاطه و رفع مكانته ، و يشير ابن خلدون إلى ذلك بقوله: ((و لما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس و أهل تونس))⁽²⁾ .

لقد تسلق ابن الأبار سلم المجد و السؤدد بالإمارة الحفصية في وقت قصير ، و أصبح من جلساء الأمير و بطانته و مستشاريه ، وذلك بفضل مواهبه الجمّة و علمه الغزير .

غير أن هذه المكانة التي بلغها لم تستمر طويلاً ، و ذلك لنفسيته المتقلبة و أخلاقه الصعبة ، فقد جلب على نفسه العقاب ، فبالرغم الحفاوة التي تلقاها و التقدير ناله في البلاط الحفصي ، ((إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 12 .

(2) - ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 654 .

الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، و آخر عن تلك العناية ، و ارتحل إلى بجاية ،
و هو الآن بها عاطل عن الرتب خال من حلى الأدب))⁽¹⁾ .

لقد عرفت مكانة ابن الأبار تراجعاً واضحاً عما كانت عليه من قبل ، بعد
عودته الأخيرة من بجاية إلى بلاط المستنصر الحفصي ، و أضحى الأمير لا يكلمه
و لا ينظر إليه إذا حضر مجلسه ، و قد عبر ابن الأبار عن اهتزاز مكانته في
البلاط ، و اشتكى من التجاهل الذي يتلقاه من الخليفة نفسه ، و من ذلك قوله :

أمري عجيب في الأمور بين التواري و الظهور
مستعمل عند المغيب و مهمل عند الحضور⁽²⁾

((و سبب هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز
أو معمى أم مترجم بعث به إليه فيحله ، و إذا حضر عنده لا يكلمه و لا يلتفت
إليه))⁽³⁾ .

و مهما يكن من أمر ، فإن الشيء الثابت أن ابن الأبار قد تمتع بمكانة عالية ،
و احترام كبير بين معاصريه سواء كان ذلك بالأندلس أو بلاد المغرب ، نتيجة
مواهبه الكثيرة و علمه الغزير و كفاءته و خبرته في تصريف الأعمال الإدارية
و السياسية التي كلف بها ، رغم الهفوات التي وقع فيها و سببت له بعض المتاعب
خلال حياته .

(1) - المقرئ : نفح الطيب ، ج 4 ، ص 433 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 445 .

(3) - المقرئ : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 592 - 593 .

8 - وفاته :

لم تختلف المصادر التي ترجمت لابن الأبار القضاعي حول تاريخ وفاته ، إذ اتفقت كلها أن وفاته كانت بتونس في يوم الثلاثاء 21 محرم سنة (658هـ/6 جانفي 1260م) ، فقد ذكر الغبريني عن ذلك : ((توفي رحمه الله بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفي عشرين لمحرم عام ثمانية و خمسين و ستمائة))⁽¹⁾ .

و سار في الإتجاه ذاته ابن قنفذ مع ذكر التاريخ نفسه بقوله : ((و في سنة ثمان و خمسين و ستمائة توفي شهيدا بتونس الفقيه المحصل الكاتب المحدث الكامل أبو عبد الله محمد بن الأبار البلسي))⁽²⁾ .

و على غرار ما جاء في هذين المصدرين حول تاريخ وفاة ابن الأبار ، سارت بقية المصادر الأخرى ، غير أن الملفت للانتباه هو أن الغبريني يكتفي بذكر تاريخ الوفاة فقط دون الإشارة إلى حادثة مقتل ابن الأبار و لا إلى الملابسات و الأسباب التي دفعت إليها ، على خلاف بقية المصادر التي ذكرت أن ابن الأبار قد قتل من طرف المستنصر الحفصي و وصفته بالشهيد ، و ذكرت جملة من الأسباب و الدوافع التي أدت إلى مقتله .

و تحدث ابن خلدون عن وفاته ، و ساق العديد من الأسباب التي أدت إلى مقتله إذ قال : ((و عاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواصل ، و ساءل عنه السلطان فاستبهم فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة و طالعها ، فاتهم بتوقع المكروه للدولة و التربص بها كما كان أعداؤه يشنعون عليه ، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه ، و بعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع ، و ألقى أثنائها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها :

طغى بثونس خلف سموه ظلما خليفة

(1) - الغبريني : عنوان الدراية ، ص 313 .

(2) - ابن قنفذ : الوفيات : ص 324 .

فاستشاط لها السلطان و أمر بامتحانه ثم بقتله قعصا بالرماح وسط محرم من سنة ثمان و خمسين ، ثم أحرق شلوه و سيقّت مجلدات كتبه و أوراق سماعه و دواوينه فأحرقت معه ⁽¹⁾ .

كما أحصى بعض من ترجموا له جملة من الأسباب أدت إلى مقتله منها :

((1 - أنه ألف كتابا في التاريخ خاض فيه بما لا يرضي الأمير .

2 - اتهامه بتوقع المكروه للدولة ، بسبب اطلاع الأمير على بطاقة تبين ساعة المولد و الطالع لولده ، و كان هذا الطالع شؤما كما يبدو .

3 - توقع شق العصا و الخروج على الأمير .

4 - ما نمي للأمير من أنه ينتقصه ، و قد تكون هذه التهمة معقولة ، و لكن المحقق أنه كان محسودا لأدبه و وفرة علمه و توقّد ذكائه و شدة طموحه ، و قد ساعد أعداؤه و حساده على نجاح المؤامرة و الدس ؛ اعتزازه بنفسه و اعتداده بعلمه و حدة ما كانت تفارقه ⁽²⁾ .

و يمكن التماس أسبابا أخرى تقف وراء مقتل الشاعر و التتكيل بجثته — و إتلاف مجموع مؤلفاته من طرف البلاط الحفصي منها : السبب العرقي ، فالعناصر العربية النازحة من الأندلس قد استقرت ببلاد المغرب التي كانت تحكمها أسر بربرية — الحفصيون ، الزيانيون ، المرينيون — وكانت كل هذه الإمارات البربرية في مرحلة التأسيس ، الأمر الذي جعل حكامها الأوائل على درجة عالية من الحساسية السياسية تجاه العناصر النازحة ، و التي قد تمتد أطماعهم إلى مزاحمة هذه الدول على الحكم ، فقد تميزت مرحلة التأسيس بالصرامة و عدم التسامح و الضرب بيد من حديد لكل من يُتوقع منه الخروج و شق عصا الطاعة .

و كان شعور الأندلسيين النازحين بالتفوق العرقي و العلمي ، و أنهم أولى بالحكم من بقية العناصر التي لا ترتقي — حسبهم — لنيل شرف السيادة و القيادة

(1) - ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 654 - 655 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 14 - 15 .

فهم مجرد موالى ، فقد دفع هذا الإحساس الحكام الحفصيين إلى الشك في ولاء الأندلسيين ، و رأوا فيهم خطرا يتهدد إمارتهم .

كما لا يمكن إغفال السبب المذهبي ، فقد تكون تهمة التشيع التي حاول البعض إلصاقها به ، وكانت حجتهم إليها كتابه الذي ألفه بالأندلس في رثاء و تمجيد آل البيت ممثلين في شخص الحسين بن علي (رضي الله عنهما) و المعنون بمعدن اللجين في مراثي الحسين ، سببا آخر أدى مع بقية الأسباب إلى مقتله ، إذ كانت بلاد المغرب سنية على مذهب مالك ، و غني عن البيان الصراع الحاد الذي كان سائدا بين السنة و الشيعة مند القديم في كامل البلاد الإسلامية .

و مهما يكن من شأن هذه التهم — صحيحة هي أم باطلة — فإن ذلك لا يبرر إقدام البلاط الحفصي على قتل العلماء و التنكيل بهم ، و يزداد الأمر غرابة إذا علمنا أن الحكام الحفصيين قد عُرفوا برعايتهم للعلم و إكرامهم للعلماء و العمل على تقريبهم من بلاطهم طيلة فترة حكمهم .

كل هذه المعطيات تدفع بقوة إلى الإقرار في أن ابن الأبار قد وقع ضحية مؤامرة حيكّت حوله بإحكام ، و تحالفت ضده أطراف عملت في السر و العلانية على التخلص منه ؛ لأنه يشكل تهديدا لمصالحها بالبلاط الحفصي لما يتوفر عليه من علم و حصافة و ثقة ، و لم تدخر هذه الأطراف جهدا في سبيل تحقيق غايتها المنشودة ، فراحت تجمع ضده التهم و تستثمر الفرص و المناسبات للإيقاع به ، و قد تحقق لها ما أرادت ، فكانت نهايته نهاية مأساوية .

و مهما يكن من أمر ، فقد نقل التاريخ : أن حاكما مستبدا قد قتل عالما نحريرا و نكل بجنته تنكيلا شنيعا ، و أحرق كل مؤلفاته محاولا طمس كل أثر لهذا العالم و حرمان الأجيال اللاحقة من الاستفادة من علمه و الاستزادة من أدبه ، ولكن هيهات أن يحقق الاستبداد السياسي أهدافه و مراميه ، فقد تتأقل تلامذة ابن الأبار كتبه و نسخوها قبل أن تطالها يد الطمس و الإتلاف ، و حفظوا بذلك للأجيال حقهم في الاستفادة من خلاصة تجارب هذا العالم الأديب و عصارة فكره و سحر بيانه .

ب - آثاره الأدبية و العلمية :

1 - تلامذته :

التف حول ابن الأبار القضاعي جمع غفير من الطلبة يأخذون عنه مختلف العلوم و الفنون ، و قصد حلقاته الكثير من أبناء الأندلس و بلاد المغرب ، و كانت حياته العلمية خلال إقامته بالإمارة الحفصية حافلة و ثرية ، فقد تصدر للتدريس ببعض الحواضر و مراكز الثقافة بهذه الإمارة ، و خاصة مدينة بجاية التي أقام بها فترة طويلة من حياته ، إذ كانت بجاية منارة ثقافية بلغ صداها المغرب و المشرق .
((و رحل إلى العدو و استوطن بجاية ، و درّس بها و اقرأ و روى و اسمع و صنف و ألف ، و هو ممن لا ينكر فضله ، و لا يجهل نبهه))⁽¹⁾ .

و قد اشتهر الكثير من تلامذته الذين كان لهم شرف الانتساب إليه ، و ذكر بعضهم في تضاعيف مؤلفاته ، كما أشارت العديد من كتب التراجم و التاريخ إلى أنجب طالبته و ترجمت لهم ، و من بين هؤلاء التلامذة نذكر :

- أبو بكر بن سيد الناس (محمد بن أحمد بن عبد الله اليعمري الإشبيلي) ، ولد في صدر محرم (597هـ) و توفي في 23 جمادى الآخرة سنة (659هـ)⁽²⁾ .

- ((أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم التجاني (ت 660هـ) :
و هو من أخلص تلامذته المتحمسين له و المعجبين به ، و كانت أسرته تحتل بتونس الحفصية مكانة مرموقة في الإدارة و العلم ، و كان ذا حظوة في بلاط أبي زكريا . و عندما وفد ابن الأبار مستصرخا الأمير الحفصي ، و ألقى بين يديه قصيدته السينية ، انتقدها جماعة ممن حسدوه على المكانة الشخصية التي بلغها بها لدى الأمير ، فانبرى لهم أبو إسحاق و غيره منتصرا لابن الأبار ، فألف لذلك ((مؤازرة الوافد و مبارزة الناقد في الانتصار لابن الأبار))⁽³⁾ .

(1) - الغبريني : عنوان الدراية ، ص 311 .

(2) - بتصرف / ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 16 .

(3) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 16 - 17 .

- أبو الحسن عيسى بن لب بن ديسم (615 - 686هـ): و كان من أنجب تلامذته ، كما شاركه في الأخذ عن بعض علماء بلنسية و الأندلس عموما أمثال : أبي الربيع سليمان بن سالم الكلاعي ، و كان متزوجا من إحدى بنات ابن الأبار⁽¹⁾ .

- ((أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي (614 - 699هـ): و هو من علماء الأندلس الذين قاموا بنشاط علمي كبير في بجاية ، حيث انتفع بعلمه خلق كثير ، و قد لقيه العبدري صاحب الرحلة و قرأ عليه كتاب ابن الأبار: « درر السمط في أخبار السبط » و أجازة فيه))⁽²⁾ .

- ((أبو عبد الله محمد بن حيان الشاطبي الحافظ (635 - 718هـ) : و هو من الشخصيات الأندلسية التي هاجرت إلى تونس ، و يعد من أهم الذين اتصلوا بابن الأبار ، لقيه ابن رشيد بتونس و حدثنا عنه و عن علاقته العلمية به في صفحات عديدة من رحلته ، و ذلك في ربيع الأول سنة (684هـ)))⁽³⁾ .

لقد كانت إقامة ابن الأبار الأخيرة بمدينة بجاية ، و التي امتدت على مدى سبع سنوات خصبة و ثرية من الناحية العلمية ؛ إذ مكنته من التخلص من أرجاس السياسة و مشاكل الحكم و الإدارة بالبلاط الحفصي ، الذي كان مسرحا للتنافس بين نزلائه و مرتاديه ، و بؤرة للمكائد و الدسائس و المؤامرات التي طالما اکتوى ابن الأبار بنارها ، فقد مكنته هذه المدينة بأجوائها الثقافية الخالصة من استئناف نشاطه العلمي تدريسا و تدوينا ، فتخرج على يديه ثلة من طلبة العلم و المعرفة ، و الذين كان لهم الفضل في الحفاظ على ما أبدعته قريحته في مختلف العلوم و الفنون ، و العمل على نشرها بأغلب ربوع بلاد الإسلام .

(1) - بتصرف/ المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 15 - 16 .

(2) - المصدر نفسه ، (مقدمة التحقيق) ، ص 16 .

(3) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، الصفحة نفسها .

2- مؤلفاته :

اشتهر ابن الأبار القضاعي بغزارة التأليف و جودة التصنيف ، فقد ألف ما يزيد عن الخمسين كتابا في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية : التاريخ ، الفقه ، الحديث ، سير و تراجم الأعلام ، الأدب نثرا و نظما ، اللغة ...

و تميزت حياته العلمية بالتنوع و الثراء و الموسوعية ، فقد ترك تراثا علميا و أدبيا زاخرا لا تزال الأجيال تتهل منه و تغترف من معينه الذي لا ينضب ، ((فابن الأبار كان شيخ القرن السابع بعد أستاذه الكلاعي ، و قد أتاحت له ثقافته الواسعة و اطلاعه الشامل و طلبه الحثيث أن يخلف لنا إنتاجا ضخما رغم أعباء الإدارة و مشاكل السياسة و مآسي الاضطرابات و الهجرة و الجلاء ، و تربو مؤلفاته على الخمسين كتابا))⁽¹⁾ .

و أشار الغبريني إلى غزارة علم ابن الأبار و كثرة مؤلفاته و كتبه فقال : ((و لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلا و له فيه رواية ، إما بعموم أو بخصوص))⁽²⁾ .

و قد تحدث بعض الدارسين طويلا عن الرصيد العلمي و الأدبي الكبير الذي أنتجته قريحة ابن الأبار الفذة و أبدعه خياله الخصب ، و عكس من خلاله بجلاء روح عصره و الأحداث التي عاشها ، فقد كان شاهدا على القرن بالأندلس و بلاد المغرب معاشيا لأهم أحداثها و حوادثها بمختلف أدوارها و أطوارها .

و من هؤلاء الدارسين الذين ذكروا عناوين كتب ابن الأبار: عبد العزيز عبد المجيد من خلال كتابه (ابن الأبار حياته و كتبه الذي طبعته المطبعة الحسنية بالمغرب سنة 1954م) ، و عبد السلام الهراس عند تحقيقه لديوان شعره سنة 1969م) ، فقد أشار إلى جل كتبه المعروفة و التي تم تحقيقها أو التي أشارت إليها

(1) - المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 17 .

(2) - الغبريني : عنوان الدراية ، ص 311 .

بعض المصادر و المراجع ، و لم يتسن العثور عليها إلى تاريخ تحقيق ديوان شعره ، و قد أوردتها كما يأتي :

- 1- المورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل .
- 2- المأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح .
- 3- الأربعون حديثا عن الأربعين شيخا من أربعين مصنفنا لأربعين عالما من أربعين طريقا إلى أربعين تابعا عن أربعين صاحبنا بأربعين اسما من أربعين قبيلة في أربعين بابا .
- 4- الاستدراك على أبي محمد القرطبي بما أغفله من طرق روايات الموطأ .
- 5- الشفا في تمييز الثقافات من الضعفا .
- 6- هداية المعتسف في المؤلف و المختلف .
- 7- شرح البخاري (غير تام إذ قتل دون إنجازه) .
- 8- مختصر ابن أبي زمنين في الفقه .
- 9- قصد السبيل و ورد السلسيل في المواعظ و الزهد .
- 10- مظاهره المسعى الجميل و محاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل .
- 11- درر السمط في أخبار السبط .
- 12- معدن اللجين في مراثي الحسين .
- 13- إحضار المرهج في مضمار المبهج .
- 14- فضالة العباب و نفاضة العياب (أرجوزة) .
- 15- إعانة الحقير في شرح زاد الفقير .
- 16- الإيماء إلى المنجبين من العلماء .
- 17- التكملة لكتاب الصلة .
- 18- الحلة السيراء في أشعار الأمراء .

- 19- كتاب التاريخ .
- 20- إعتاب الكتاب .
- 21- برنامج رواياته .
- 22- معجم شيوخه .
- 23- معجم أصحاب أبي عمر بن عبد البر .
- 24- معجم أصحاب أبي عمرو الداني المقرئ .
- 25- معجم أصحاب أبي علي الغساني .
- 26- معجم أصحاب أبي داود الهشامي .
- 27- معجم أصحاب أبي علي الصدفي .
- 28- معجم أصحاب أبي بكر بن العربي المعافري .
- 29- معجم شيوخ أبي الحسين أحمد بن محمد بن السراج .
- 30- الوشي القسي في اختصار الفتح القسي .
- 31- إفادة الوفادة .
- 32- أنيس الجليس و نديم الرئيس .
- 33- إحصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب .
- 34- قطع الرياض في بدع الأغراض (مختارات شعرية في مجلدين
ضخمين) .
- 35- الانتداب للتنبيه على زهر الآداب .
- 36- خضراء السندس في شعراء الأندلس (من أول فتحها إلى آخر
عمره) .
- 37- تحفة القادم .
- 38- الكتاب المحمدي (جمع فيه شعراء الأندلس المسمين باسم محمد) .
- 39- إيماض البرق في شعراء الشرق (أي شرق الأندلس) .

40 - مجموع رسائله .

41 - ديوان شعره ((⁽¹⁾).

لقد عرفت بعض هذه المؤلفات طريقها إلى الطبع بعد العثور على نسخها المخطوطة المنتشرة عبر مكتبات العالم ، وتم تحقيقها تحقيقاً علمياً من طرف ثلة من الباحثين و الأساتذة المحققين ، الأمر الذي مكن القراء الإطلاع عليها و الاستفادة من أهم كنوز و ذخائر الفكر الاسلامي و العربي العلمي و الأدبي ، و إخراجها من ذاكرة النسيان التي اكتفتها لقرون عديدة .

و مؤلفات ابن الأبار التي تم تحقيقها و نشرها حتى تاريخ تحقيق و نشر ديوان شعره من طرف عبد السلام الهراس ، ذكرت كما يأتي :

- **التكملة لكتاب الصلة** : يعد كتاب تكملة الصلة من أجود و أهم ما ألف ابن الأبار القضاعي خلال حياته العلمية ، و هو كتاب في التراجم و السير و التاريخ ، و استغرق في تأليفه وقتاً طويلاً ، فقد ذكر ابن الأبار نفسه تاريخ بداية تأليفه له قائلاً: ((و كان انبعاثي لهذا التقيد ؛ الملتمس فيه من الله حسن العون و التأييد ؛ أول شهر المحرم مفتح سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة))⁽²⁾ .

و يظهر من هذا التاريخ أن ابن الأبار قد بدأ تأليف كتاب التكملة لكتاب الصلة خلال المرحلة الأندلسية من حياته ، و استمر في تنقيحه و الإضافة إليه أثناء إقامته بالإمارة الحفصية .

كما يعد كتابه هذا ، حلقة هامة ضمن سلسلة من الكتب التي سبقته حول تاريخ الأندلس السياسي و الثقافي و العلمي ، و تحدث عبد الله علي علام عن هذا الكتاب فقال : ((و هذا الكتاب الجليل ، هو تكملة لكتاب الصلة الذي و ضعه ابن بشكوال(ت587هـ) ليكمل به كتاب تاريخ العلماء و الرواة بالأندلس لابن الفرضي،

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 17 - 19 .

(2) - ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج 1، ص 2 - 3 .

و قد انتهى ابن بشكوال في كتابه « الصلة » عند سنة (534هـ) ، فابتدأ ابن الأبار في كتاب « التكملة » من سنة (535هـ) ، و انتهى به عند سنة (636هـ) ⁽¹⁾ .

عرف كتاب التكملة لكتاب الصلة طريقه إلى التحقيق و النشر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، و تداول على تحقيقه و نشره عدد من الباحثين العرب و الأجانب اعتمادا على بعض النسخ المخطوطة لهذا الكتاب ، و المنتشرة عبر مكتبات إقليمية و عالمية .

((نشر القسم الكبير منه كوديرا ، من حرف (ج) إلى نهاية الكتاب ، في مجلدين في مدريد خلال عامي (1888م – 1889م) ، و نشر القسم الأول الباقي منه ابن شنب و بل في الجزائر عام (1920م) ⁽²⁾ .

و بقي كتاب تكملة الصلة ينتظر من يجمعه بكامل أجزائه و يحققه تحقيقا علميا مرضيا حتي تتم الاستفادة منه ، فقام الأستاذ عزت العطار الحسيني بهذه المهمة و أخرج الكتاب في حلة جيدة و جديدة و نشره سنة (1956م) .

— إعتاب الكتاب : أشارت جل المصادر التي ترجمت لابن الأبار القضاعي إلى كتابه (إعتاب الكتاب) و إلى السبب الذي دعاه إلى تأليفه ، فقد تعرض لغضب السلطان أبي زكريا الحفصي ، فأبعده إلى بجاية التي أقام بها فترة حاول خلالها طلب الصفح و استعادة مكانته بالبلاط فألف هذا الكتاب ، و ذكر ابن خلدون ذلك : ((ثم إستعنت السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب ، و أعتب ، و سماه إعتاب الكتاب ، و استشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له و أقال عثرته و أعاده إلى للكتابة)) ⁽³⁾ .

فكتاب إعتاب الكتاب ، رسالة استعطاف و اعتذار طويلة بعثها ابن الأبار إلى أبي زكريا الحفصي ، و ألفه بعد إبعاده عن البلاط ، و فيه سرد لقصاص و تراجم

(1) - عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ص 27 - 28 .

(2) - محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 324 .

(3) - ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 654 .

و نوارد الكتاب الذين سبق إليهم غضب السلاطين و الخلفاء ، ثم حلت بهم نعمة العفو و الرضا ، فأعتبوهم و غفروا لهم .

يضم هذا الكتاب خمسا و سبعين ترجمة لمشاهير الكتاب و المنشئين مشاركة و مغاربة و أندلسيين ، مرتبة ترتيبا زمنيا ، ابتداء من القرن الأول الهجري — عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) — و انتهاء بالقرن السابع الهجري⁽¹⁾ .

و النسخ الخطية لهذا الكتاب منتشرة عبر العديد من مكتبات العالم ، مثلها في ذلك مثل مخطوطات كتاب تكملة الصلة للكاتب نفسه .

كما أشار جرجي زيدان إلى وجود نسخة خطية من كتاب إعتاب الكتاب بالخرانة التيمورية بمصر⁽²⁾ .

— **درر السمط في أخبار السبط** : هو كتاب تعرض فيه ابن الأبار إلى سيرة و أخبار الحسين بن علي (رضي الله عنهما) ، كما بكى فيه آل البيت و وصف ما حل بهم من أهوال و مآسي على يدي بني أمية في كربلاء .

و أشار بعض من ترجم له إلى هذا الكتاب فقال : ((و له جزء سماه « درر السمط في خبر السبط » ينال فيه من بني أمية و يصف عليا عليه السلام بالوصي و هذا تشيع ظاهر و لكنه إنشاء بديع))⁽³⁾ .

كما تحدث المقرئ عن هذا الكتاب و نقل منه فصولا طويلة في كتابه نفح الطيب ، غير أنه اتهم ابن الأبار بالتشيع بالنظر إلى محتوى كتاب درر السمط الذي في تعاطفا صريحا مع آل بيت الرسول (صلى الله عليه و سلم) و ما حل بهم من أهوال على أيد بني أمية ، فقال : ((و هو كتاب غاية في بابه ، و لم أورد منه غير

(1) - بتصرف / محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 325 - 326 .

(2) - بتصرف / جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج 3 ، ص 78 .

(3) - الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج 3 ، ص 356 .

ما ذكرته ، لأن في الباقي ما تشم منه رائحة التشيع ، و الله سبحانه يسامحه بمنه و كرمه))⁽¹⁾ .

لقد تعرض ابن الأبار بسبب هذا الكتاب إلى النقد و المؤاخذه ، لموقفه من آل البيت و عواطفه نحوهم ، بل لقد وصل الأمر إلى حد اتهامه بالتشيع ، غير أن ما ذكره الصفدي و تابعه فيه المقري لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن ينهض ليشكل موقفا كافيا يمكن الاستئناس به لاتهام ابن الأبار بالتشيع ، فلم يوجد في بقية كتبه الكثيرة ما يعزز و يؤكد هذه التهمة — إن جاز لنا أن نعتبر التشيع تهمة — فالأقرب للعدل أن نعد عواطف ابن الأبار عواطف كل مسلم اتجاه إخوانه المسلمين الذين يتعرضون للظلم و التكيل و التشريد من طرف بعض الأسر الحاكمة ، بصرف النظر عن كون هؤلاء من آل البيت أو من عامة المسلمين ، بل إن المسلمين على مختلف مذاهبهم مطالبون شرعا بحب آل بيت الرسول صلى الله عليه و سلم و إجلالهم و توقيرهم * .

و يظهر من عنوان هذا الكتاب و مضمونه أن ابن الأبار قد ألف كتابه هذا في أواخر حياته خلال إقامته في بجاية ، فقد تكاثرت عليه الأحزان و مزقت نفسه المتألّمة النوائب و تعرض للعقاب و الإبعاد من طرف المستنصر الحفصي ، بإيعاز من حساده و منافسيه بالبلاط ، فكان الدافع لتأليف هذا الكتاب الذي بكى فيه آل البيت ، و تحسر لما نالهم من ظلم و حيف و قتل ، البحث عن العزاء لما أصابه و التخفيف من حدة الأهوال التي نالته ، عن طريق استرجاع مآسي آل بيت الرسول (صلى الله عليه و سلم) .

أما عن نسخ كتاب درر السمط في خبر السبط ، فقد نقل محمد يوسف مقلد كلام صالح الأشر: ((أن نسخة خطية وحيدة وصلت إليه من هذا الكتاب ، تعود

(1) - المقري : نفح الطيب ، ج 4 ، ص 506 .

* - لقوله تعالى : ((... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...)) . ينظر/ القرآن الكريم : سورة الشورى ، الآية : 23 ، برواية حفص عن عاصم .

إلى القرن الثاني عشر الهجري ، و كان السيد عامر غديرة قد حققها و ترجمها للفرنسية و أعدها للطبع ، و قدمها لنيل دبلوم الدراسات العليا في باريس ((⁽¹⁾) .
و يذكر محقق ديوان ابن الأبار ، أنه قام بتحقيق كتاب درر السمط بالاشتراك مع الأستاذ سعيد أعراب ، و سينشره بالدار التونسية للنشر ((⁽²⁾) .

— **الحلة السيرة في شعر الأمراء** : هو كتاب في الأدب و التاريخ و تراجم الأعلام و المشاهير من رجال السياسة الذين عرفوا بقرض الشعر ، و قد وضعه ابن الأبار أثناء عمله في البلاط الحفصي تمجيدا لشاعرية السلطان أبي زكريا و ولي عهده ، و تدليلا على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء و السلاطين و الأمراء ، ترجم فيه لمن عُرف بقرض الشعر من رجالات المغرب و الأندلس .

و يعتني كتاب الحلة السيرة بأخبار المغرب من المائة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة للهجرة ، و تبدأ المائة الأولى بموسى بن نصير ، و تبدأ الثانية بعبد الرحمان بن معاوية (عبد الرحمان الداخل) ، و هكذا وصولا إلى المائة السابعة ((⁽³⁾) .
عرف كتاب الحلة السيرة طريقه إلى المطبعة و النشر ، بعد أن حقق تحقيقا علميا من طرف بعض المحققين المستشرقين أولا ثم من طرف الأساتذة المحققين العرب ، و ذلك ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث عرف طريقه إلى المطبعة و أضيف بذلك إلى رصيد المكتبة العربية مصدرا أدبيا و تاريخيا من أهم نفائس كنوز و ذخائر التراث العربي و الإسلامي .

((و قد نشر بعض المستشرقين تراجم منه ، و أخيرا حققه و نشره الدكتور مؤنس بعنون ((الحلة السيرة)) فقط)) ((⁽⁴⁾) .

(1) - محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 325 .

(2) - بتصرف / ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 20 .

(3) - بتصرف / جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، ج 3 ، ص 77 - 78 .

(4) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 20 .

— تحفة القادم * : هو كتاب في الأدب ألفه ابن الأبار خلال فترة حياته الأندلسية ، يضم تراجم لشعراء الأندلس و شواعرها ، و أراد به التدليل على توقد أدهان أهل الأندلس رجالا و نساء و جودة قريحتهم و ثراء خيالهم في قرض الشعر .

و هو ((كتاب في تراجم الشعراء ، يضم تراجم مائة من الشعراء و أربع من الشاعرات ، من أهل الأندلس ، من رجال القرنين الخامس و السادس ، مع قطع مختارة من أشعارهم و قد وصل إلينا مختصرا لهذا الكتاب ، من عمل أبي إسحاق إبراهيم بن محمد البليقي (المقتضب من تحفة القادم)))⁽¹⁾ .

و يضارع هذا الكتاب في أسلوبه و منهجه و عنوانه ، بعض الكتب التي ألفت قبله ، و منها كتاب زاد المسافر لصفوان بن إدريس المرسي ، كما يعد تكملة له ، ((فلم يكد ينقضي هذا العصر حتى قام أبو عبد الله بن الأبار بتنظيم عمل صفوان بمجموع سماه تحفة القادم موريا بزاد المسافر))⁽²⁾ .

كما يماثل في عدد تراجمه و أسلوب ترتيبها و اقتصارها على أدباء الأندلس دون سواهم ، كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق المسيلي القيرواني ، وهذا ما يذكره ابن الأبار نفسه في خطبة كتابه فيقول : ((فهذا اقتضاب من بارع الأشعار ، بل يانع الأزهار ، قصرته على أهل الأندلس بلدي ، و حصرته إلى من سبق وفاته مولدي ... لأضاهي أنموذج أبي علي ابن رشيق في شعراء القيروان))⁽³⁾

* - التحفة : هي اسم الطعام الذي يقدم للزائر و المسافرين (طعام المسافر) ، و تختلف أسماء الأطعمة باختلاف المناسبات التي تقدم فيها مثل : الوليمة في العرس ، و الخرس عند الولادة ، و العقيقة للمولود عند اليوم السابع من ولادته ، و الوكيرة عند بناء السكن ، و الوضيعة عند الوفاة ، و النقيعة للقادم من السفر ، و العديرة عند الختان ، و المأدبة للضيافة بلا سبب ، و الحداق عند ختم القرآن ، و القرى للضيف ، و النزل لمن يحل بك للضرورة ، و الملاك عند عقد الزواج ... للمزيد ينظر / محمد بن طولون : فص الخواتم فيما قيل في الولائم ، مطبعة دمشق ، ط 1 ، 1983م ، سوريا ، ص 2 و ما بعدها .

(1) - محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 324 - 325 .

(2) - أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي : زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر ، (مقدمة التحقيق) ، ص 6 .

(3) - ابن الأبار : المقتضب من تحفة القادم ، ص 2 .

أما عن مخطوطات كتاب تحفة القادم و تحقيقه و نشره ، فقد ذكر الكثير من الباحثين أن هذا الكتاب لم يتم العثور عليه كاملا ، بل وصل مختصرا بعد أن قام أبو إسحاق إبراهيم البلفيقي باقتضابه خلال القرن الثامن الهجري .

— معجم أصحاب أبي علي الصديقي : هو كتاب ألفه ابن الأبار في تراجم العلماء الأندلسيين الذين كانت لهم صلة بالشيخ أبي علي الصديقي .

وقد عرف هذا الكتاب طريقه إلى النشر ، بعد أن تم تحقيقه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، و قام المستشرق الاسباني فرانشيسكو كوديرا بنشره⁽¹⁾ .

- **مظاهرة المسعى الجميل و محاضرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل :**

هو كتاب لابن الأبار القضاعي أشارت إليه جل المصادر و المراجع التي تحدثت عن حياة ابن الأبار و آثاره التي خلفها ، و قد سلم من الإتلاف و الضياع الذي أصاب جل كتبه ، ((و قد نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ضمن مجموع تحت عنوان « رسائل و نصوص »))⁽²⁾ .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 20 .
(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، الصفحة نفسها .

3- ديوانه :

لم يشتهر ابن الأبار القضاعي بالفقه و التاريخ و الكتابة و الحديث و اللغة ... فحسب ، بل كان — إضافة إلى هذه العلوم و المعارف — أديبا بارعا و شاعرا مُجيدا ، و قد أشارت جل المصادر القديمة إلى ذلك و أوردت له بعض القصائد و المقطعات في مختلف الأغراض التقليدية المعروفة ، و بالرغم من إسهاب هذه المصادر في الحديث عن مؤلفات ابن الأبار إلا أن معظمها لم يشر صراحة إلى أن له ديون شعر مجموع ، كما أن الدراسات الحديثة التي دارت حوله و أولت حياته العلمية أهمية كبيرة ، لم تتحدث عن وجود ديوان لابن الأبار، فقد ذكر عبد السلام الهراس قائلا : ((لم يشر أي باحث من المحدثين ممن اهتموا بابن الأبار و كتبوا عنه إلى أن له ديوان شعر))⁽¹⁾.

و بقي أمر وجود ديوان شعر لابن الأبار من عدمه معلقا ، إلى أن تم العثور على نسخة مخطوطة منه من طرف بعض الباحثين في الخزانة الملكية بالمغرب ، ((فعندما حظيت الخزانة الملكية بالتنظيم اكتشف القائمون عليها و في مقدمتهم الأخ الأستاذ المحقق محمد المنوني كنوزا نادرة من تراثنا المغربي الأندلسي و العربي ، و من أهم ما اكتشف «ديوان ابن الأبار» و المخطوط مسجل تحت رقم 4602))⁽²⁾ . ثم يصف عبد السلام الهراس مخطوط ديوان ابن الأبار و هي النسخة الوحيدة منه التي تم العثور عليها بقوله: ((و هو سفر متوسط الحجم يحتوي على 222 صفحة ... أصيب ببتر في الصفحات الأولى ... و هو مرتب على الحروف الهجائية حسب الترتيب المغربي و الأندلسي * ... و خط هذا الديوان أندلسي حسن ،

(1) - المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 21 .

(2) - المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 22 .

* - الترتيب المغربي و الأندلسي للحروف الهجائية هو : أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، ط ، ظ ، ك ، ل ، م ، ن ، ص ، ض ، ع ، غ ، ف ، ق ، س ، ش ، هـ ، و ، ي . ينظر/ المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 22 .

به كثير من التصحيف و التحريف زيادة على الخروم و التآكل ، و الديوان خال من تاريخ النسخ و اسم الناسخ ((⁽¹⁾).

أما عن تحقيق ديوان ابن الأبار ، فقد قام الأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس ، أستاذ الأدب الأندلسي بكلية الآداب جامعة الملك سيدي محمد بن عبد الله بمدينة فاس المغربية ، بتحقيقه و إنجاز دراسة فيه ، من خلال أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه سنة (1966م) من كلية الآداب بمدير (2).

و في سنة (1986م) قام الباحث نفسه بتقديم الديوان إلى النشر بالدار التونسية للنشر ، و في السنة نفسها أعيد نشره من طرف دار النشر السابقة ، بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر في طبعته الثانية ، و جاء في شكله و محتواه كما يأتي :

يقع ديوان ابن الأبار في طبعته الثانية سنة (1986م) على مساحة ورقية تقارب (500 صفحة) من القطع المتوسط ، و يضم مقدمة و متن و فهرس فنية .
— المقدمة : تبدأ من الصفحة 5 و تنتهي عند الصفحة 30 ، و تحتوي على مقدمة منهجية ، متبوعة بتعريف موجز لابن الأبار القضاعي صاحب الديوان ، و وصف للمخطوط و مراحل التحقيق و بعض جوانبه الفنية .

— متن الديوان : يبدأ من الصفحة (33)، و ينتهي عند الصفحة (469) ، و يتضمن : القصائد ، و المقطعات ، و النثف ، و الأبيات المفردة الموجودة في المخطوط الوحيد للديوان ، و الذي اعتمد عليه في التحقيق ، و تبدأ من الصفحة (33) و تنتهي عند الصفحة (433) ، كما يتضمن المتن — أيضا — ملحقين اثنين ، يحتوي الأول على (39) بين قصيدة و مقطعة و نثف و بيت مفرد ، من الصفحة (437) إلى الصفحة (462) ، و جمع المحقق في هذا الملحق شعر ابن الأبار الذي أوردته مختلف المصادر المطبوعة و المخطوطة ، و يحتوي الملحق الثاني على

(1) - المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 22 .

(2) - بتصرف/المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 22 - 25 .

قصيدتين فقط ، و يبدأ من الصفحة(465) و ينتهي عند الصفحة(469) ، و توجد القصيدتان في الورقتين المضافتين إلى مخطوطة الديوان ، و قد شكك المحقق في نسبتيهما إلى ابن الأبار ، الأمر الذي دفعه إلى إفرادهما بملحق خاص هو الملحق الثاني .

— الفهارس الفنية : و تبدأ من الصفحة(473) و تنتهي عند الصفحة(496) ، و تنقسم إلى ثلاثة فهارس هي :

فهرس القصائد حسب القوافي (و حسب ورودها في الديوان) .

فهرس القصائد حسب الأغراض الشعرية ، وهي كما يلي : المديح ——— و الاستتجاد و الاستعطاف ، الوصف ، الغزل ، الذكريات و الأشواق و الشؤون ، الهجاء ، الألغاز ، الرثاء ، الحكم و الزهد و النبويات .
فهرس القصائد حسب البحور الخليلية .

4- مدائحه في البلاط الحفصي :

جاء المدح في ديوان ابن الأبار القضاعي ممتزجا بالاستتجاد و الاستعطاف ، وقد دعت إليهما الأحداث السياسية المأساوية التي عاشتها الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و اکتوى بنارها المسلمون في الأندلس و بلاد المغرب ، و ناله من لفحها و لظاها عننا كبيرا .

لقد قصر ابن الأبار مدائحه على الحكام الحفصيين ، و خاصة السلطان أبي زكريا الذي أقام دعائم الدولة الحفصية و استقل عن دولة الموحدين ، و باستثناء قصائد المدح رقم (54 ، 113 ، 152 ، 168) ، و القصائد رقم (7 ، 8 ، 32) الموجودة بالملحق الأول ، فإن بقية قصائد الديوان في هذا الغرض كانت في مدح الأسرة الحفصية الحاكمة .

إن الغرض من تحديد شعر المديح بديوان ابن الأبار الذي قيل خلال فترة إقامة الشاعر بالبلاط الحفصي و الذي اقتصر على مدح الأسرة الحفصية الحاكمة ،

و فصله عما عداه من المدائح التي قيلت خلال إقامة الشاعر بالأندلس ، و تناولت مدح بعض حكامها ، فالغرض من ذلك هو محاولة حصر المدونة الشعرية التي سيتطرق لها البحث بالدراسة و التحليل و تحديد أبعادها بدقة ، و تتمثل في قصائد المديح عند ابن الأبار التي قيلت في البلاط الحفصي و كانت مقصورة على مدح الأسرة الحفصية الحاكمة دون سواهم .

الفصل الثاني

موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي

أ - توطئة نظرية

ب - الموضوعات

1 - المدح بالمجد

2 - المدح بالشجاعة

3 - المدح بالكرم

4 - المدح بالعدل

5 - المدح بشرف النسب

6 - المدح بالنجدة و الإغاثة

7 - المدح بالحلم

8 - المدح بالعلم

9 - المدح بالدين و الورع

احتلت قصيدة المديح القسم الأكبر من ديوان ابن الأبار القضاعي ، حيث قصر شعره — إلا قليلا — على مدح حكام الدولة الحفصية الذين قربوه منهم و أنزلوه من بلاطهم المنزلة العالية ، فلم يتوان في الإشادة بفضائلهم و التغني بمحامدهم و شكر نعمهم عليه و وصف وقائعهم و بطولاتهم ، و لم يخرج الشاعر في مدائحه للحفصيين عن الصفات و الموضوعات المفضلة في قصيدة المديح العربية ، و التي حددها النقد القديم و أوضح مسالكها ، مستندا في ذلك إلى الإرث الشعري العربي الكبير ، و تلك التقاليد الفنية الراسخة في هذا المجال ، مستلهما لها مغترفا من معينها ، و من هذه المثل العليا التي حفلت بها قصيدة المديح العربية في معظم مراحلها التاريخية نذكر : المجد ، الكرم ، الشجاعة ، العدل ، النسب الشريف ، الحلم ، النجدة و الاغاثة ، العلم ، الدين و الورع ... مع التركيز على الصفات النفسية للممدوح ، التي من شأنها أن تعلي من قدره و ترفع من مكانته في سماء المجد و الفضيلة .

موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي :

أ - توطئة نظرية :

ذكر أصحاب المعجمات العربية بألفاظ مختلفة و معانٍ مؤتلفة ، أن المدح هو الثناء الحسن و تعداد لخصال ومحامد الممدوح و تقريض لها و تتويه بفضائله و محاسن صفاته ، ومن ذلك ما جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي (ت711هـ / 1311م) قوله : ((المدح : نقيض الهجاء و هو حسن الثناء ؛ يقال مدحته مدحة واحدة و مدحه يمدحه مدحا و مدحة... و الجمع مدح ، و هو المديح و الجمع المدائح و الأماديح))⁽¹⁾ .

و لم يبتعد مرتضى الزبيدي (ت1205هـ / 1790م) عن هذا المعنى ، فقد ذكر في معجمه : ((مدحه يمدحه مدحا و مدحة... أحسن الثناء عليه ، و نقيضه

(1) - أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب المحيط ، تقديم/عبد الله العلابي ، إعداد و تصنيف/ يوسف خياط و نديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1970م ، مادة (مدح) ج 3 ، ص 452 .

الهجاء ... و المدح بمعنى الوصف الجميل ، يقابله الذم ، و بمعنى عد المآثر — و يقابله الهجو ... ومدحته مدحا أثبت عليه بما فيه من الصفات الجميلة خلقية كانت أو اختيارية ، و لهذا كان المدح أعم من الحمد .

قال الخطيب التبريزي : المدح من قولهم انمدحت الأرض إذا اتسعت ، فكأن مدحته : وسعت شكره ((⁽¹⁾).

كما تعرضت كتب الأدب و معجمات المصطلحات الفنية و الأدبية في ثنايا صفحاتها ، لمفهوم المديح من الوجهة الاصطلاحية بالدراسة و التحليل ، و من تلك المؤلفات ما جاء في كتاب المديح : ((المدح فن الثناء و الإكبار و الاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل لجونب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواح عديدة من أعمال الملوك ، و سياسة الوزراء ، و شجاعة القواد ، و ثقافة العلماء ، فأوضح بذلك بعض الخفايا و كشف عن بعض الزوايا ، و أضاف إلى التاريخ — صادقاً أو كاذباً — ما لم يذكره التاريخ ؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات و الألوان لم تكن تعلم لولاه . و زاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية ، و رفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام ، و أغفل زملاء لهم كانوا أحق بالذكر و أجدر بالشهرة ، و لكنها الحظوظ يوزعها الشعراء ، فينال الثناء بعضاً و يحرم بعضاً ... و لذلك كان المديح في حضارتنا كالبرقيات التاريخية تشير إلى الأحداث و لا تسهب في تحليلها ، شأن الشعر دائماً))⁽²⁾ .

و المدح من الأغراض التقليدية التي راجت في الشعر العربي ، بل إن قصيدة المديح لها مكانة متميزة بين أغراض الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، و ذلك لكثرة دوافعها و وفرة دواعيها ، و لما تحدثه من أثر على الشاعر و الممدوح معا ، فهي عد لمآثر الممدوح و تغني بخصاله الرفيعة و فضائله الكريمة ، يرفعه

(1) - محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، مصر ، ط 1 ، 1306هـ ، مادة (مدح) ، ج 2 ، ص 220-221 .

(2) - سامي الدهان : المديح ، دار المعارف ، مصر ، ط 4 ، 1984 م ، ص 5 .

الشاعر إلى فرد أو جماعة ، اعترافا بالجميل ، أو طلبا للمكافأة ، أو رغبة في الصفح و اعتذارا من الزلة .

و يتحدث شوقي ضيف عن كثرة المديح في الشعر العربي القديم فيقول :
((يعد المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربي على مر العصور ،
و قد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغني بطولات فرسانهم و شجعانهم في
الحروب و مكارم سادتهم و خصالهم الحميدة في السلم و الحرب ، و ظل لكل
عصر أبطاله و سادته و أمراؤه و حكامه ، و تفنن الشعراء في وصف البطولات
الحربية و الخصال الكريمة و حكم الخلفاء و الحكام العادل الرشيد على مدى
العصور الإسلامية المتعاقبة))⁽¹⁾ .

و لعل البيئة و طبيعة الحياة العربية قديما ، كان لها الدور الكبير في انتشار
غرض المديح في الشعر العربي أكثر من بقية أغراضه الأخرى .

((إن العوامل التي تدعو إلى المدح كثيرة ، منها النظام القبلي الذي يستدعي
الإعلاء من شأن الزعماء و الأبطال ، و منها الإشادة بالمروءات ، و منها تمجيد
الأحلاف التي كانت تتم بين القبائل ، و منها طمع الشاعر في الكسب و رغبة
الممدوح في المدح ، و منها قيمة الشعر و مكانته الفنية و الإعلامية و الاجتماعية
و الحربية))⁽²⁾ .

و المدح غرض شعري يتوجه به الشاعر إلى الأفراد و الجماعات الأحياء ،
فإذا توجه إلى الأموات صار رثاء ، و ذكر ابن رشيق (ت456هـ-1064م) أن
المديح ركن من أركان الشعر الأربعة و هي : المدح و الهجاء و اللهو و الحكمة ،

(1) - شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 120 .

(2) - علي عالية : شعر الفلاسفة في الأندلس — في القرنين الخامس و السادس الهجريين — ، مخطوطة رسالة
دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة باتنة ، 2004 - 2005م ، ص 15 .

و يتفرع عن هذه الأركان فروعاً كثيرة ، فمن فروع المديح تكون المراثي و الشكر و الافتخار...⁽¹⁾.

لقد تبوأ الشعر منزلة سامية من نفوس العرب و تهَيَّبُوهُ ، فقصروه على تمجيد القبيلة و التغني بمآثرها و وقائعها و أيامها المشهورة ، و مدح أبطالها و سادتها و ذوي الفضل منها ، و لا يخرج الشعر عن ذلك إلى مدح غيرها إلا يسيراً .
و لم يكن العرب يتكسبون بالشعر ، لأن ذلك من شأنه أن يبخل من قيمته و يزرى بقدرة في نفوسهم و يحط من مكانة قائله عندهم ، إلا أن هذه الحال لم تلبث إلا قليلاً حتى تراجعت و أصابها الفتور ؛ فقد وُجِدَ من الشعراء من تخلى عن هذا الالتزام و خالف هذا المبدأ ، فتكسب بمذائحه و سعى جهده للحصول على الهدايا و المكافآت من الممدوحين على اختلاف منازلهم و بعد مواطنهم ، فقد كان الشاعر منهم يتجشم عناء الرحلة و يقطع المسافات الطوال عابراً المفاوز الموحشة قاطعاً الفجاج العميقة و الوديان المخيفة ، طالباً للمغانم أملاً في تحصيل رغد العيش و ملذات الحياة .

((و كانت العرب لا تتكسب بالشعر ، و إنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاكة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها... حتى نشأ النابغة الذبياني ؛ فمدح الملوك ، و قبل الصلة على الشعر ، و خضع للنعمان بن المنذر ، و كان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، و تكسب مالا جسيماً ، حتى كان أكله و شربه في صحاف الذهب و الفضة و أوانيه من عطاء الملوك .

و تكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر يسيراً مع هرم بن سنان . فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان ، و قصد حتى ملك العجم فأثابه و أجزل عطيته علماً بقدر ما يقول عند العرب و اقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم

(1) - بتصرف/ أبو الحسن بن رشيق : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، طبعة/ الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، 2007م ، ج 1 ، ص 121 .

يحسن عنده حين فسر له ، بل استهجنه و استخف به ، لكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب))⁽¹⁾ .

لقد بدأت ظاهرة التكسب بالمديح و استجداء الملوك و الأمراء بالشعر مبكرا مع الشعراء الفحول في العصر الجاهلي ، و كان النابغة سباقا إلى سنّ هذا الأمر في تاريخ الشعر العربي ، فقد كان دائم التردد على بلاط المناذرة حينا و الغساسنة حينا آخر كثير التودد إليهم ، و قد حدا حدوه الشعراء من بعده .

((و هكذا سن النابغة للشعراء سنن المديح الرسمي حين يتطلعون إلى الملوك ، فقال في مليكه إنه بحر طامي الجود ، و إنه ليل يبسط رداءه على الوجود ، و إنه شمس بين الكواكب ، و إنه ربيع ينعش النفوس كما ينعش المطر الأرض الظمأى ، و إنه سيف بتار مهيب ، و لذلك قال النقاد إنه أول الاحتراف في المديح ، و رأى فيه بعضهم صحافيا لعصره يعير قلمه لكل من يجود عليه أو يحمي حماه ، أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمديحه و يصوره في احترام و حب و خوف و فخامة ، و يجعله فوق الناس و أعلى الملوك))⁽²⁾ .

لقد أنكر القرآن الكريم على الشعراء هذه الفعلة ، و قبح هذا المسلك و نعى على الشعراء العاكفين عليه ، فقد اتخذ بعضهم منهجا في الحياة و وسيلة للتكسب و العيش ومصدرا للثراء ، سواء كانت تلك الصفات التي يصفونها على الممدوح حقيقة أم إدعاء و تليفقا ، و لسان حالهم يردد : الغاية تبرر الوسيلة* .

((أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد و الرأي السديد و الشجاعة الفائقة و الكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة ... لذلك أثنى على الرجال المتفوقين و الشجعان المشهورين و القواد العظماء و الرؤساء المسودين ،

(1) - المصدر السابق : ج 1 ، ص 80 - 81 .

(2) - سامي الدهان: المديح ، ص 16 - 17 .

* - قال الله تعالى : ((وَ الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)) ينظر/ القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، الآية : 224 - 226 .

و امتدح المثل العليا التي رآها عندهم ((⁽¹⁾).

لقد كان الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، مضمارا مناسباً للقيم العليا التي يحرص الإنسان على التمسك بها و العمل على تمثلها في حياته ، باعتبارها فضائل تعلي من شأن الإنسان و تحفظ له كرامته و إنسانيته ، هذه القيم و الصفات الرفيعة التي ضمنها الشعراء قصائدهم منذ القديم .

و قد تحدث العقاد عن هذه القيم و الصفات و عن دور الشعر في الاحتفاظ بها و الحث على تمثلها في حياة الأفراد و الجماعات ، فقال : ((و إلى الشاعر يرجع العربي ليتعرف القيم الأخلاقية المفضلة ، و يستقصي المناقب التي تستحب من الإنسان في حياته الخاصة أو حياته الاجتماعية ، يرجع العربي إلى الشاعر و لا يرجع إلى الفيلسوف أو إلى الزعيم أو إلى الباحث في مذاهب الأخلاق ... ففي الشعر العربي تنويه بكل صفة من صفات المروءة و الفتوة ، و إزراء بكل عيب من العيوب التي تشين صاحبها بين قومه ، و بيان واف للأخلاق التي تحكم الحياة فعلاً أو ينبغي أن تحكمها))⁽²⁾ .

و قد يكون المديح تمجيذا لقيم إنسانية رفيعة تتجسد في سلوك الممدوح ، سواء كان قائداً أو أميراً أو شخصية دينية أو تاريخية فذة ، مثل الرسول محمد — صلى الله عليه و سلم — الذي دأب الشعراء على مدحه منذ حسان بن ثابت إلى أحمد شوقي⁽³⁾ .

فليس قصد الشاعر من المدح الأشخاص في حد ذاتهم ، بقدر قصده إلى إعلاء شأن بعض القيم السامية التي يتصفون بها ، فما الممدوح سوى نموذجاً عالياً مجسداً بسلوكه تلك القيم الرفيعة التي يحرص الشاعر على نشرها و حسن تمثلها و التحلي بها من طرف كل أفراد القبيلة .

(1) - سامي الدهان: المديح ، ص 14 .

(2) - عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ، مكتبة غريب ، القاهرة ، 1988م ، ص 98 .

(3) - بتصرف / نور الدين السد : الشعرية العربية - دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي — ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م ، ص 413 .

و قد عرفت هذه القيم التي تغنى بها الشاعر العربي في شعره ، تطورا
و تغييرا تبعا للتطورات السياسية و الاجتماعية و الدينية التي تسود عصرا
و تتراجع عصرا آخر ، فهي تخضع لروح العصر و معتقدات أهله ، و العامل
الحاسم في تغيير القيم التي تبناها الشاعر العربي قديما و تغنى بها في شعره ، هو
الدين الإسلامي الحنيف الذي آمن به و اعتقده بصدق و تقان .

((فقد كان هذا الدين الجديد في حقيقته ثورة جارفة على ما كان يسود الحياة
العربية من عقائد و نظم ، جاء ليقتلها و ليحل غيرها محلها . و كان لا بد له في
ذلك أن يهدر ما كان للعرب في جاهليتهم من قيم يحرسون عليها ، و مثل نفسية
و اجتماعية يؤمنون بها ، و قد كانت الشاعرية العربية أقوى معبر عنها))⁽¹⁾ .

لقد تراجعت بعض القيم الجاهلية التي كان يطلقها الشاعر على الممدوح
باعتبارها فضائل و مفاخر العربي في جاهليته من مثل : الفتوة و شرب الخمر
و المقامرة و الغزو و الإغارة على القوافل و التهالك على ملذات الحياة ، فأصبحت
هذه القيم و الصفات مذمومة في العهد الإسلامي ؛ لأن الدين يحرمها و يعد المتصف
بها جاحدا لحدود الدين خارجا عن توجيهاته و ضوابطه⁽²⁾ .

((و الرسول الكريم كان يوجه الشعراء إلى أن يتمثلوا في شعرهم المفاهيم
الإسلامية و القيم الجديدة ، لأن الإسلام كان ثورة غيرت كثيرا من نظم الجاهلية
و مفاهيمها ، و أقامت مثلا و قيما جديدة))⁽³⁾ .

لقد استجاب الشعراء للقيم الرفيعة التي جاء بها الإسلام ، و تمثلوا في شعرهم
قيمه العالية و تخلوا عن بعض القيم التي كانت سائدة من قبل ، فقد توقف الشعراء
عن المدح بالصفات التي تتناقض مع مبادئ الإسلام و تخالف أوامره و نواهيه ،
غير أن استجابتهم كانت متفاوتة من شاعر لآخر و من فترة لأخرى ، و المتفحص

(1) - محمد طه الحاجري : في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية - العصر الجاهلي و القرن الأول الإسلامي -
دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، 1982م ، ص 48 .

(2) - بتصرف/ نور الدين السد : الشعرية العربية ، ص 414 .

(3) - فايز ترحيني : الإسلام و الشعر ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط 1 ، 1990م ، ص 90 .

لمتون الشعر العربي عامة و قصيدة المديح خاصة في المرحلة الإسلامية ، يدرك بجلاء التغير الذي طرأ على موضوعات المديح في القصيدة العربية .

و أشار الكثير من الدارسين لتراثنا الأدبي منذ القديم إلى أهم الموضوعات التي تناولتها قصيدة المديح ، فابن طباطبا العلوي (ت322هـ / 934م) يعدد الفضائل و الصفات التي مدحت بها العرب في الشعر فيقول : ((و أما ما وجدته في أخلاقها و تمدحت به و مدحت به سواها ، و ذمت من كان على ضد حالها فيه فخلال مشهورة كثيرة منها : في الخلق و الجمال ، و البسطة ، و منها في الخلق ، و السخاء ، و الشجاعة ، و الحلم ، و الحزم ، و العزم ، و الوفاء ، و العفاف ، و البر ، و العقل ، و الأمانة ، و القناعة ، و الغيرة ، و الصدق ، و الصبر — و الورع ، و الشكر ، و المداراة ، و العفو ، و العدل و الإحسان ، و صلة الرحم ، و كتم السر ، و المواتاة ، و أصالة الرأي ، و الأنفة ، و الدهاء ، و علو الهمة ، و التواضع ، و البيان ، و البشر ، و الجلد ، و التجارب و النقص ، و الإبرام))⁽¹⁾ .

غير أن قدامة بن جعفر (ت337هـ / 948م) يرى أن المدح يجب أن يقتصر على الفضائل و الصفات النفسية دون الصفات الحسية ؛ لأن الناس — حسبه — ينبغي أن تتفاضل من حيث هم ناس لا من حيث ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، و حصر هذه الفضائل في أربع هي : العقل و الشجاعة و العدل و العفة ، ثم فرع من هذه الفضائل الأربعة ، فضائل و صفات ناتجة من تركيب الفضائل السابقة الذكر مع بعضها البعض ، فمن فضيلة العقل تنتج : الذكاء و البهيمية و السياسة و العلم و الحلم و غير ذلك مما يجري في هذا المجرى ، و إذا ركب العقل مع الشجاعة نتج عن ذلك صفات ؛ مثل الصبر على الملمات و نوازل الخطوب ، و الوفاء ، و الإيعاد ، و غيرها مما هي على شاكلتها⁽²⁾ .

(1) - ابن طباطبا العلوي : عيار الشعر ، تحقيق/عبد العزيز بن ناصر المنع ، دار العلوم للطباعة و النشر ، الرياض ، 1985م ، ص 17 .

(2) - بتصرف/ قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق/ كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 3 ، 1979م ، ص 98 - 99 .

فالممدوح يجب أن يركز على الفضائل المعنوية و النفسية التي يتصف بها الممدوح ، فهي وحدها كفيلة بأن تعلي قدره و تخلد ذكره و تجل أمره ، و أن يبتعد عن المدح بالصفات الجسمية التي يمكن للحيوان أن يشاركه فيها و يقاسمه إياها فإنسانيته تتحقق بمناقبه و شمائله النفسية أكثر من تحقّقها بجسمه و صفاته الحسية* .

((و من المناقب التي مدحوا بها : الكرم ، و الشجاعة ، و الوفاء بالعهد و المنعة ، و تأمين الخائف ، و نجدة المستغيث ، و التكيل بالعدو ، و عدم الاعتداء على الأقارب ، و السعي في الصلح بين المتخاصمين ، و بذل الأموال لتحقيق السلام ، إلى غير ذلك من الفضائل التي من شأن النفس الإنسانية ، و لعل هذه الفضائل و المحامد تتناسب و المجتمع العربي في العصر الجاهلي باعتباره مجتمع فروسية ، تطورت فيه القيم الاجتماعية إلى تقاليد قبلية يحرص عليها المجتمع))⁽¹⁾ .

و ذكر صاحب العمدة متحدّثا عن الفضائل و الصفات التي كانت محببة لدى الشعراء و الممدوحين معا فقال : ((و أكثر ما يعول على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية : كالجمال ، و الأبهة ، و بسطة الخلق ، و سعة الدنيا ، و كثرة العشيرة ، كان ذلك جيدا ، إلا أن قدامة قد أبى منه ، و أنكره جملة ، و ليس ذلك صوابا ، و إنما الواجب عليه أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف و أصح ، فأما إنكار ما سواها كرة واحدة فما أظن أحدا يساعده فيه ، و لا يوافقه عليه))⁽²⁾ .

فابن رشيق القيرواني يرى أن المدح بالصفات النفسية أشرف و أجل ، غير أنه لا ينكر على الشعراء المدح بالصفات الحسية ، و إن كان لا يقدمها ، مخالفا في هذا ما تواضع عليه بعض نقاد عصره و من سبقوه .

* - قال أحد الشعراء : أيا خادِمَ الجسمِ كم تشقى لخدمته أتطلبُ الرِّيحَ ممّا فيه خسران؟ أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

(1) - علي عالية : شعر الفلاسفة في الأندلس (في القرنين الخامس و السادس الهجريين) ، مخطوطة رسالة دكتوراه ، ص 14 - 15 .

(2) - ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر و نقده ، ج 2 ، ص 135 .

و هذا الموقف لا يُستغرب من ابن رشيق ، الذي عرف بالوسطية و الاعتدال في أغلب القضايا النقدية التي أدلى بدلوه فيها ، و يمكن أن نلتمس من القرآن الكريم ما يعزز موقفه في صحة المدح بالصفات الحسية إلى جانب الصفات النفسية* .

لقد تبنى الشعراء هذه الموضوعات التي حددها النقاد ، و استجابوا لها ، لأثرها الحسن في نفس الممدوح و قدرتها في دغدغة عواطفه و بسط يده بالبدل و العطاء . و لم تختلف قصيدة المديح في المغرب و الأندلس عن نظيرتها في المشرق ، لا في لغتها و معانيها و أساليبها و لا في موضوعاتها ، و هذا التشابه أمر طبيعي ؛ فالشعراء في المشرق و المغرب ينتسبون إلى لغة واحدة و ينهلون من إرث أدبي مشترك ، فتوحدت أذواقهم و تناغمت مشاعرهم ، و لم يختلفوا إلا في تلك الخصائص التي تمنحها البيئة و تلونها الأحداث .

و يشير عمر الدقاق إلى التشابه القائم بين الشعر المشرقي و الشعر المغربي و الأندلسي موضحا أسباب ذلك بقوله : ((أثر شعراء الأندلس أمدا طويلا أن يعيشوا في أجواء المحافظة ، جاهدين في الالتصاق بالموضوعات التقليدية . لقد اغتربوا راضين أو مكرهين ، مخلفين وراءهم وطنا و أهلا و صحبا . و لم يكن ذلك عليهم بهين ، كما لم يكن من اليسير عليهم أن ينسلخوا مما كانوا فيه من طباع و عادات و أخلاق ، و من مفاهيم و مبادئ و مثل ... و هكذا كان من الطبيعي أن يصدر الأندلسيون في موطنهم القصي عن أدب مشابه لأدب أرومتهم في المشرق ، أدب يتسم بطابع المحافظة و يعبق بسمات الأصالة))⁽¹⁾ .

و يعلل محمد مرتاض التشابه الحاصل بين المشرق و المغرب في الأدب قائلا : ((لا نريد أن نبتر الصلة التي تربطه بنظيره في المشرق العربي ، لأن الأصرة قائمة ، و الوشيجة ماثلة ، أضف إلى ذلك أن القريحة العربية — و إن

* - لقد وصف الله تعالى طالوت و أثنى عليه بصفات حسية و أخرى نفسية على لسان أحد أنبيائه إلى بني إسرائيل ، فقال عز و جل : ((وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ يَأْتِي مَلَكُهُ مِنْ بَيْنَاءٍ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) . سورة البقرة ، الآية 247 .

(1) - عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق العربي ، بيروت ، 1973م ، ص 43 .

تباعدت سكتا — فإنها تتشابه إنتاجا بسبب ما يطبع البيئة و العقلية و الحضارة العربية التي تستمد ضياءها من هموم مشتركة ، و من عادات و تقاليد تكاد تتماثل ما بين الشرق و الغرب))⁽¹⁾ .

إن هذه الوشائج القوية و تلك الروابط المتصلة بين طرفي العالم الإسلامي المترامي الأطراف — مشرقه و مغربه — هي التي تبرر هذا التشابه الحاصل في الشعر العربي في معظم جوانبه الفنية و الموضوعية بهذين الإقليمين من العالم الإسلامي ، و هو أمر طبيعي يمكن تبريره بحتمية التشابه القائم بين الأصل و فرعه)) فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم و كان الشعراء يعنون بالاستهلال و حسن التخلص ، و ربما جعلوا صدور مدائحهم وصفا للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر أو للمرأة التي أحبها ، و قلما شذ بعضهم عن هذا السبيل ، كما وصفوا الفلاة و الناقة و الجواد و وقفوا على الديار و الأطلال و لكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا و يستفيضوا فيه . و لم يغرقوا في استعمال الغريب))⁽²⁾ .

و ما يقال على الشعر الأندلسي ينسحب تلقائيا على الشعر المغربي ، فالأندلس و المغرب يشكلان إقليما واحدا لا يتجزأ ، و أن الأندلس قد خضعت للدول التي قامت في المغرب في معظم الفترات التاريخية للتواجد العربي و الإسلامي بها ، بالإضافة إلى حركة التنقل الكثيفة لأدباء و شعراء المغرب و الأندلس نحو كلا الإقليمين ، كما أن كتب التاريخ و الأدب كثيرا ما تعم تسمية الأندلس لتشمل بلاد المغرب و العكس صحيح .

فقد تبنى الشعراء المغاربة و الأندلسيون في مدائحهم تلك القيم و الفضائل التي ما فتئ النقاد يرددونها مشرقا و مغربا ، و كانت هذه الصفات بمثابة المجال الأملئ التي دارت فيه قصيدة المديح ، و شكلت لحمتها و سداها .

(1)- محمد مرتاض : النقد الأدبي القديم في المغرب العربي — نشأته و تطوره — (دراسة و تطبيق) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000م ، ص 31 .

(2)- جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، 1980 ، ص 114 .

((و لعلنا لا نجد شعراء الأندلس في تلك الحقبة يتجاوزون هذه الصفات السابقة إلى غيرها من الصفات الحسية ... و إدراكهم أن القيم التي ينبغي أن يعول عليها في المفاضلة بين ممدوحهم إنما هي القيم المعنوية و النفسية و العقلية التي سرعان ما تتحول من خلال ربطها بشخص الممدوح إلى نماذج قيمية تبقى و تخلد ، و لا تزول أو تفنى بسقوط الأشخاص أو زوال ملكهم))⁽¹⁾ .

و لم يخرخ ابن الأبار القضاعي — بوصفه شاعرا أندلسيا ولادة و مغربيا وفادة و وفاة — في مدائحه بالبلاط الحفصي عن التقاليد العربية المتوارثة التي رسخها الشعر العربي خلال مساره الطويل ، و أعلى من شأنها النقد القديم ، و بخاصة تلك الموضوعات الأثرية في نفس العربي سواء كان شاعرا أو متلقيا ، و من هذه الموضوعات و الصفات : الشجاعة و الكرم و المجد و الحلم و النجدة و الدين و ما أشبه ذلك .

(1) - أشرف محمود نجا: قصيدة المديح في الأندلس - قضاياها الموضوعية و الفنية عصر الطوائف - دار الوفاء ، مصر ، ط 1 ، 2003م ، ص 43 .

ب - الموضوعات :

1 - المدح بالمجد :

من الصفات التي وسم بها ابن الأبار القضاعي في شعره ممدوحيه من الأسرة الحفصية الحاكمة ، انتسابهم إلى المجد و انتساب المجد إليهم ، فمجدهم قد سما على الكواكب النيرة ، و أفعالهم و أقوالهم إنما تهدف إلى تحقيق أمجاد جديدة تضاف إلى الأمجاد التليدة التي حققها آبائهم من قبل ، فهم قد ورثوا المجد أبا عن جد و كابرا عن كابر فسادوا الناس و شادوا الممالك و سموا على الملوك و ارتفعوا على الكواكب ، و لا غرو في ذلك فما حققوه من عز و ما بلغوه من مدنية يشهد لهم بالمجد و السؤدد .

يقول ابن الأبار مادحا السلطان أبا زكريا الحفصي بمناسبة تقليد ابنه أبا يحيى إمارة بجاية سنة (638هـ) :

مَلِكٌ أَنْافَ عَلَى الْمُلُوكِ مَحَامِدًا وَ مَحَاتِدًا وَ مَنَاسِبًا وَ مَنَاصِبًا
تَنْمِيهِ أَبَاءَ كِرَامٍ لِلْعُلَى كَثُرُوا النُّجُومَ مَقَانِبًا وَ مَنَاقِبًا
بَيْتُ الْإِمَارَةِ بَيْتُهُ وَ بِحَسْبِهِ حَسْبًا يُشَقُّ عَلَى النَّوَاقِبِ ثَاقِبًا (1) .

يصف ابن الأبار القضاعي في هذه الأبيات ممدوحه — السلطان أبا زكريا الحفصي — بالرفعة و المجد الذي يفوق أمجاد غيره من الملوك و السلاطين ، فأفعاله التي يحمد عليها كثيرة ، و آثاره مشاهدة للجميع ، فلا ملك يدانيه رفعة في المنصب و لا يقاربه في النسب الشريف ، و أنى لا يتأتى له هذا المجد و تتحقق له هذه الرفعة و هو سليل أسرة قد ورثت المجد كابرا عن كابر ، فأبأؤه فوق عدد

* - مقانبا: هي الكتيبة من الجيش ، و المقنب من الخيل : مابين ثلاثين إلى أربعين ، و قيل : زهاء ثلاثمائة ، و في حديث عمر - رضي الله عنه - و اهتمامه بالخلافة ، فقد ذكر له سعد حين طعن ، فقال : ذاك إنما يكون في مقنب من مقانبكم ، و المقنب بالكسر : جماعة الخيل و الفرسان ، و قيل هي دون المائة ؛ يريد أنه صاحب حرب و جيوش . للمزيد ينظر / ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (قنب) ، ج 1 ، ص 168 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 69 .

النجوم و مناقبهم و صفاتهم لا تعرف الأفول ، بل إن نسب الممدوح ليسمو و يرتفع كالنجم فوق سائر نجوم السماء جميعا .

و قال من قصيدة أخرى على روي العين من بحر الكامل ، يمدح الخليفة المستنصر الحفصي و يهنئه بالشفاء من مرضه و يسترضيه و ذلك سنة (657هـ) :

مَلِكٌ تَقَدَّسَ فِي الْمُلُوكِ مَقَامُهُ فُخَصَّائِصٌ مَلَكِيَّةٌ وَ طَبَائِيعُ
أَضْحَى لَهُ شَرَفُ الْكَمَالِ مُسَلِّمًا هَيْهَاتَ مَا فِي الْعَالَمِينَ مُنَازِعُ
فِي الْمُؤْنِقِينَ: رُؤَايَاهُ وَ ثَنَائِهِ مَا تَشْتَهِيهِ نَوَاطِرُ وَ مَسَامِعُ
فَرَعَ الْكَوَاكِبَ فِي التَّرْقِيِّ بَيْتُهُ لِلَّهِ بَيْتٌ لِلْكَوَاكِبِ فَرَعُ⁽¹⁾ .

يمدح ابن الأبار الخليفة الثاني للدولة الحفصية ، معددا مناقبه و شمائله ، فمقام ممدوحه أعلى من أن يبلغه غيره من ملوك الأرض ، فخصائص الملك و صفات السيادة مقصورة عليه ، فقد كمل الممدوح فليس باستطاعة الناس جميعا أن تتافسه في كماله و مجده ، ثم يدعو له بالشفاء و العافية من مرضه ، كما أن بيت الممدوح قد سما مجدا و عزة على الكواكب فهي دونه مكانة .

و قال أيضا يمدح أبا زكريا الحفصي و يحثه على نجدة الأندلس و تحريرها من الاحتلال الصليبي :

مَلِكٌ أَمَدَ النَّيِّرَاتِ بِنُورِهِ وَ أَفَادَهَا لِلْأَوَّةِ لِلْإِعَاءِهَا
خَضَعَتْ جَبَابِرَةُ الْمُلُوكِ لِعِزِّهِ وَ نَضَتْ بِكَفِّ صَغَارِهَا خِيَلَاءَهَا⁽²⁾

يقول الشاعر إن الكواكب النيرة التي تضيئ عتمة الليل تستمد نورها من نور ممدوحه ، و إن إشراق وجهه و تلالؤه سببا في تلالؤ هذه الكواكب ، و ذلك تمجيذا و تعظيما و مبالغة في وصف مكانة ممدوحه السامية و فضله الذي فاق كل فضل ، على سبيل المبالغة و ادعاء ، فقد انقاد لعزه و سلطانه عظماء الملوك وكبراء السلاطين صاغرين .

(1) - المصدر السابق : ص 356 - 357 .

(2) - المصدر نفسه : ص 38 .

و يقول كذلك من القصيدة نفسها :

وَسِعَ الزَّمَانُ فُضَاكَ عَنْهُ جَلَالَةٌ وَ الْأَرْضُ طَرًّا ضَنْكُهَا وَ فُضَاءُهَا
مَا أَزْمَعَ الْإِيغَالُ فِي أَكْنَافِهَا إِلَّا تَصِيدَ عَزْمُهُ زُعَمَاءَهَا
دَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَ شُمُّ مُلُوكِهَا فَاحْتَلَّ مِنْ رُتَبِ الْعُلَى شَمَاءَهَا⁽¹⁾

فابن الأبار يرى أن ممدوحه قد بلغ من الجلالة و المجد مبلغا عظيما ، فلم يستطع الزمان احتواء مجده و جلالته ، كما أن المكان — كذلك — أصبح لا يتسع لمجد هذا الممدوح ، فقد امتدت فتوحاته إلى كل الجهات ، فالأرض ببرها و فضائها قد دخلت في حماه ، و أن ملوك الأرض و زعمائها قد خضعوا لعزمه و إرادته ، فتبوأ الممدوح أعلى درجات المجد ، و تسنم أرفع قمم السؤدد .

و يمدح ابن الأبار الحفصيين بالمجد و السؤدد حيث يقول من قصيدة على روي الراء من بحر الرمل :

تَخَذِ النَّاسُ عَلَاهُمْ سُنَنًا وَ تَلَا الدَّهْرُ حُلَاهُمْ سُورًا
فَلَهُمْ مِنْ عِزَّةٍ أَنْ يَفْخَرُوا وَ عَلَى حُسَدِهِمْ أَنْ تُقْصِرَا
لَا يَنَالُ الْفَوْزَ إِلَّا رَاشِدٌ حَجَّ شَرْعًا بَيْتَهُمْ وَ اعْتَمَرَا
بَيَّتْ عَلَيْهِمْ سَمَتَ أَطْرَافِهِ وَ رَسَتْ بَيْنَ الثَّرِيَّا وَ الثَّرَى⁽²⁾

يقول الشاعر إن الناس قد اتخذوا المجد و الرفعة التي حققها الحفصيون مثالا يحتدا و سنة تتبع لكل من أراد نيل العلا و السؤدد ، كما أن الدهر قد أخذ يردد محامد الحفصيين و محاسنهم منتشيا بذكرهم كما يتلو المقرئ سور القرآن الكريم ، فحق لهم أن يفخروا بهذه العزة التي تحققت لهم ، و على حسادهم و منافسيهم أن يتوقفوا عن مجاراتهم ، فلا مجال لإدراك هذا المجد ، فمن أراد أن يحقق الفوز و النجاح فما عليه إلا زيارة مملكة بني حفص و الانضواء تحت لوائها ، فقد علا نجم هذه المملكة و سما حتى بلغ الثريا .

(1) - المصدر السابق : ص 38 .

(2) - المصدر نفسه : ص 186 .

و يقول أيضا من القصيدة نفسها :

أَطْلَعَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي ، بُورِكَتْ ، فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ بَذْرًا نَيْرًا
أَحْرَزَ السُّودْدَ عَنْ آبَائِهِ وَ اقْتَفَاهُمْ أَكْبَرًا فَأَكْبَرًا⁽¹⁾

يصف الشاعر في هذه المقطوعة ولي العهد أبا يحيى — حاكم بجاية — أن مجده و فضله بالنسبة للرعية كمجد و فضل القمر في منتصف الشهر ، و قد حقق هذه الرفعة و أحرز ذلك المجد من آبائه الأفاضل ، فسار على مناهجهم ، و تمسك بمحامدهم و فضائلهم التي ورثوها كابرا عن كابر ، فهو خير خلف لخير سلف .

لقد تمكن ابن الأبار من خلال مدح الحكام الحفصيين بالمجد و السؤدد ، من نشر محاسن هذه الدولة الفتية و المشاركة الفعالة في الدعاية لها و الترويج لحكمها الراشد بين عامة الناس و خاصتهم من جهة ، و ربط علاقات الود و الصداقة و الترقى في المناصب السامية داخل البلاط من جهة أخرى ، متخذا في ذلك العزف على الأوتار الحساسة في نفوس حكام بني حفص وسيلته من أجل تحقيق آماله و طموحاته السياسية المعلنة منها و الخفية — على غرار ما فعله المتنبى في بلاط سيف الدولة الحمداني أو بلاط كافور الإخشيدي — مستثمرا في ذلك موهبته المبدعة و علمه الغزير .

و سعى الحكام الحفصيون بدورهم إلى تقريب الكتاب و الشعراء من بلاطهم ، و إحاطتهم بالرعاية و أسباب النعمة ، و استعمالهم كوسيلة إشهار للتعريف بمبادئ دولتهم و الدفاع عن حقهم في الخلافة أمام منائئهم و خصومهم من الموحيدين — و بقية الممالك المستقلة ، و قد كان ابن الأبار أحد هؤلاء الشعراء الذين أنيطت بهم هذه المهمة ، فكان مدحه بالمجد و السؤدد للحفصيين من العوامل التي ساهمت في ترسيخ دعائم هذه الدولة الفتية و توسيع قاعدتها و تخليد مآثرها .

(1) - المصدر السابق : ص 187 .

2 - المدح بالشجاعة :

أدار ابن الأبار الكثير من مدائحه بالبلاط الحفصي حول موضوع الشجاعة التي يتحلى بها الممدوح ، فقد تحدث عن الإقدام و الجرأة في خوض غمار الحرب و التصدي للأعداء الخارجيين و مجابهة المناوئين الداخليين ، فالممدوح لا يخشى المخاطر و لا يتوانى عن مواجهة الأهوال ، كما يتميز بالصبر و حسن التدبير ، فقد حنكته التجارب و مقارنة الخطوب .

و لقد كان لخصوصية المرحلة التي عاشها ابن الأبار في البلاط الحفصي ، أثرا واضحا في تركيزه من خلال مدائحه على هذه الصفة التي طبعت ممدوحيه الحفصيين ، فالإمارة الحفصية في طور النشأة و مرحلة التأسيس التي تتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة و الصبر و حسن التدبير التي يفترض أن تتوفر في أشخاص حكام هذه الدولة الناشئة ، من أجل إرساء قواعدها و رفع دعائمها و مجابهة المتربصين بها في الداخل و الخارج .

يقول ابن الأبار مادحا السلطان الحفصي من قصيدة رائية على بحر الرمل :

وَ إِذَا مَا شَرِي الشَّرُّ فَلَمْ يَقْتَصِرْ حَتَّى يَجُزَّ الْقَصْرَا
حَسَمَ الْأَوْجَالَ شَهْمًا بَطْلًا وَ فَرَى الْأَحْوَالَ عَضْبًا ذَكَرًا⁽¹⁾.

يصف الشاعر ممدوحه بالحزم و الشجاعة ، فإذا انتشر الشر و عم البلاء من الأعداء ، تصدى له أبو يحيى — حاكم بجاية — ليستأصل شأفة الظلم و يقطع دابر الفتنة بشجاعة نادرة و عزم لا يلين ، فمن صفاته : الحسم و الشهامة و البطولة في مواجهة الشدائد و مقارنة الأهوال .

و يقول كذلك من القصيدة نفسها :

وَ أَمْدُ النَّاسِ فِي الْبَاسِ مَدَى وَ الرَّدَى عَنْ نَابِهِ قَدْ كَثُرَا
نَعَمَ السَّمْعَ بِمَا شَيَّ—دَهُ مِنْ مَعَالٍ وَ أَقَرَّ الْبَصَرَا

* - الوجل: الفزع و الخوف. للمزيد ينظر/ابن منظور: لسان العرب المحيط، مادة (وجل) ، ج 3، ص 88 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 187 - 188 .

لَيْسَ يَرْجُو مَنْ عَصَى مُعْتَصِمًا	مَنْ عَوَالِيهِ وَ لَا مُعْتَصِرًا
هَذِهِ الْأَحْيَاءُ قَدْ دَوَّخَهَا	فَسَلَّ الْبَيْضَ بِهَا وَ السُّمَرَا
زَارَهَا لَيْثًا مَهِيْبًا زَارُهُ	لَا يُهَابُ اللَّيْثُ حَتَّى يَزَارَا
مُهْدِرًا مِنْ دَمِهَا مَا حَقَّتْ	وَ دَمُ الْمُرَّاقِ يَمْضِي هَدْرًا
غَادَرَ الْغَدْرَ وَ مَنْ دَانَ بِهِ	لِلْعَوَالِي وَ الْعَوَافِي جَزَارَا
وَ ثَنَى لِلذِّلِّ وَ الْإِدْعَانَ مَنْ	عَنْ فِي سُلْطَانِهِ وَ اسْتَكْبَرَا
أَوْحَدٌ تَخْدُمُهُ أَيَّامُهُ	وَ ثَوَالِيهِ نَهَى أَوْ أَمَرَا ⁽¹⁾

لقد جمع ابن الأبار في هذه المقطوعة طائفة كبيرة من صفات الشجاعة و البأس و الإقدام في ممدوحه ، فبأسه و بلاءه في ميدان المعركة يفوق بأس الناس جميعا ، و خاصة إذا جسم الكرب و عظم الخطب و أضحى الموت يتخطف الأبطال من كل حذب و صوب ، كما أن للممدوح آثاره العظيمة في السلم ، فقد حقق الأمن و الرفاهية لرعيته فأنباء مكتسباته قد شنت الأسماع ، و صور منجزاته قد خلبت الأبصار ، كما تصدى للعصاة و المعتدين فلا سبيل لهم في النجاة من قصاصه العادل ، و لا مفر لهم من عواليه و رماحه ، و قد دوح خصومه و مناوئيه في مختلف الجهات ، فشجاعة الممدوح و هيئته كشجاعة الأسد و هيئته إذا رفع صوته بالزئير ، فقد أهدر دم الخارجين عن طاعته و ذلك جزاء كل خائن ، و تركهم جثثا هامة نهشا للسباع و جوارح الطير ، كما أن عدالته قد أنزلت العقاب بكل سلطان ظالم و متجبر ، فأصبح ذليلا بعد عزة مستسلما بعد عناد .

و يمدح ابن الأبار المرتضى الحفصي بالشجاعة و الإقدام من قصيدة على روي الغين من بحر الطويل ، و ذلك بمناسبة بيعة مدينة المرية الأندلسية له سنة (643هـ) :

تَخِيمُ الْأَسْوَدُ الْغُلْبُ عَنْهُ مَهَابَةً فَمَا التَّعَلُّبُ الرَّوَّاعُ مِنْهَا بِأَرْوَغَا

(1) - المصدر السابق : ص 188 .

وَتُبْدِي لَهُ الْعِلْيَاءُ هَزَّةً مِعْطَفٍ بِمَا هَزَّ فِي الدَّمْرِ الْقَنَاةَ وَ شَغَشَغًا
يُلَاقِيهِ لُبْسًا مِنَ السَّرْدِ أَزْرَقًا فَيُثْنِيهِ مِنْ قَانِي الدَّمَاءِ مُصَبَّغًا⁽¹⁾.

إن شجاعة الممدوح و مهابته تجعل أشرس الأسود تتراجع أمامه ذليلة صاغرة مثلها في ذلك مثل الثعالب ، و لشجاعته و إقدامه فإن العلياء و الرفعة تهتز فرحا به مثلما يهز و يحرك رمحه في الأبطال الذين ينازلهم في ساحة المعركة ، كما أن أشد المقاتلين المدججين بالسلاح و المتحصنين بالدروع الزرقاء إذا اعترضوه في ساحة المعركة ، لا يغادرهم إلا و هم صرعى مخرجين في دمائهم الحمراء القانية .

و يقول ابن الأبار مادحا السلطان أبا زكريا بالشجاعة من قصيدة على روي الهاء من بحر الكامل :

أَعْيَا عَلَى الْأَعْدَاءِ نَيْلُ نَجَاتِهَا أَتَى وَ سَيْفُكَ سَافِكٌ مُهْجَاتِهَا
لَا رَيْبَ فِي النَّصْرِ الْعَزِيزِ لِدَعْوَةٍ أَرَوْهَا فِي الْيُمْنِ مِنْ رَايَاتِهَا
حُمِّلَتْ أَنْبَاءُ الْفُتُوحِ فَهَاتِهَا لَتَخُطَّهَا الْأَيَّامُ فِي صَفَحَاتِهَا⁽²⁾

يقول ابن الأبار إن الأعداء قد يئسوا من النجاة من القصاص العادل ، طالما أن السلطان أبا زكريا لهم بالمرصاد لرد كيدهم و سفك دمائهم ، فلا شك في أن النصر سيكون حليف دعوته الميمونة ، و قد بدأت الأنباء بالفتوح و الانتصارات تصل من مختلف الجهات ليسجلها التاريخ في صفحاته الخالدة .

و يقول أيضا من قصيدة على روي الهاء من بحر الوافر ، مادحا السلطان أبا زكريا الحفصي بالشجاعة :

لَيْتُ الْحِفَاطِ تَعَلَّمَتْ إِقْدَامُهُ أَشْبَالُ أَنْبَاءٍ لَهُ أَشْبَاهُ⁽³⁾

يصف الشاعر ممدوحه بأنه أسد في الشجاعة و الإقدام ، و قد ورث الأبناء عنه هذه الصفة ، فلا مجالا للتردد و لا مكانا للجبن في خوض غمار الحروب

(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 369 .

(2) - المصدر نفسه : ص 407 .

(3) - المصدر نفسه : ص 409 .

و مواجهة المخاطر و الصعاب ، مشيرا إلى المثل العربي السائر : هذا الشبل من ذاك الأسد .

لقد أحدث مدح ابن الأبار الحفصيين بالشجاعة و الإقدام ، صدى كبيرا في نفوسهم ، فقربوه من بلاطهم فأصبح رئيس ديوان الترسل عندهم ، فالشجاعة من الصفات التي حرص الحكام الحفصيون على أن ينعتوا بها خاصة أن الدولة الحفصية لا تزال في طور التأسيس و إرساء القواعد ، فالمرحلة تتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة لمواجهة الأخطار المحدقة بالمملكة الفتية على جميع الأصعدة و كل المستويات ، فكان المدح بالشجاعة من طرف ابن الأبار بمثابة الهرمون الحيوي المنشط للجسم ، فازداد الحماس و تطلعت الهمم إلى انجاز الكثير من الأهداف و الطموحات في التوسع ، و تحقيق الانتصارات في المعارك و الحروب التي خاضوها ضد أعدائهم و خصومهم .

3- المدح بالكرم :

شكل الكرم موضوعا مفضلا في قصيدة المديح العربية خلال مسارها الطويل ، فقد استغرق هذا الموضوع الكثير من صفحات الدواوين الشعرية — و لا غرابة في ذلك — فقد تغنى العربي منذ جاهليته بهذه الصفة التي ميزته عن غيره من الأمم .

و الكرم خلاف البخل و نقيض التقدير ، هذا الأخير الذي طبع بعض الشعوب ، حتى لنجد الجاحظ (ت255هـ / 869م) يؤلف كتابه البخلاء ، مدحا للكرم بعده خلة عربية و ذما للبخل بعده خلة فارسية ، فهم يرون البخل ضربا من الاقتصاد و جنسا من حسن التسيير، غير أن الكرم قد يخرج عن حد الاعتدال إلى التبذير و الإسراف، فالفضيلة كثيرا ما تكون وسطا بين رذيلتين ، فالكرم — مثلا — يتوسط البخل من جهة و التبذير من جهة أخرى ، فهذه المفهومات تحتاج للمس خفيف و مهارة عالية لتوضع موضعها الصحيح ، و قد نوه القرآن الكريم بالاعتدال في الإنفاق و البذل* . يقول ابن الأبار مادحا الحفصيين بالكرم و الجود من قصيدة على روي الراء من بحر الرمل :

وَ انْتَجِعْهُمْ مُوسِرًا أَوْ مُعْسِرًا تَرَدُّ الْجُودَ زُلَالًا خَضِرًا
كَيْفَ يَخْشَى عَائِلٌ تَهْلُكَةً وَ أَبُو يَحْيَى مُعِيلٌ لِلْوَرَى
مَلِكٌ يَدْعُو نَدَاهُ الْجَفْلَى** حِينَ لَا تَدْعُو الْمُلُوكُ النَّقْرَى⁽¹⁾.

يقول ابن الأبار إن بني حفص قد بلغوا الغاية في الجود و الكرم ، و قد أصبحوا قبلة للناس ومقصدا لكل ذي حاجة ، فهم لا يردون قاصدهم خائبا ، سواء

* - قال الله تعالى : ((وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْضُورًا)) . ينظر / سورة الإسراء ، الآية 29 .

** - دعاهم الجفلى أي بجماعتهم ، و قال الأصمعي الأجفلى ، هو أن تدعو الناس إلى طعامك عامة ، قال طرفة : نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى النَّاسُ الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ و قال الأخفش : دعي فلان في النقري لا في الجفلى و الأجفلى أي دعي في الخاصة لا في العامة ، و قال الفراء : جاء القوم أجفلة و أزفلة أي جماعة و هي الجماعة من كل شيء . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (جفل) ، جـ 1 ، ص 473 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 187 .

كان فقيرا أم غنيا ، فجودهم و كرمهم أصبح مضربا للأمثال ، فكيف — و الحال هذه — يخشى الفقير الجوع و يخاف الهلاك ، فالممدوح — ولي العهد — قد تكفل بإعالة الناس جميعا ، فكرمه قد تجاوز كرم غيره من الأجواد و المحسنين ، فعندما يوجه هؤلاء دعوتهم لخاصة الناس ، فالممدوح دعوته تشمل عامة الناس و خاصتهم و يقول من القصيدة نفسها :

بَادِلٌ وَ الْعَيْثُ فِيهَا بَاخِلٌ سَنَةٌ شَهْبَاءُ تُزْجِي الْعَبْرَا
تُطْفِئُ الْأَجْوَادُ فِيهَا نَارَهَا وَ هُوَ فِي الْهَضْبِ يَشُبُّ الْعَبْرَا⁽¹⁾.

إن كرم الممدوح و جوده لا يعرف التوقف ، فقد تحبس السماء ماءها و تبخل بالغيث على الأرض فتضحي جدباء قفراء لا ماء فيها و لا نبات ، كما أن الأجواد و الكرماء يضطرون في سنوات القحط و الجفاف إلى إطفاء نارهم ، حتى لا يهتدي إليهم الساري طلبا للرفد و المعونة ، ففي مثل هذه الظروف الصعبة يشعل الممدوح ناره بالأماكن المرتفعة ليستدل بها عابوا السبيل طلبا للمساعدة و التماسا للقرى .
و يمدح ابن الأبار السلطان المرتضى الحفصي بالكرم بمناسبة ، بيعة المرية له سنة (643هـ) من قصيدة على روي الغين من بحر الطويل :

يُبِيحُ انْهِلَالاً جُودَهُ وَ تَهْلُلاً* وَ يَحْظَرُ أَنْ يَأْسَى الْمَسِيفُ وَ يَنْشَغَا
وَ مَا يُحَسِّنُ الْقَرْعَانَ صُنْعَ صَنَائِعِ ثُرْبٌ وَ إِنْ صَبَّاءَ مَلِينًا وَ أَقْرَعَا
كَفِيلٌ نَدَاهُ الْمُسْتَهْلُ وَ بَأْسُهُ بَأَنْ يَشْعَرَ السَّكَيْتُ** فِيهِ وَ يَنْبَغَا⁽²⁾.

(1) - المصدر السابق : ص 187 .

* - في هذا الشطر إحالة ضمنية على بيت زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان ، حيث يقول :
تَرَاهُ إِذَا مَا جِنَّتُهُ مَهْلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ . للمزيد ينظر/ زهير بن أبي سلمى : الديوان ، شرح و تحقيق أحمد طلعت ، دار القاموس الحديث و دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، ص 132 . أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي : بهجة المجالس و أنس المجالس و شذذ الذاهن و الهاجس ، تحقيق محمد مرسى الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1402هـ/1982م ، القسم 1 ، المجلد 2 ، ص 507 .

** - السكيت : قليل الكلام ، و هو آخر الخيل في حلبة السباق أي الذي يأتي عاشرا . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (سكت) ، ج 1 ، ص 170 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 368 - 369 .

يقول الشاعر إن الممدوح يسمح بأن يجري جوده و كرمه و ينسكب ، و هو متهلل الوجه مسرور النفس بما يفعل ، كأنه هو الذي يأخذ و ليس هو الذي يهب ، كما أنه يحرص كل الحرص على أن لا يحزن و يغتم من أصابته مصيبة في ماله نغصت عليه حياته و أوشكت أن تقطع أنفاسه ، فكرم الممدوح كفيل بتعويض خسارته و مداواة جراحه ، و قد تجاوز كرمه و جوده كل الحدود المعروفة في ذلك ، فلا يستطيع غيره من الأجواد و الكرماء مجاراة صنيعة و إحسانه ، و إن أجهدوا أنفسهم في منافسته و مباراته .

و يقول كذلك من قصيدة على روي العين من بحر الكامل ، مادحا السلطان أبا زكريا الحفصي بالكرم :

ضَايَقْتُ فِي الْعُذْرِ الْعُقَاةَ وَقُلْتُ قَدْ يَمَّمُّمُ بَحْرَ النَّدَى فَاسْتَوْسِعُوا
إِنْ تَقْصِدُوا لَا تُحْجَبُوا أَوْ تَقْرَبُوا لَا تُبْعَدُوا أَوْ تَسْأَلُوا لَا تُمْنَعُوا⁽¹⁾.

إن الشاعر قد زاحم العقاة و المحتاجين الذين توجهوا قاصدين الممدوح ، ليقضي حوائجهم و يخفف من وطأة الفقر عليهم ، بقوله لهم إنكم تقصدون كريما لا يرد سائلا ، فاطلبوا حاجتكم و وسعوا عن أنفسكم فهذه فرصتكم قد حانت ، لأنكم تقفون أمام السلطان أبي زكريا ، فهو مضرب المثل في السخاء فكأنه البحر في الجود و الكرم ، فلن تحجبوا إذا قصدتموه ، و لن تبعدوا إذا تقربت منه ، و لن تحرموا و تمنعوا إذا سألتموه .

و قال يمدح أبا زكريا بالجود من قصيدة على روي الصاد من بحر الطويل :

إِلَى جُودِهِ تَنْتَبِهُ الْأَمَانِي وَجُوهَهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ الْقَبْضَ أَقْضَى إِلَى الْقَبْضِ*
فَلَا يَرْجُ ظَمَانٌ سِوَاهُ لِرِيَّهِ مُحَالٌ وَجُودُ الظِّلِّ فِي عَدَمِ الشَّخْصِ⁽²⁾.

(1) - المصدر السابق : ص 354 .

* - القبض : تناول بالأصابع بأطرافها ، و هو دون القبض ، و قيل القبض الخفة و النشاط ، و قيل العدو الشديد . للمزيد ينظر / ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (قبض) ، جـ 3 ، ص 7 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 337 .

يقول الشاعر إن ممدوحه قد أصبح قبلة لكل ذي حاجة ، بل إن الأمانــــي
و الغايات نفسها قد يمت وجوها إلى طلبا لنواله ، و استجداء لجوده و كرمه ،
فجود الممدوح أمر بديهي ؛ ذلك أن الذي يتجاوز القلة و التقدير و يتخلص من
الشح ، لابد أنه يرغب في الوصول إلى كثرة الإنفاق و غزارة الجود و الكرم ، كما
أن الممدوح قد أصبح بكرمه ملاذ كل محتاج و رجاء كل فقير ، فلا كريم غيره من
ملوك عصره و لا جواد سواه من سلاطين زمانه .

لقد استطاع ابن الأبار أن يرسم صورة مشرقة للحكام الحفصيين من خلال
وصفهم بالكرم و الجود ، مستخدما في ذلك كل طاقات اللغة و إحياءاتها التعبيرية ،
و ما توفره الأدوات البلاغية من تشبيه و استعارة و مجاز ، لتجسيم و تشخيص ما
هو معنوي و بعثه في صورة محسوسة ، فالحفصيون تحولوا إلى نماذج حية للكرم
و الجود ، بل لقد فاقوا في ذلك الناس جميعا ، فلا كريم يدانيهم و لا جواد يقاربهم ،
فهم مقصد كل محتاج و ملاذ كل فقير أو عابر سبيل ، فالكرم عند بني حفص شيمة
فطرية متأصلة فيهم ، و ليس تصنعا أو بحثا عن السمعة و الذكر الحسن .

4 - المدح بالعدل :

من الصفات و الفضائل التي حرص الحكام على أن يمدحوا بها فضيلة العدل بعدها من أسس الحكم الراشد ، فهذه الصفة من شأنها أن ترفع من مكانة الممدوح و تعلي من منزلته و تضيف عليه الهيبة و التقدير ، و تزداد أهميتها أكثر لاسيما إذا كان الممدوح حاكما له مسؤوليات يمارسها في تسيير شؤون رعيته ، و كيف لا يحرص حكام الإمارة الحفصية على أن يمدحوا بالعدل ، و قد بدلو قسارى جهدهم لربط نسبهم بالفاروق عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — و الذي يمثل نموذجا عاليا للعدل في وجدان كل مسلم ، من هنا فقد شكل المدح بالعدل نقطة مركزية و علامة مضيئة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي .

قال ابن الأبار يمدح أبا زكريا الحفصي عشية إسناد ولاية العهد لابنه محمد ، في أعقاب وفاة أخيه زكريا حاكم بجاية سنة (646هـ) ، من قصيدة دالية على بحر الطويل :

و شَادَ بِحَيْثُ النَّيِّرَاتُ بِنَاءَهَا عَلَى عَمَدٍ لِلْعَدْلِ قَامَتْ عَلَى عَمَدٍ⁽¹⁾ .

لقد شيد الممدوح دولته و أقام خلافته حتى بلغت نجوم السماء سناء و رفعة ، على أسس صلبة و أعمدة راسخة هي : أعمدة العدل و أسس القسط ، فقد كانت العدالة مقصده في دولته و غايته في حكمه و خلافته ، فالشاعر بمدحه هذا يحيل على القول المأثور : العدل أساس الملك .

و يمدح ابن الأبار أبا زكريا بالعدل ، و يهنئه بإقبال الملك و الدنيا عليه ، و ذلك بمناسبة فتحه تلمسان و انضوائها تحت لوائه سنة (640هـ) ، فيقول من قصيدة على روي الواو من بحر الطويل :

هَنِيئًا إِمَامَ الْعَدْلِ إِقْبَالُ دَوْلَةٍ تَهْزُ لَهَا الْأَيَّامُ أُعْطَافَهَا زَهْوًا⁽²⁾ .

(1) - المصدر السابق : ص 164 .

(2) - المصدر نفسه : ص 423 .

يهنئ ابن الأبار السلطان أبا زكريا بحكمه الراشد ، و التقدم الحاصل في المملكة التي أقبلت به أيامها السعيدة و أدبرت الأيام الخوالي ، و ذلك بمناسبة العام الجديد ، كما يمدحه بأنه إمام عادل و حاكم مقسط لا جور في حكمه و لا استبداد ، الأمر الذي جعل مملكته تزدهر و تتقلب في النعيم و رغد العيش ، و ما كان هذا التقدم ليحدث لولا العدل الذي تميز به السلطان ، لأن العدل أساس الملك .

و قال يمدح أبا زكريا سنة (640هـ) من قصيدة على روي القاف من بحر الطويل :

إِلَى الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ يَهْدِي وَيَهْتَدِي فَتَأْتُمُ بِالْفَارُوقِ مِنْهُ وَلَا فَرْقًا⁽¹⁾ .

إن السلطان أبا زكريا قد تبنى العدل مبدأ و سلوكا في حياته ، فهو يحث غيره على التزام العدل و تحري القسط في ما يقدم عليه من أعمال ، كما أنه — كذلك — يجعل العدل قبلته و هاديا له في الحياة ، بل لقد بلغ الغاية في عدله بين الناس و إحسانه لرعيته و صار قدوة لهم يتبعونه ، مثله في ذلك مثل عمر بن الخطاب ، فلا فرق بينهما في العدل و لا اختلاف في الإحسان ، و لا غرابة في ذلك طالما أن الممدوح ينتسب إلى عمر الفاروق فهو فرع من أصل .

و قال أيضا يمدح أبا زكريا من قصيدة سينية من بحر البسيط :

قَامَتْ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ دَعْوَتُهُ وَ أَنْشَرَتْ مِنْ وُجُودِ الْجُودِ مَا رُمِسَا*⁽²⁾ .
ينوه الشاعر بفضيلتي العدل و الإحسان في ممدوحه ، و قد قامت دعوته الميمونة على هذين الركنين ، فهما أساس الملك و معقد بقاء الحكم و السلطان ، و قد أحيت دولة الممدوح بالجدود كل الفضائل و خلال العالمة التي أوشكت أن تزول و بعثتها نابضة بالحياة من جديد .

(1) - المصدر السابق : ص 385 .

* - الرمس : الصوت الخفي ، و رمس الشيء طمس أثره ، و كل شيء هيل عليه التراب . للمزيد ينظر / ابن منظور : لسان العرب المحيط : مادة (رمس) ، ج 1 ، ص 1223 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 398 .

و قال يمدح أبا زكريا بمناسبة إسناده ولاية العهد لابنه محمد المستنصر
أواخر سنة (646هـ) من قصيدة نونية على بحر الطويل :

كَأَنِّي بِالزُّورَاءِ تَخْطُبُ أُمَّهُ وَ قَدْ بَثَّ فِي مَرَآئِشِ الْعَدْلِ وَ الْأَمْنِ⁽¹⁾ .

إن عدل الممدوح في رعيته و سهره على تحقيق الأمن لهم ، قد جعله محط
الأنظار و معقد الآمال في كل الأقطار الإسلامية مشرقا و مغربا ، فهذه بغداد
— حاضرة العباسيين — تتطلع في شوق إلى الممدوح ، ليجبرها من كيد الأعداء
و يحقق لها الأمن و الطمأنينة ، على غرار ما حققه لمراكش التي بايعته و دخلت
في حماه طائعة ، فنالت العدل و الأمن و السكينة ، و يشي هذا البيت بالكثير من
الإيحاءات الواضحة الدلالة على الحال المزرية التي آلت إليها الدولة العباسية ؛
نتيجة الضعف الذي سرى في أوصالها ، فقد بدأ أعداؤها يتحينون لها الفرص
و يتربصون بها الدوائر ، فتطلعت آمال المسلمين نحو قائد إسلامي يمكنه أن يرد
كيد الكائدين و يقف في وجه الغزاة المعتدين ، لكن هيهات هيهات فقد تسارعت
الأحداث و تعاقبت الوقائع ، و أطبق المغول على بغداد من كل حذب و أحاطوا بها
من كل جانب ، و جرعوها ألوانا من كؤوس الذل و الهوان ، فسقطت في أيديهم
و سقطت معها الدولة العباسية سنة (656هـ / 1258م) بعد حكمها للعالم الإسلامي
لمدة خمسة قرون و ربع القرن تقريبا ، و سنة بعد ذلك بايع أهل الحجاز المستنصر
الحفصي بالخلافة كما مر معنا في موضع سابق من هذا البحث .

إن العدل من الصفات السامية و القيم الرفيعة التي حرص جل الحُكَّام
و السلاطين على مر العصور و اختلاف الأقاليم أن يوصفوا بها و أن يأخذوا منها
بسهم ، فالعدل من الصفات و الفضائل النفسية الأربعة التي حددها أفلاطون و تبناها
النقد القديم و حث على وجوب المدح بها ، لقدرتها على الارتفاع بالممدوح و تمجيده
و تخليد ذكره ، و من هنا فقد ركز ابن الأبار مدائحه للحكام الحفصيين على هذه
القيمة ، و أكثر من وصفهم بها إما مباشرة أو من خلال ربط نسبهم بالفاروق عمر

(1) - المصدر السابق : ص 297 .

بن الخطاب النموذج الأمثل لعدل الحاكم المسلم على مر القرون واختلاف
الأعصر ، فقد أحدث مدح الشاعر للحفصيين بالعدل أثرا عميقا في نفوسهم ،
و ساهم في تحسين صورتهم لدى الرعية و الرفع من شعبيتهم ، فقربوه و أغدقوا
الأموال و الجوائز عليه ، و أصبح من دوي العقد و الحل في البلاط الحفصي ،
فالعدل أساس الملك و عماد الحكم الراشد و مطية تحقيق الأمن و السلم و الاستقرار
الاجتماعي و السياسي معا .

5- المدح بشرف النسب :

دأب الشعراء منذ العصر الجاهلي على المدح بالأصل و النسب الصريح ، و التغني بشرف الأرومة و أصالة المنبت ، فقد كان العربي أكثر شعوب الأرض حرصا على نقاوة الأصل و تمسكا بالنسب و دفاعا عن العرض ، حتى لا يختلط نسبه و لا تمتد الألسنة إليه بالهمز و اللمز ، و أدى هذا الاهتمام بالأنساب عند العرب إلى ظهور طبقة النسابين منذ وقت مبكر إلى جانب طبقة الشعراء ، بل لقد تحول الشعر نفسه إلى سجل للأنساب و دليلا على الأصول ، حتى لنفسي عمر بن الخطاب يقول : (روي أولادكم الشعر فإنه أحفظ للأنساب و أدل على مكارم الأخلاق) .

من هذا المنطلق فقد أدار ابن الأبار — على غرار الشعراء العرب — مدائحه بالبلاط الحفصي ، على موضوع الأصل و النسب الصريح لممدوحيه من الأسرة الحفصية الحاكمة ، و عمل من خلال قصائده على ربط الحفصيين بنسب عمر بن الخطاب ، و من ثم الانتماء إلى قريش التي نزلت فيها آخر الرسالات السماوية . قال ابن الأبار يمدح أمير بجاية زكريا أبا يحيى ولي عهد أبي زكريا الحفصي ، وذلك سنة (636هـ) عند التجائه إلى الحفصيين ، من قصيدة رائية من بحر الرمل :

زَكْرِيَاءُ بْنُ يَحْيَى الْمُرْتَضَى	ابْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عَمْرٍَا
نَسَبٌ أَبْهَرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى	لَيْسَ مَاءُ الْمَزْنِ مِنْهُ أَطْهَرَا
وَ أَبٌ يَخْلُفُهُ ابْنٌ فِي الْعُلَى	كَالْجَنَى يَعْقُبُ بَعْدَ الزَّهَرَا
إِنَّمَا آلُ أَبِي حَقِصٍ هُدَى	يَكْشِفُ الْغَيَّ وَ يَجْلُو السَّرَّارَا (1) .

يذكر الشاعر سلسلة نسب الأمير الحفصي — حاكم بجاية — فهو زكريا بن يحيى بن عبد الواحد بن عمر ، فنسب الأمير شريفا طاهرا صريحا ظاهرا ، بل هو

(1) - المصدر السابق : ص 186 .

أوضح و أجلى من الشمس وقت الضحى ، و أنقى من ماء السحاب الذي لم يلامس الأرض و لم يختلط بشوائبها و دنسها ، كما أن الأمير قد أخذ عن أبيه أسباب الرفعة و عوامل المجد و العلى ، فهو ولي عهد السلطان أبي زكريا فالأمير كأنه الجنى و العسل المصفى و السلطان هو الزهر الذي يستخرج منه الرحيق ، ثم يعمم الشاعر مدحه ليشمل كل آل بني حفص الهداة ، الذين هم بمنزلة البدر في هداية الساري في ظلمات الليل و دياجيره .

و قال ابن الأبار يمدح السلطان أبا زكريا و ابنه أبا يحيى ، بمناسبة تقليد هذا الأخير ولاية العهد سنة (638هـ) ، من قصيدة دالية من بحر الطويل :

عَلَى زَكْرِيَاءَ بَنٍ يَحْيَى التَّقَى الرُّضَى كَمَا التَّقَتِ الْأَنْدَاءُ صُبْحًا عَلَى الْوَرْدِ
عَلَى الْمُرْتَضَى بَنٍ الْمُرْتَضَى فِي أَرْوَمَةٍ* نَمَتْ صُعْدًا بِالنَّجْلِ وَالْأَبِ وَالْجَدِّ
عَلَى الْمُكْتَفَى وَالْمُقْتَفَى نَهَجَ قَصْدِهِ وَ مُشَبَّهٍ فِي الْبَاسِ وَالْجُودِ وَالْجَدِّ⁽¹⁾

و قال — أيضا — يمدح الحفصيين بالنسب ، على روي الدال من بحر الكامل:

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَ مِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا⁽²⁾

و يقول مادحا ولي العهد أبا يحيى بالنسب الشريف عند زيارته تونس —

حاضرة الدولة الحفصية — من قصيدة على روي الياء من بحر الوافر :

إِلَى الْفَارُوقِ تُنْمِيهِ السَّجَايَا سَمِيَّ أَبِيهِ يَا لَكَ مِنْ سَمِيٍّ
وَمَا طِيبُ الْأَرْوَمَةِ مِنْهُ بَدْعًا زَكَاةُ الْفَرَعِ لِلْأَصْلِ الزَّكِيِّ⁽³⁾ .

إن أخلاق الممدوح أبي يحيى و سجاياه ، ما هي إلا امتدادا طبيعيا لسجايها و أخلاق آبائه و أجداده و منهم الفاروق عمر بن الخطاب ، حيث ينتسب الحفصيون إليه و ينحدرون منه — حسب زعم بعض النسابين — فشرف الأصل و طيب

* - الأرومة : هي المنبت و الأصل ، أو هي أصل كل شيء : قال زهير بن أبي سلمى يمدح قوما بالأصل الشريف : لَهْمُ فِي الذَّاهِبِينَ أَرْوَمٌ صِدْقٌ وَ كَانَ لِكُلِّ ذِي نَسَبٍ أَرْوَمٌ . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (أرم) ، ج 1 ، ص 50 .

(1) - ابن الأبار: الديوان ، ص 441 .

(2) - المصدر نفسه : ص 441 .

(3) - المصدر نفسه : ص 426 .

الأرومة في الممدوح أمرا ثابتا لا مرأ فيه ، فرفعة الأبناء و طيب عنصرهم مردها إلى زكاة أصلهم و نبل منبتهم .

و يمدح السلطان أبا زكريا بالنسب الشريف ، من قصيدة دالية على بحر الطويل قائلا :

إلى الأصل من عدنان يُعزى عديُّه ولا عرو أن تُعزى الصَّوَّارمُ للهِند⁽¹⁾ .

يشيد ابن الأبار بالأصل الشريف للسلطان أبي زكريا ، فهو ينتسب للعرب العدنانية الذين تشرفوا بتلقيهم آخر رسالات السماء من خلال الرسول محمد صلى الله عليه و سلم ، فقد ذكر النسابون أن آل حفص من سلالة عمر بن الخطاب القرشي ، وبهذا النسب الشريف يكتسب الحفصيون الشرعية الدينية في الحكم إلى جانب الشرعية السياسية التي حققوها بحد السيف ، فنسبهم شريف و أصلهم ثابت ، و لا شك في هذا الأمر طالما أن السيوف القاطعة منسوبة إلى الهند .

لقد سعى الحكام الحفصيون إلى ربط نسبهم بعمر بن الخطاب منذ استقلالهم عن الدولة الموحدية، و ازداد هذا الأمر إلحاحا في خلافة المستنصر الحفصي الذي بايعه أهل الحجاز بالخلافة في أعقاب سقوط الدولة العباسية سنة (656هـ/1258م) ، فازداد طموحه و رغب في نيل الزعامة السياسية و الدينية للعالم الإسلامي و تسمى بأمير المؤمنين — كما سبقت الإشارة — فكان الشعراء الوسيلة الأمثل في التعريف بالنسب الشريف للحفصيين ، حتى يكتسبوا الشرعية الدينية و يحققوا تعاطف المسلمين قاطبة و التفافهم حولهم بعد تحقيقهم للشرعية السياسية من قبل ، و لم يتأخر ابن الأبار — كعادته — في الإشادة بالحفصيين و الحديث عن أصالتهم و عراقة نسبهم ، فتعددت صيغ مدحه لهم بذلك ، فمرة يذكر سلسلة نسب الحفصيين و مرة ثانية يصفهم بأنهم أحفاد عمر بن الخطاب و ثالثة يرجعهم إلى العدنانيين الذين ينتسب إليهم الرسول — صلى الله عليه و سلم .

(1) - المصدر السابق : ص 163 .

و قد تحدث المؤرخون القدماء منهم و المحدثون عن ظاهرة انتحال الأنساب ، و قد انتشرت في بلاد المغرب بشكل كبير خاصة من طرف الأسر الحاكمة في الدول التي تأسست بهذا الإقليم من العالم الإسلامي ؛ بحثا عن الشرعية الدينية و استدرارا لعواطف الرعية و كسبا لنفقتها ، و بريستيجا سياسيا يضيفي على الدولة فخرا و أبهة وحراما في الداخل و الخارج .

6- المدح بالنجدة و الإغاثة :

النجدة و الاغاثة من مكارم الأخلاق و محاسن الصفات التي تعلقت بها همم الرجال و دعت إليها مروءة الأبطال ، و قد اتصف العربي مند القديم بالنجدة و الاغاثة ، و جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق فنوه بإغاثة الملهوف و حث على نجدة المستغيث ، فأضحت هذه القيمة قادرة لوحدها أن ترتفع بالمتصف بها إلى أعلى درجات الشرف و المجد في حياته و أن تخلد ذكره بعد موته ، فقد خلدت صرخة تلك المرأة المسلمة — و معتصماه — ذكر الخليفة العباسي المعتصم على مر العصور ، و راح الشعراء يصفون ممدوحهم بالنجدة و الإغاثة ، لعلمهم بموقع هذه الصفة الحسن في نفس الممدوح ، و قدرتها على استدرار كرمه و عطفه ، كما كان للأحداث السياسية التي عرفتھا الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و ما نجم عنها من سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي الغزاة الصليبيين ، الأثر العميق على الشعراء الذين سارعوا إلى طلب النجدة و الاستغاثة للمدن الأندلسية من الإمارات الإسلامية ببلاد المغرب و على رأسها الإمارة الحفصية ، و قد كان ابن الأبار من أبرز شعراء الأندلس في طلب النجدة و الاستغاثة بالحكام الحفصيين ، فوصفهم بالنجدة و الإغاثة في قصائده التي مدحهم بها خلال إقامته في كنفهم .

و قال ابن الأبار مادحا المستنصر الحفصي بالإغاثة و تأمين الخائف و نجدة المستغيث ، على روي الثناء من بحر الوافر :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا غِيَاثٌ فَعِنْدَ الْمَحَلِّ تُسْتَسْقَى الْغُيُوثُ
فَلَا جُوعٌ وَ يَمْنَاهُ الْغَوَاذِي وَ لَا خَوْفٌ وَ قَتْلَاهُ اللَّيُوثُ⁽¹⁾ .

إن الأمير قد أضحى قبلة كل مستغيث و وجهة كل سائل ، فهو عنوان كل خير و مصدر كل بر ، و هذه حقيقة مؤكدة فعندما يقع الجفاف و تجدد

* - في هذا البيت إحالة صريحة على قوله تعالى : ((الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ أَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)) ، فالشاعر يتناص مع القرآن الكريم لثقافته الدينية التي يمتلكها فهو فقيه قبل أن يكون شاعرا . ينظر / سورة قريش ، الآية 4 .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 439 .

الأرض و يزداد البلاء و الكرب ، يسارع الناس متضرعين لطلب المطر و الغيث ، فلا تتعرض الرعية للجوع و الفقر في ظل حكم الأمير الذي تضاهي يده في الكرم و الإغاثة السحب المشحونة بالمطر ، فالجوع و الخوف في وجود السلطان بعيد الحصول ، كما أَمَّنَ الأميرُ الناسَ من الخوف و الأهوال ، لنجدته و شجاعته ————— و موجهته للأخطار .

و يقول أيضا مادحا أبا زكريا من قصيدة على روي السين من بحر البسيط ، واصفا السلطان بالنجدة و الإغاثة :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجَتِهَا دَرَسًا
وَ هَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسًا
وَ حَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَاشَتُهَا فَطَالَمَا ذَاقَتْ الْبَلَوَى صَبَاحَ مَسَا* (1)

يستغيث الشاعر ممدوحه و يدعو له لنجدة الأندلس المحاصرة ، فلا سبيل إلى نجاتها من الاحتلال الصليبي إلا أن يسير إليها السلطان الحفصي بجيشه المظفر و خيله التي لا تعرف التخاذل و الهزيمة ، و أنى لها أن تعرف ذلك و هي خيل الله المؤيدة بنصره و المؤزره بعونه و توفيقه ، فالممدوح هو البطل النموذج و الفارس الذي في مستوى طموحات المسلمين بالأندلس ، لتحقيق النصر و إنقاذهم من مخالب الأعداء و الغزاة الذين أهدقوا بهم من كل جانب و جرعوهم ألوانا من العذاب ، و قد حاول الشاعر هز نخوة السلطان و دغدغة عواطفه الدينية الجياشة بإضافته عليه صفات البطولة و الشجاعة و النجدة و الإغاثة ، معتمدا في ذلك على صيغة الأمر الذي غرضه الدعاء حينا و الالتماس حينا آخر .

* - مسا : أصلها مساء ، فالكلمة ممدودة لكن الشاعر جعلها مقصورة للضرورة الشعرية ، أما من الناحية الصرفية ، فإن قصر الممدود جائز ، فقد ذكر ابن جني (ت 392هـ) قائلا: متى أشكلت عليك لفظة ، فلم تدر مقصورة أم ممدودة فاقصرها ، فإن قصر الممدود جائز ، و مد المقصور خطأ ... فالقصر هو الأصل و المد هو الفرع . للمزيد ينظر/ أبو الفتح عثمان بن جني : ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز و مقصور و ممدود ، تحقيق عبد الباقي الخزرجي ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، باتنة - الجزائر ، 1986م ، ص 91-92 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 395 .

((لقد سادت قصيدة ابن الأبار روح الاستهزاء والاستتكار ، و أغلب الظن أن الشاعر قد تمكن بفضل براعته و بلاغته ، أن يحقق الغاية الجليلة التي أوفده أميره إلى أفريقيا من أجلها ، و أن يبلغ من مشاعر أبي زكريا الحفصي ما أراد بلوغه ... و إن ما يطلب منه إنما هو الجهاد المقدس في سبيل دحر الكفر و محق الشرك ؛ لإعلاء كلمة الله و رفع لواء الإسلام))⁽¹⁾ .

و يقول كذلك من القصيدة نفسها :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْتَ لَهَا	عَلَيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءُ الْهُدَى تَعَسَا
وَ قَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَنْبَاءُ أَنَّكَ مَنْ	يُحْيِي بِقَتْلِ مُلُوكِ الصُّفَرِ الْأَنْدَلَسَا
طَهَّرَ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ	وَ لَا طَهَارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجَسَا
وَ أَوْطَى الْفَيْلَقَ الْجَرَّارَ أَرْضَهُمْ	حَتَّى يُطَاطَى رَأْسًا كُلُّ مَنْ رَأْسًا
وَ انْصُرْ عَيْبِدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرَقَتْ	عُيُونُهُمْ أَدْمَعًا تُهْمِي زَكَا وَ خَسَا ⁽²⁾

يوجه ابن الأبار نداءه لأبي زكريا الحفصي ، يحثه على التصدي لأعداء الدين و ردهم على أعقابهم خاسرين يجرون أذيال التعاسة صاغرين ، فنجدة الأندلس و فك أسرها مقصورة على الممدوح دون سواه ، و آمال انقادها من أيدي الغزاة الأوروبيين معقودة عليه ، و قد ترددت الأخبار و التوقعات بأن أبا زكريا الحفصي هو المنقذ المنتظر لتخليص الأندلس و فك أسرها ، و هي إشارة ضمنية إلى فكرة المهدوية التي تبناها الموحدون لتحقيق أهدافهم السياسية ، و استمر الاعتراف بها في المرحلة الأولى من عمر الدولة الحفصية .

و يواصل ابن الأبار الاستنجاد للأندلس بالسلطان أبي زكريا ، فيدعوه لطردهم الغزاة منها فقد بايعه أهلها و دخلوا في حماه ، واصفا الغزاة بالنجاسة التي أصابت بلده ، و تبرز ثقافة ابن الأبار الدينية من خلال توظيف بعض العبارات الفقهية في شعره ، و لا يكتفي الشاعر بالدعوة لتحرير بلده فحسب ، بل يدعو ممدوحه إلى

(1)- عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، ص 305 .

(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 399 .

إرسال جيشه الضخم لملاحقة الغزاة الصليبيين في عقر دارهم ، و العمل على
إذلالهم و إهانتهم ، ونصرة المسلمين الذين بايعوا السلطان بشرق الأندلس وعانوا
هول الاحتلال و تجرعوا مرارة العدوان .

7 - المدح بالحلم :

من القيم و الصفات و الخصال التي تعلي من قدر الإنسان و ترفع مكانته بين الناس ، صفة الحلم أو العفو عند المقدرة ، و قد تحلى بها العرب منذ جاهليتهم الأولى و اتخذوها سلما للمجد في حياتهم و مطية للذكر الحسن بعد موتهم ——— ، و ضربوا في ذلك أروع الأمثلة ، و قد حرص الحكام و الأمراء على أن يوصفوا بها ، و دأب الشعراء على توظيف الحلم في مدائحهم كعنصر محوري هام قادر على تحقيق هدف الشاعر من المديح من جهة و الاستجابة لرغبة الممدوح و دغدغة عواطفه من جهة أخرى ، و يزداد الأمر إلحاحا على المدح بالحلم إذا كان الممدوح حاكما أو أميرا أو قائدا ، و قد ركز ابن الأبار على غرار غيره من الشعراء على وصف الحكام الحفصيين بالحلم ، من خلال مدائحه لهم خلال اقامته في كنفهم بتونس و بجاية .

و يمدح ابن الأبار السلطان أبا زكريا الحفصي بالحلم ، من قصيدة على روي العين من بحر الكامل فيقول :

مِنْ زَاهِرَاتِ حُلَاهُ حِلْمٌ بَارِزٌ أَعْيَا مُعَاوِيَةَ* وَ عِلْمٌ بَارِعٌ⁽¹⁾.

إن أهم ما يتصف به الممدوح و أسنا ما يتحلى به من سجايا و خلال رفيعة ، صفة الحلم التي فاق فيها كل ملوك الأرض و أشهر من وصف بهذه السجية ، فمعاوية الذي يضرب به المثل في الحلم يقف عاجزا عن بلوغ حلم السلطان الحفصي — أبي زكريا — كما أن الممدوح قد جمع إلى جانب الحلم ، شتى أنواع العلوم و المعارف .

(1) - المصدر السابق : ص 357 .

* - هو معاوية بن أبي سفيان أحد الصحابة ، و مؤسس الدولة الأموية سنة 41هـ ، بعد أن تنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهم على الخلافة الإسلامية ، و يروى أنه كان أكثر الناس حلما ، و أوسعهم عفوا ، و أشدهم إغضاء عن نابذه ، و أحسنهم احتمالا لمن عازه و عانده ، و كان يتمثل بقول الشاعر :
إِنِّي أَرَى الْحِلْمَ مَحْمُودًا مَغْبِيَّةً وَ الْجَهْلَ أَفْنَى مِنَ الْأَقْوَامِ أَقْوَامًا . للمزيد ينظر/ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : الفاضل ، تحقيق/ عبد العزيز الميمنى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط 2 ، 1995م ، ص 86 - 88 .

و يقول كذلك من قصيدة على روي الهاء من بحر الوافر ، مادحا السلطان أبا زكريا بالحلم :

وَ حَيَا السَّمَاحَ إِذَا السَّحَابُ لَمْ تَجِدْ يَحْيَى كَفَى اسْتِسْقَاءَهَا كَقَّاهُ
فُضِّلُ الْمُلُوكِ سَجَاحَةً وَ سَمَاحَةً دَنَى فَوَاضِلُهَا الْغَنَى وَ الْجَاهُ
أَهْلًا يَعَصِرُ زَانَهُ سُلْطَانُهُ لَا حُسْنُهُ خَافٍ وَ لَا حُسْنَانُهُ
وَ بَعِيدٍ فِطْرٍ لِلْفَتْوحِ مُعَقِّبٍ كَالْيَوْمِ أَعْقَبَ صُبْحَهُ بَضْحَاهُ⁽¹⁾.

يصف ابن الأبار السلطان أبا زكريا الحفصي ، بأن حلمه و عفوه عن المخطئين شامل شمول المطر ، فحلمه و عفوه على رعيته بمنزلة السحاب بالنسبة للأرض ، بل أكثر من ذلك ، فإذا منعت السحب ماءها عن الأرض و بخلت به فإن كفي الممدوح لا تتوقف عن الصفح و السماح ، كما أنه أكثر الملوك لنا و سهولة مع رعيته ، و أنه سمح الخلق طيب المعشر ، وقد ازدان العصر بالممدوح و بطلعته الحسنة و بأعماله الخيرة و إحسانه الشامل ، و قد وافق ذلك قدوم عيد الفطر الذي يعد مناسبة عظيمة للتسامح و العفو و الحلم ، حيث عفا فيه السلطان على الشاعر الذي امتلأت نفسه سرورا و غبطة ، فانطلق لسانه بالشكر و الثناء ، و وصف ما يتحلى به الممدوح من صفات الحلم و الرفق و السماحة ، كما يجعل الشاعر من هذه المناسبة — عيد الفطر — مدعاة للتفاؤل بالفتوح التي ستتحقق في مختلف الجهات .
و يمدح أبا زكريا و الحفصيين جميعا بالحلم — كذلك — من قصيدة على روي الضاد من بحر الطويل :

وَ مَا اسْتَنْهَضَتْ عَلَيْكَ لِلصَّفْحِ وَ الرِّضَى وَ إِنَّ عَظَمَ الْإِجْرَامُ، إِلَّا وَفَتْ نَهْضًا
كَذَا الْمَلَأَ الْحَقْصِيُّ إِنْ قَدَرُوا عَقْوًا فَلَا دُعَرَ يَسْتَقْصِي وَ لَا عُذَرَ يُسْتَقْضَى⁽²⁾
إن حلم السلطان أبي زكريا كبير و عفوه لا تحده الحدود ، فسجية العفو و الصفح لديه متحفزة دائما للاستجابة لمن استثارها بطلب الصفح و سعى لنيل العفو

(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 409 - 410 .

(2) - المصدر نفسه : ص 347 .

و الرضا ، فالممدوح لا يرد المعتذر و إن عظم الذنب و كبرت الجريمة ، فصدره يتسع ليشمل الجميع ، فالحلم من شيم الحفصيين ، و العفو من خصالهم ، فلا خوف يلاحق المخطئ و لا اعتذار يطالب المسيء بقضائه .

من الفضائل التي مدح بها ابن الأبار الحكام الحفصيين ، الحلم و العفو و التسامح ، فالحلم هو أن تعفو عن ظلمك و أخطأ في حقك و أنت قادر على عقوبته ، فالحلم ألصق ما يكون بأشخاص القادة و الحكام و السلاطين ؛ لقدرتهم على العقاب ، من هذا المنطلق فقد ركز ابن الأبار مدائحه للحفصيين على هذه الصفة الخلقية العالية ، فممدوحيه قد أصبحوا مضرب المثل في الصفح و التسامح ، بل لقد تفوقوا — حسب — على النماذج العالية في الحلم التي عرفها تاريخ العرب و المسلمين ، كما كان لحياة ابن الأبار في البلاط الحفصي و ما تعرض له من غضب الحفصيين عليه في الكثير من المناسبات ، دافعا كبيرا في تركيزه على هذه الصفة ؛ استدرارا لعطفهم و طلبا لعفوهم ، بعد الهفوات و الزلات التي بدرت منه ، و تسببت في إبعاده من البلاط الحفصي و نفيه إلى بجاية مرات عديدة ، فكانت وسيلته إلى استعادة ثقة الحفصيين به و رضاهم عنه ، هي وصفه لهم بالحلم و التسامح ، و التتويه بهم من خلال ذلك في الكثير من المناسبات ، و في العديد من المواقف و المقامات التي أتيحت له فيها فرصة مدح الحفصيين .

8 - المدح بالعلم :

لقد عمل الحفصيون على ازدهار الحركة العلمية و الثقافية في مملكتهم الفنية التي تحولت إلى قبلة للعلماء يؤمنونها من كل حذب و فج عميق ، و اشتهرت في عهدهم العديد من المراكز الثقافية التي عرفت نشاطا متزايدا منها: تونس و القيروان و بجاية ... كما فتح الحكام الحفصيون أبواب الهجرة واسعا أمام العلماء و الأدباء الأندلسيين الذين توافدوا بأعداد غفيرة على المملكة الحفصية ، و هذا الأمر ليس بالغريب على بني حفص الذين شغفوا بطلب العلم و تحصيل المعارف ، فقد كان من حكام هذه الدولة العلماء و الشعراء و الفقهاء كالسلطان أبي زكريا و بنيه ، فأصبحت المملكة الحفصية توصف بدولة العلم و العلماء ، و قد مدح الكثير من الشعراء الخلفاء الحفصيين بالعلم و الأدب و أطنبوا في ذلك كثيرا ، و منهم ابن الأبار القضاعي .

قال ابن الأبار يمدح أبا زكريا في أوائل التجائه إلى تونس ، من قصيدة على روي اللام من بحر البسيط :

تَفَجَّرَ الْعِلْمُ مِنْ عَلِيَا شَمَائِلِهِ كَمَا يَسُحُّ بَوْسَطِ الرُّوضِ سَلْسَالُ⁽¹⁾ .

إن الممدوح قد بلغ من العلم مبلغا كبيرا ، فقد أصبح العلم من صفاته التي تميزه ، و لقد جمع من العلوم و المعارف رصيذا ضخما ، فهو يتفجر منه و ينسكب كانسكاب الماء و جريانه بين الحقائق الغناء و الرياض المورقة ، فعلم الممدوح في افادة الرعية و نفعها كفاءة الماء للنبات .

و قال كذلك يمدح السلطان أبا زكريا بمناسبة إسناده ولاية العهد لابنه محمد

المستنصر سنة (646هـ) من قصيدة على روي النون من بحر الطويل :

لَهُ الْعِلْمُ سَيْمًا وَ السُّمُو عِلَامَةً فَيُوتِيكَ مُفْتَرًّا وَ يُفْتِيكَ مُقْتَنًا
وَ مَا هُوَ إِلَّا الطَّوْدُ فَضْلَ رَجَاحَةٍ وَ إِنَّ هَزَّةَ إِنْشَادٍ مَادِحِهِ غُصْنًا⁽²⁾

(1) - المصدر السابق : ص 247 .

(2) - المصدر نفسه : ص 298 .

إن أبا زكريا جمع من العلوم و المعارف حتى أضحى العلم سمة لا تفارقه
و ارتقى في سلمه درجات ، و قد تحلى بصفات العلماء و نباهة الفقهاء ، كما شبه
الشاعر ممدوحه في راحة عقله في العلم و رسوخ قدمه فيه بالجبل الضخم الذي لا
يعرف التغير و يصيبه الاضطراب ، و مع صرامته العلمية و ثقل فكره فهو رقيق
النفس مرهف الحس سريع الاستجابة للمكارم و المحامد عند المدح ، فيهتز لها طربا
كأنه غصنا حركه النسيم .

و قال يمدح أبا زكريا من قصيدة على روي الميم من بحر الطويل :

يُفِيدُ فُنُونَ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالنَّدَى وَ أَحْظَى الْمَوَالِي عِنْدَهُ مَنْ تَعَلَّمَ⁽¹⁾

إن الممدوح قد بلع من العلم و المعرفة في شتى فنونها و فروعها مبلغا كبيرا ،
فأسهم في تطور الحركة العلمية و الأدبية و ازدهارها ، إلى جانب حلمه و كرمه ،
و إن أكثر مواليه و رعاياه قربا منه هم العلماء و الأدباء و المثقفين .

و قال يمدح ولي العهد أبا يحيى حاكم بجاية عند زيارته تونس ، من قصيدة
على روي الياء من بحر الوافر :

و لَا يَدْعُ اقْتِنَاءَ الْعِلْمِ وَقْتًا فَهَآ هُوَ مِنْهُ فِي شَبَعٍ وَ رَيٍّ⁽²⁾

يصف ابن الأبار الأمير الحفصي بحرصه الشديد على العلم ، فقد أصبح
طلب العلوم و تحصيل المعارف الشغل الشاغل للممدوح ، فاستغرق فيه كل وقته ،
فبلغ غايته منه و غذى فكره به و ارتوى من معينه ، و لا غرو في ذلك فقد عرفت
الدولة الحفصية بحرصها الشديد على تقريب العلماء و إحاطتهم بالرعاية و العناية ،
و من ذلك فتحتها لأبوابها أمام الجموع الغفيرة من العلماء و الأدباء الأندلسيين
النازحين عن وطنهم و تسهيل أقامتهم في كنفها .

(1) - المصدر السابق : ص 272 .

(2) - المصدر نفسه : ص 429 .

لقد بذل حكام الدولة الحفصية غاية جهودهم لتشجيع العلماء و الأدباء و تقريبهم منهم ، و إقامة المنشآت العلمية التي أمها الطلاب من كل مكان ، مما أحدث نهضة و ازدهارا في الحياة الثقافية بالامارة الفتية ، فقد كان أبو زكريا الحفصي معدودا من العلماء و الشعراء المجيدين لفنونه و أغراضه ، و سار على نهجه ابنه المستنصر ، فاستغل ابن الأبار شغف الأسرة الحفصية بالعلم ، و أقبل يمدحهم به و يشيد بأفضالهم على الحياة العلمية و الأدبية و بمكانتهم و رسوخ قدمهم في مختلف العلوم و شتى المعارف ، حتى أضحت الإمارة الحفصية منارة تعرف بدولة العلم و العلماء أكثر من كونها دولة عسكرية أو سياسية على خلاف بقية الدول .

9- المدح بالدين و الورع :

من الموضوعات التي دارت حولها قصيدة المديح العربية منذ مجيء الإسلام ، المدح بالدين و الورع و إبراز الممدوح في صورة الحريص على إقامة شعائر الإسلام و معاقبة كل من تسول له نفسه تجاوز حدود الدين و الإخلال بقواعده الثابتة و مبادئه السامية ، و يزداد هذا الموضوع في قصيدة المديح العربية إلحاحا إذا ما كان الممدوح حاكما و مسؤولا على إقامة شريعة الله في رعيته و حياطة المجتمع و تحصينه ، و من هذا المنطلق فقد سعى ابن الأبار إلى الإعلاء من شأن الحكام الحفصيين ، و التأكيد على البعد الديني في شخصيتهم و وصف انتصاراتهم التي تعد نصرا للإسلام و نشرنا لتعاليمه و مثله الرفيعة .

يقول ابن الأبار يمدح أبا زكريا الحفصي بالتدين ، من قصيدة على روي الهاء من بحر البسيط ، و ذلك بمناسبة بيعة حاكم سجلماسة له سنة (640هـ) :

بُشِّرَى سِجْلَمَاسَةَ أَعْطَتْ مَقَادَتَهَا يَدَيَّ إِمَامٍ مُعَاطِيهَا أَيَادِيهِ
وَ فِي الدِّيَانَةِ أَسْبَابُ الْقِيَامِ بِهَا فَأَقْبَلْتُ عِنْدَهَا الدُّنْيَا ثَوَافِيهِ
عَلَيْهِ اللَّهُ فِي حُكْمِ الْإِمَامَةِ أَنْ يَرَعَى مَحَارِمَهَا وَ اللَّهُ رَاعِيهِ
أَفَاضَ رَحْمَتَهُ فَانْقَضَ مَعْشَرُهَا إِلَيْهِ مِنْ حَوْلٍ فَظَّ الْقَلْبُ قَاسِيهِ⁽¹⁾ .

لقد حلت البشري بسجلماسة التي بايعت السلطان و دخلت في حماه راضية مطمئنة ، بأن تسلم أمرها إمام عرف بالتدين و تقوى الله ، الأمر الذي خوله الحكم و القيادة ، فستقام له الملك و تحققت سيادته على البلاد التي جاءت طائعة ، فبرعايته للدين و استجابته لأوامره و نواهيه ، استجاب الله له و حفظه و تولاه فيمن تولى ، فقد أنزل الله رحمته على السلطان ، فسارع الناس إليه و التفوا حوله و تخلوا عن الحاكم السابق لقسوة قلبه و جوره و استبداده برأيه .

* - في هذا البيت إحالة صريحة على قوله تعالى : ((فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ ظَنَّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَنُقَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)) . سورة آل عمران : الآية 159 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 411 - 412 .

و يقول — أيضا — يمدح أبا زكريا بمناسبة فتحه تلمسان و افتكاكها من يدي
يغمراسن — مؤسس الدولة الزيانية — سنة (640هـ) ، من قصيدة على روي
الهمزة من بحر البسيط :

عَضِبْتَ لِلَّهِ تَسْتَرْعِي فَرَائِضَهُ فَجِئْتَ تَرْمِي بِسَهْمٍ لَيْسَ يَخْطُهُ
وَ قُمْتَ لِلدِّينِ إِقْصَاحًا لِنُصْرَتِهِ فَاسْحَقَرْتَ عِنْدَهَا الدُّنْيَا تُهَيِّئُهُ
قَدْ كَانَ مُنْتَهَكًا جِسْمُ الْهَدَى مَرَضًا وَ أَنْتَ رُوحٌ لَهُ مَا زِلْتَ تُبْرِئُهُ
لِلَّهِ جَيْشُكَ وَ الْأَسْطُولُ قَدْ ضَمِنَا لِلْمُقْتَدِي بِالْهَدَى سَيْرًا يُهْدِيهِ
تَسَاوَقَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اسْتَبَقَا فَاسْتَوْسَقَ النَّصْرُ أَوْفَاهُ وَ أَبْطَوَّهُ (1) .

يرى الشاعر أن إقدام السلطان أبي زكريا على فتح تلمسان دافعه ديني ،
و كانت غضبته لله و للإسلام الذي انتهكت حرمة و تهاون حكام تلمسان في القيام
بفرائضه و شعائره ، و قد قام الممدوح بواجبه في نصره الدين و معاقبة التجاوزين
لأوامره و نواهيه ، فكان ذلك سببا في التقاف الناس حوله و مبايعتهم له ، فالسلطان
قد أعاد للإسلام مجده في هذه الربوع و رفع رايته من جديد ، و قد تحقق له النصر
بفضل جيشه بشقيه البري و البحري ، و قد جعل جيشه وقفا للجهاد في سبيل الله ،
فحاز الممدوح الفوز العاجل في المعركة و الفوز الآجل بنيل ثواب الآخرة .
و قال — كذلك — يمدح أبا زكريا الحفصي ، من قصيدة صادية على بحر
الطويل :

هُوَ الْقَائِمُ الْمَنْصُورُ بِالْدِّينِ وَ الدُّنْيَى وَ صَافِيهِمَا فِي قَوْمِهِ الصَّوْفَةُ الْخُلَصُ (2) .
إن أبا زكريا قد تبوأ الزعامة الدينية باعتباره خليفة للمسلمين ، و الزعامة
الدنيوية باعتباره ملكا بايعه الناس لتولي قيادة مملكته المترامية الأطراف ، فقد جمع
في حكمه الشرعية الدينية و الشرعية الدنيوية ، كما أنه قد رزق البطانة الصالحة

(1) - المصدر السابق : ص 41 - 42 .

(2) - المصدر نفسه : ص 335 .

فكل مقربيه و المحيطين به هم من الصفوة الأخيار الذين صفت قلوبهم و تطهرت نفوسهم بنور الإيمان و تشربوا العقيدة تشربا كاملا .

و قال يمدح أبا زكريا من قصيدة على روي الصاد من بحر الطويل :

حَرِيصًا عَلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ وَ نَصْرَهُ وَ لَيْسَ عَلَى الدُّنْيَا بِمُسْتَبْطِنٍ حَرِصًا⁽¹⁾ .

يصف الشاعر ممدوحه بالتدين و الحرص على العقيدة الإسلامية السمحة ، كي لا تشوبها شائبة و لا تمتد لها يد الغدر و العبث ، كما يحرص أبو زكريا على نصرة الدين الحنيف و التصدي لكل من تسول له نفسه تدنيسه أو تجاوز حدوده ، باعتباره حاكما مسؤولا عن حماية المجتمع الإسلامي و رعاية المبادئ الإسلامية ، فالوازع الديني عند الخليفة قوي و عاطفته الإسلامية جياشة ، أما الدنيا بمباهجها و ملذاتها فلا تحتل من قلبه مكانا ، و حرصه عليها ضعيفا إذا ما قيس ذلك بحرصه على الدين الحنيف ، فهو من يملك الدنيا و ليست هي من تملكه ، لقد قطع الممدوح صلته بالدنيا إلا بالمقدار الذي تنتظم به أمور الحكم و تستقيم عليه شؤون الرعية ، و بالمقابل فقد ربط قلبه بأسباب السماء و تمسكت يداه بحبل الله المتين .

لقد كان لعاطفة التدين التي ميزت حكام الدولة الحفصية باعتبارهم الورثة الشرعيين للموحدين ، هؤلاء الذين قامت دعوتهم على أسس دينية صريحة ، الأثر الكبير في تركيز ابن الأبار مدائحه للحفصيين على صفة التدين و الورع ، فهم — في نظره — حماة الدين و العقيدة الإسلامية في هذا الإقليم من غرب الدولة الإسلامية ، الرافعون للوائه الناشرون لتعاليمه و قيمه ، الحريصون على سلامته ، و قد كان السلطان أبو زكريا من كبار العلماء العاملين و الفقهاء المجتهدين ، و تبعه ابنه المستنصر ، فكان مدح ابن الأبار لهم بالتدين و الورع لعلمه أن استجابتهم للدفاع عن حياض المسلمين ستكون تلقائية و غير مشروطة ، من هنا فقد حرص على وصفهم بالتدين ، و أطنب في نعتهم بالورع في جل المناسبات التي سنحت له فيها فرصة مدحهم .

(1) - المصدر السابق : ص 342 .

لقد قصر ابن الأبار جل مدائحه في المرحلة الحفصية من حياته على العائلة الحفصية الحاكمة — في الغالب الأعم — و لم يقع في ديوانه مديحا للسادة و القادة و الوجهاء من غير الحفصيين إلا في النزر القليل .

لقد حاول الشاعر ربط حبال الود بينه و بين الحفصيين من خلال مدائحه التي وجهها إليهم و بالقدر الذي أسعفته به شاعريته ، فقد حالفه التوفيق حيناً و خالفه في أحيان كثيرة ، و كان خلال إقامته لدى الحفصيين يتأرجح بين موقفين : تقريبه من البلاط مرة و إبعاده عنه مرة أخرى ، و كان عرضة للتوبيخ و اللوم في الكثير من المناسبات ، بل لقد لاحقه غضب الحفصيين بالنفي و العقاب الذي و صل به آخر المطاف إلى القتل .

و يمكن إيعاز هذا الأمر إلى العديد من الأسباب الذاتية و الموضوعية منها : شخصية الشاعر الصعبة و أنفته و اعتزازه المفرط بنفسه ، و إزرائه بكل ما ليس أندلسياً ، بالإضافة إلى خصومه و حساده و منافسيه داخل البلاط ، كما لا ننسى ما للفترة التي أقام بها بالمملكة الحفصية ، من خصوصية لا يمكن إغفالها و هي مرحلة التأسيس و إرساء القواعد التي تنتم — عادة — بالصرامة و قلة التسامح مع المخطئين .

أما عن موضوعات مدائح ابن الأبار في البلاط الحفصي ، فلم تبتعد عن التقاليد الموروثة في القصيدة العربية ، لا في مبانيها و لا في معانيها و أساليبها و ألفاظها ، فقد كان وفياً للتقاليد الشعرية العربية التي ينهل من معينها الذي لا ينضب و يأوي إلى ركنها الحصين ، و لم يشد عنها إلا في تلك الخصائص التي تمنحها البيئة و يفرضها روح العصر أو تخضع للفروق الفردية القائمة بين الأشخاص — حسب تعبير علماء النفس — و قد تمكن ابن الأبار من استلهم هذا الموروث الشعري العربي و التجاوب معه ، حيث أعاد إنتاجه من جديد مع شيء من التحوير ، لتحقيق الانسجام و التكيف مع معطيات المكان و مقتضيات الزمان ، الأمر الذي جعله يتناص في الكثير من المناسبات مع ما أبدعته قرائح أسلافه من

الشعراء في المشرق و المغرب ، شأنه في ذلك شأن شعراء عصره الذين اكتفوا — في الغالب — بتكرار ما قاله أسلافهم في هذا المضمار،

كما ألقت ثقافة ابن الأبار الدينية — بعده فقيها — ظلالها على مدائحه لفظا و معنا ، فقلما تخلو قصيدة أو مقطوعة من إحالة صريحة أو ضمنية إلى بعض آيات القرآن الكريم و الحديث الشريف أو العبارات الشرعية المتداولة على ألسنة الفقهاء . و قد تحدث سامي الدهان عن ظاهرة التكرار التي آلت إليها قصيدة المديح العربية فقال : ((و ضاقت سبل الاختراع فأعادوا الصور و التراكيب ، و تضاعلت ينباع المديح و خف معينه ، فلن يرتوي الشعراء من بحر خضم كما كانوا ، و لذلك ألحوا على القديم و بدلوا في مبانيه و صورته ، و أعادوا و كرروا حتى سقط المديح البليغ ، كما سقط العالم السياسي للإسلام في ظلمات داجية))⁽¹⁾ .

و لم يخلق الشاعر عاليا في عالم الإبداع الشعري إلا بمقدار ما أمدته به شاعريته ، و كان الطابع العام لمدائحه هو تسجيل الأحداث و سرد الوقائع و رواية الأخبار في غالب الأحيان ، فجاءت قصائده أشبه بوثيقة تاريخية إضافية للأحداث و الوقائع التي عرفها القرن السابع الهجري ، و تاريخ الدولة الحفصية في مرحلة النشأة و التأسيس ، و هذا الأمر متوقع من شخصية معروفة بالتاريخ و الفقه أكثر من معرفتها بالشعر ؛ فهو مؤرخ شاعر و ليس شاعرا مؤرخا ، و مع ذلك فإننا لا نعدم الكثير من مواطن الجودة و معانقة الخيال الشعري في تلاحم قلما يحصل للشعراء الموهوبين ذوي الشاعرية الفذة و الموهبة المبدعة .

و استند الشاعر إلى قاموس لغوي عربي فصيح ، و ابتعد عن الغرابة في اللفظ و المعاضلة في المعنى ، مع الجنوح للصنعة اللفظية و المحسنات البديعية من أجل خلق جوا موسيقيا مشحونا بالأفكار و المعاني التي يريد أن يوحى بها ، و مستجيبا — بذلك — للمناسبة التي قال فيها قصيدته .

(1) - سامي الدهان : المديح ، ص 12 - 13 .

و كان ابن الأبار — بمسلكه هذا — مسائرا لطابع عصره الذي عرف أهله توظيفا كبيرا لهذه الأساليب التعبيرية ، و هي سمة ميزت الأدب في مرحلة الضعف و الانحطاط التي آذنت بقدمها في الفترة التي عاش فيها الشاعر أو قبلها بقليل .

لقد غدا الشعر خلال هذا العصر صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية ؛ لأن شعراء هذا العصر قد أفرطوا في تنميق شعرهم بألوان البديع و أثقلوه بأصناف المحسنات ، و ازداد كلفهم بالألفاظ و قلت عنايتهم بالمعاني ، و تحول مقياس الجودة عندهم إلى الشكل على حساب المضمون ، و لعل للأوضاع السياسية التي ميزت عصر ابن الأبار و إقامته في البلاط الحفصي ، دورا حاسما في جنوحه نحو هذه الأساليب البديعية و الميل إلى الزخرفة اللفظية ؛ لما يتطلبه المقام من حذر و التواء و تورية في مخاطبة هؤلاء الحكام ، خوف غضبهم و خشية بطشهم و رغبة التقرب منهم و نيل الحظوة عندهم .

((و لا شك أن هذه الزخرفة قد وجدت هوى في نفس الشاعر الذي كان يميل تبعا لطبيعة عصره إلى تنميق أسلوبه على هذا النحو))⁽¹⁾ .

و قد ركز ابن الأبار مدائحه لحكام الإمارة الحفصية في هذه الموضوعات و محاسن الصفات ، و رأى فيها القدرة على التتويه بسيرة ممدوحيه و الارتفاع بهم إلى أعلى درجات المجد و الفضيلة ، و تحسين صورتهم لدى عامة الناس و خاصتهم .

(1) - عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، ص 305 .

الفصل الثالث

البناء و الصورة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي

أ - البناء الشعري

1- توطئة نظرية

2- القصيدة المركبة

— مقدمة القصيدة

— التخلص والخروج

— خاتمة القصيدة

3 — القصيدة البسيطة

ب - الصورة الشعرية

1- توطئة نظرية

2- أنواع الصورة

— الصورة المباشرة

— الصورة البيانية

— الصورة العقلية

تكشف القراءة المتأنية لقصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي ، الكثير من المظاهر الفنية من حيث الشكل المعتمد في بنائها ، أو عنصري الخيال و الصورة الشعرية فيها ، فقد استجاب للشكل الفني للقصيدة العربية القديمة ، غير أن هذه الاستجابة لم تكن تامة ، و جاءت مدائحه على نمطين : قصائد مركبة متعددة الموضوعات ، و قصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، كما أسقط بعض أنواع المقدمات و بعض أجزائها التي لا تتلاءم مع روح العصر و طابع البيئة...

و لم يخرج في صورته و معانيه عن هذا الإطار الفني المتوارث ، إذ حاكى أسلافه من الشعراء العرب القدماء ، و تنوعت صورته بين صور مباشرة و بيانية و عقلية ، و تميزت بالحسية ، و نزع فيها إلى العقل و المنطق و المباشرة ؛ لسيطرة المقاييس العلمية عليه و امتزج فيها الفكر بالفن .

أ - البناء الشعري:

1 - توطئة نظرية :

قسم حازم القرطاجني (ت684هـ/1285م) أنماط الشعر العربي وأشكاله إلى قسمين : قصائد ومقطعات ، ويميز القصيدة المركبة من القصيدة البسيطة المستقلة الموضوع فقال : ((والقصائد منها بسيطة الأغراض ومنها مركبة ، والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا ، أو رثاء صرفا ، والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين ، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح ، وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق ، لما ذكرناه من ولع النفوس بالافتتان في أنحاء الكلام وأنواع القصائد))⁽¹⁾.

و قد اعتنى الدارسون لتراثنا الأدبي - قبل حازم - و منذ وقت مبكر بشكل و بناء القصيدة العربية المركبة و أولوها اهتمامهم و رصدوا أهم ظواهرها و معظم أجزائها و عناصرها المكونة لها ، و يأتي ابن قتيبة (ت276هـ/889م) في

(1) - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 303 .

طليعة هؤلاء النقاد و الدارسين ، فقد حظيت قصيدة المديح العربية عنده بالرعاية و العناية و الدرس ، بغرض استجلاء صورتها و إرشاد الشعراء إلى السبيل الأمثل في بناء قصائدهم المدحية و تحقيق مقاصدهم المادية و غاياتهم الفنية فقال : ((و سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار و الدمن و الآثار ، فبكى و شكا ، و خاطب الربع ، و استوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمدة في الحول و الطعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، و انتجاعهم الكـلاً ، و تتبعهم مساقط الغيث حيث كان .

ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد و ألم الفراق ، و فرط الصباغة و الشوق ، ليميل نحوه القلوب ، و يصرف إليه الوجوه ، و ليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، و إلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب ، ضاربا فيه بسهم ، حلال أو حرام .

فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، و الاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، و شكا النصب و السهر ، و سرى الليل و حر الهجير ، و إنضاء الراحلة و البعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، و ذممة التأمل ، و قرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، و هزه للسماح ، و فضله على الأشباه ، و صغر في قدره الجزيل ، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، و عدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ، و لم يطل فيمل السامعين ، و لم يقطع و بالنفوس ظماء إلى المزيد))⁽¹⁾.

لقد كان ابن قتيبة من النقاد الأوائل الذين اعتنوا بتحديد الشكل الأمثل و الهيكل العام الذي يجب أن يتوفر في القصيدة العربية بوجه عام و قصيدة المديح بوجه

(1) - ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، ج 1 ، ص 75 - 76 .

خاص ، من خلال هذه الفقرة السالفة الذكر التي ضمنها كتابه الشعر و الشعراء ، و احتوت على أهم العناصر الواجب توفرها في القصيدة العربية المركبة ، و تبدأ بالوقوف على الأطلال ، و هو التقليد الشائع الذي رسخته التجارب الشعرية منذ العصر الجاهلي ، ثم ينتقل الشاعر إلى النسيب و حديث الغزل ، مستعرضا أشواقه و ذكرياته و عوطفه التي يكنها لأحبته المغادرين لهذه الديار و المرتحلين عنها — على عادة العربي الذي يعيش على الحل و الترحال طلبا للماء و الكلاً — ثم ينتقل الشاعر للحديث عن رحلته إلى الممدوح ، و المتاعب و الأخطار التي تجشمها للوصول إليه ، مستعرضا لمشاهد الصحراء و مناظرها و ما تقع عليه عيناه من حيوانها و نباتها و تلالها و تلاعها ، واصفا خلال ذلك راحلته التي أجهداها المسير و أتعبها السفر وصولا إلى الممدوح ، و تعد هذه الوقفة الطللية الموصولة بالنسيب ووصف الرحلة و الراحة ، عنصرا بنائيا هاما و مفصلا أساسيا في القصيدة العربية ، وظيفته التمهيد للغرض الأساسي الذي أراده الشاعر — و تحضيرا نفسيا للمتلقي حتى يقبل على متابعة الاستماع إلى القصيدة بأذن صاغية و نفس منشرحة ، بعدها يتخلص الشاعر في قصيدته إلى غرضه الأساسي منها كالمدح أو الهجاء أو الرثاء... ثم يختتم قصيدته بما يناسب ذوق الممدوح ، و ما يبعثه على المكافأة و إجزال الهدية .

و لا ينسى ابن قتيبة — عند حديثه عن هيكل القصيدة العربية — تحليل كل عنصر من عناصرها و تبرير إقدام الشاعر عليه و أثر ذلك على الشاعر و المتلقي معا ، مع مراعاة بعض الضوابط الضرورية كالتوازن بين هذه العناصر ، فلا يكون عنصرا طاغيا على عنصر ، و حسن التخلص من موضوع إلى آخر حتى لا يشعر السامع بانتقاله إلى موضوع آخر من موضوعات قصيدته إلا بعد أن يقع فيه .

و يذكر عز الدين إسماعيل معلقا على ما قاله ابن قتيبة : ((و نحن نذهب منذ البداية إلى أن تفسير ابن قتيبة ليس صحيحا ، أو هو — على الأقل — ليس كافيا ، و سوف يتضح هذا في أوانه ، و لكن يكفي أن نتذكر هنا حقيقة على جانب كبير من

الأهمية ، و هي أن الالتزام بهذا التقليد في مستهل القصيدة كيما يؤدي وظيفته التي نص ابن قتيبة عليها ، قد جعل هذه المقدمة مع مضي الزمن شيئاً ممجوجاً ، ذلك أن حقيقتها الأولى كانت قد توارت كلية خلف التفسير الذي تقدم به ابن قتيبة ، و من ثم كان من الطبيعي أن نجد شاعراً صادق الحس مثل أبي نواس ، يشعر بتفاهة الغرض المطلوب منه الذي حدده ابن قتيبة ، فإذا به يهاجم هذا التقليد و ضرورة التزامه ، مركزاً حملته على الجزء الأول من هذا التقليد و هو الوقوف على الأطلال⁽¹⁾ .

و في الحالات كلها ، فإن ابن قتيبة قد فتح أبواباً على دراسة الشعر من حيث هو بناء و تركيب ، و تبقى جدلية قبول هذا الطرح من الكاتب محل إثارة و تشويق عند القراء و الدارسين معا .

و يشيد ابن رشيق بحسن افتتاح القصيدة و براعة استهلالها و حسن التخلص من جزء إلى جزء و الغاية المتوخاة من كل ذلك فيقول : ((لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ، و مطية النجاح ، و لطافة الخروج إلى المديح ، سبب ارتياح الممدوح ... و بعد فإن الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره لأنه أول ما يقرع السمع ، و به يستدل على ما عنده من أول وهلة))⁽²⁾ .

و يضيف قائلاً : ((و للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب ، و استدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل و الميل إلى اللهو و النساء ، و إن ذلك استدراج إلى ما بعده))⁽³⁾ .

و أعاب ابن رشيق على الشعراء تخليهم على المقدمة في قصائدهم ، و دخولهم للغرض الذي أنشئت لأجله القصيدة دون تمهيد و لا توطئة ، فقال : ((و من الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب ، بل يهجم على ما يريد مكافحة ، و يتناوله مصافحة ، و ذلك عندهم هو : الوثب ، و البتر ، و القطع ، و الكسع ،

(1) - عز الدين اسماعيل : روح العصر ، دار الرائد العربي ، لبنان ، 1978م ، ص 15 - 16 .

(2) - ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نفعه ، ج 1 ، ص 217 - 218 .

(3) - المصدر نفسه : ج 1 ، ص 225 .

و الاقتضاب ... و القصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء
و القطعاء))⁽¹⁾ .

لقد بالغ النقاد في توجيهاتهم و أحكامهم التي أصدروها فيما يخص طرق بناء
القصائد و المعايير و العناصر الواجب توفرها ، و حثهم الشعراء على التقيد بها ،
فأوشكت القصيدة أن تتحول على أيديهم إلى قالب جاهز ، و شكل جامد لا حياة فيه ،
و الحد من حرية الشاعر و إلغاء ذاتيته و تعليل مشاعره و دوقه الفني .

غير أن من النقاد من ألح على أهمية ترك الحرية للشاعر في بناء قصيدته ،
و اختيار عناصر مقدمته أو التخلي عنها كلياً تبعاً لما تمليه عليه بيئته و ميولات
عصره ، و ما تفرضه عليه المواقف المستجدة في زمانه ، مع مراعاة مقتضى
الأحوال و المواقف ، و من هؤلاء ضياء الدين بن الأثير (ت638هـ / 1240م) حين
قال : ((إذا نظم قصيدا أن ينظر ، فإن كان مديحا صرفا ، لا يختص بحادثة من
الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها أو لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من
أولها ... و أما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث ، كفتح مقفل أو هزيمة جيش
أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل ، و إن فعل ذلك دل على ضعف
قريحة الشاعر و قصوره عن الغاية أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه))⁽²⁾ .

و ذهب حازم القرطاجني المذهب نفسه ، مشيراً إلى الخصائص الفنية التي
يجب توفرها في المطالع و المقدمات ، لتؤدي دورها في إنجاح التجربة الشعرية ،
و من أهم الخصائص المشار إليها ، التأنق في إخراج المقدمة على أحسن صورة ؛
لأنها تترك انطباعاً في النفس عميقاً ، و أثراً بالغ الأهمية ، و لهذا الأثر صدى فيما
يليه ، و عليه يترتب رد الفعل المترقب من المتلقي ، فإذا كان المطلع — أو المقدمة
— حسناً شد انتباه المتلقي إلى القصيدة ، و تفاعل معها ، و بهذا تحدث الاستجابة

(1) - المصدر المصدر السابق : ج 1 ص 231 .

(2) - ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ،
المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995م ، ج 1 القسم 3 ، ص 96 .

المتوخاة ، و التي هي هدف المبدع ، فيقول عن المقدمة إنها : ((الطليعة الدالة على ما بعدها المنتزلة من القصيدة منزلة الوجه و الغرة ، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا و نشاطا لتلقي ما بعدها ، إن كان بنسبة من ذلك ، و ربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها))⁽¹⁾ .

و حرص النقاد منذ زمن مبكر أن يحثوا الشعراء إلى ضرورة حسن التخلص من مقدمة القصيدة إلى الغرض الرئيس منها ، و ألا يشعروا السامع بفجوة و انقطاع معنوي عند انتقالهم ، فقد نقل صاحب العمدة قول الحاتمي : ((من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه ، أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل منه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر و باينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه و تعفي معالم جماله ، و وجدت حذاق الشعراء و أرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، و يقف بهم على محجة الإحسان))⁽²⁾ .

فالتخلص و الانتقال من جزء إلى جزء آخر داخل القصيدة ، من أهم العناصر التي يعتني بها الشعراء عناية خاصة ، و التخلص الحسن دليل على نباهة الشاعر و بنائه المحكم لقصيدته .

و ((حسن التخلص هو أن يستطرد* الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا و قد وقع في الثاني ، لشدة الممازجة و الالتئام

(1) - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 309 .

(2) - ابن رشيق : العمدة ، ج 2 ، ص 117 .

* - فرق النقاد بين التخلص و الخروج و الاستطراد ، فقد ذكروا أن التخلص هو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى آخر ثم يعود إلى المعنى الأول أو يأخذ في معنى جديد بتدرج و لطف ، فإن تمادى في المعنى الذي انتقل إليه سمي خروجا ، و الاستطراد فهو الانتقال من معنى إلى آخر دون تدرج و لا تمادي في ما انتقل إليه ، ثم يقطع الشاعر ما هو فيه و يعود إلى المعنى الأول ، و أصل الاستطراد ، أن يريك الفارس أو يوهمك أنه فر ليكر و يعاود الهجوم ، و كذلك الشاعر ، و من هنا كان الخروج أشمل من التخلص و الاستطراد . للمزيد ينظر/ حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 319 - 322 . ابن رشيق القيرواني : العمدة ، ج 1 ، ص 236 و ما بعدها .

و الانسجام بينهما حتى كأنما أفرغا في قالب واحد ، و لا يشترط أن يتعين المتخلص منه ، بل يجري ذلك في أي معنى كان ، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف روض... أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو... و لكن الأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح ((⁽¹⁾).

ولم يقل اهتمام النقاد القدماء بخاتمة القصيدة المركبة عن بقية أجزائها ، فقد طالبوا الشعراء بضرورة تجويدها و حسن اختيار ألفاظها و معانيها ، و مراعاة أحوال الممدوح و رغباته عندها ، و تجنب وقوع لفظ كريحه في السمع أو معنى منفر للنفس ، أو ختم القصيدة بالدعاء إلا للملوك و الأمراء الذين يرغبون في ذلك . و تحدث ابن رشيق عن خاتمة القصيدة و الدورها ، فقال : ((و خاتمة الكلام أبقي في السمع ، و ألصق بالنفس ؛ لقرب العهد بها ؛ فإن حسنت حسن ، و إن قبحت قبح ، و الأعمال بخواتيمها كما قال رسول الله — صلى الله عليه و سلم))⁽²⁾ . و ألح حازم القرطاجني على الشعراء أن يحسنوا اختتام قصائدهم فقال : ((و إنما وجب الاعتناء بهذا الموضع لأنه منقطع الكلام و خاتمته ، فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس . و لا شيء أقرب من كدر بعد صفو و ترميد بعد إنضاج))⁽³⁾ .

غير أن التقيد بهذه المعايير و القواعد التي أقرها النقاد القدماء الالتزام بها ، لم يكن تقيدا تاما و لا إلزاما صارما ، بل كان نسبيا و متفاوتا بين شعراء العصر نفسه و البيئة عينها ، فضلا عن أن يُلتزم بها على مر الأعصر و اختلاف البيئات و تباعد الأقاليم ، فلكل عصر طابعه المميز و ذوقه الخاص و معايير المتبعة و مثله المعتمدة و قيمه السائدة ، فقد ظهرت في بداية العصر العباسي طائفة من

(1) - تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي: خزانة الأدب و غاية الأرب ، تحقيق/ عصام شعيبتو ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط 1 ، 1987م ، ص 329 .

(2) - ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر و نقده ، ج 1 ، ص 217 .

(3) - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص 285 .

الشعراء المجددين* بالمشرق ، خالفت القدماء في هذه الأعراف و اتصلت من بعض تلك التقاليد و النظم و دعا أتباعها إلى التجديد في مباني الشعر و معانيه⁽¹⁾.

و إذا كانت الحال هذه بالمشرق فيما يخص بناء القصيدة ، فإن الحال بالمغرب و الأندلس لم تختلف إلا قليلا ، فقد سار الشعراء المغاربة و الأندلسيون على أنماط الشعر المشرقي و أساليبه في البناء الفني ، و تعايشت عندهم مذاهب القـدماء و طرق المحدثين ، متجاوبين معها حيناً و محورين لها حيناً آخر حسب ما تمليه عليهم البيئة و تفرضه الأحداث و تقتضيه الأذواق و الرغبات .

و قد استجاب ابن الأبار في مدائحه بالبلاط الحفصي ، حيناً لنهج القصيدة العربية و شكلها الفني الذي حدده النقد القديم ، و خالفه أحيانا كثيرة ، مستلهما للتراث العربي الشعري و النقدي ، ناسجا على منواله فيما يخص البناء الفني لقصائده ، مزاجا بين طريقة القدماء و طريقة المحدثين مرة ، متجاوزا لهما مرة أخرى ؛ فجاءت بعض قصائده في مدح الحفصيين ، على شاكلة القصيدة العربية العصماء المتنوعة الموضوعات ، تشتمل على جل أجزاءها ، حيث يفتتحها بمقدمة يمهدها لمدائحه للحفصيين ، ثم يتخلص بمهارة عالية إلى غرضه الأساسي في القصيدة ، ثم ينهيها بخاتمة يتقن نظمها و يحسن صياغتها و يوجد معناها.

أما أغلب مدائحه في البلاط الحفصي ، فقد افتتحها بالمديح متخليا عن التمهيد ، مسقطا للمقدمة الشعرية التي تعد عنصرا حيويا في قصيدة المديح العربية القديمة .

* - و من رواد حركة التجديد في الشعر العربي في العصر العباسي: بشار بن برد ، مسلم بن الوليد ، العتابي ، أبو نواس ... كما يعد أبو تمام زعيم الشعراء المجددين ، و رأس مدرسة البديع ، فقد ذكر يوسف خليف قائلا : ((فأبو تمام هو زعيم المذهب التجديدي في القرن الثالث ، و هو المذهب الذي يضعه النقد في مقابلة المذهب التقليدي الذي سار عليه معاصره و تلميذه البحتري ... فأبو تمام يمثل مذهبه الخروج على عمود الشعـر و التحرر من تلك التقاليد الفنية الموروثة التي تلقاها الشعراء عن الشعر القديم)) . ينظر/ يوسف خليف : في الشعر العباسي (نحو منهج جديد) ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ص 87 .

(1) - للمزيد ينظر/ عبد الفتاح لاشين : الخصومات البلاغية و النقدية في صنعة أبي تمام ، دار المعارف ، القاهرة ، 1982م ، ص 40 و ما بعدها .

2 - القصيدة المركبة :

و تشتمل القصيدة المركبة على الأجزاء الآتية : المقدمة و ما تتضمنه من عناصر : كبراعة الاستهلال ، و وصف الرحلة و الراحة و مشاهد الطريق و ما تجشمه الشاعر من متاعب و أخطار وصولا إلى الممدوح ، و حسن التخلص إلى المديح ، و الخاتمة ، و قد بنى ابن الأبار القضاعي البلنسي الكثير من مدائحه للحفصيين في شكل قصائد مركبة تجاوز عددها العشرين قصيدة ، و كانت مقدماتها غزلية في الغالب الأعم و طليية في القليل النادر .

- مقدمة القصيدة :

اعتنى ابن الأبار — على غرار شعراء عصره — عناية فائقة بمقدمات قصائده المدحية في البلاط الحفصي ، فتأنق في صياغة مطالعها و تنميق لغتها و تجويد معانيها ، متبعا سنن قصيدة المديح العربية العصماء في هذا الباب ، مازجا بين طريقتي القدماء و المحدثين ، عاملا على أن يوفر الانسجام بين مقدمته و الغرض الأساسي في القصيدة ، غير أن الشاعر أسقط عنصر وصف الرحلة و الراحة من مقدمات قصائده — و هو التقليد الراسخ في القصيدة العربية القديمة — وذلك لعدم الحاجة إليه و انتفاء سبب توظيفه و تغير البيئة التي أوجده .

و توزعت مقدمات قصائده بين وصف الأطلال حينا و الغزل أحيانا كثيرة ، بل إن جل مقدمات قصائد المديح لابن الأبار بالبلاط الحفصي ، كانت مقدمات غزلية أو غزلية ممزوجة بالوصف و الفروسية و بموضوعات أخرى ، فقد جرت عادة الأندلسيين على أن يفتتحوا مدائحهم بالغزل غالبا أو وصف الأطلال بدرجة أقل .

((كما افتتح الأندلسيون مدائحهم بالمقدمة الطليية ، و لكنهم طرحوا كثيرا من مقومات هذه المقدمة و تقاليد الموروثة ، و لم يغرقوا في البداوة كما غرقوا في مقدماتهم الغزلية ، فضلا عن أنهم لم يطيلوا الوقوف على الديار ، بل وصفوها وصفا عاما بالتبديل و التغير ، واكتفوا بتحديد مواقعها باصطناع المرور على الأماكن

و الوديان العربية القديمة مشاكلة لعروبة الممدوح ، كما لم يعرضوا لآثار تبدل هذه الديار بعد مغادرتها ؛ لأنهم عنوا بوصف ما تثيره تلك الرسوم في نفوسهم من ذكريات ماض سعيد تمتزج فيها اللذة بالألم و المتعة بالحزن ((⁽¹⁾).

وكان ابن الأبار — بوصفه شاعرا أندلسيا — وفيما لهذا المنحى الذي تنبأه الأندلسيون في افتتاح مدائحهم بالغزل أو وصف الأطلال ، فقد بدأ جل قصائده المركبة في مدح الحفصيين بمقدمات غزلية في المقام الأول .

و الغزل كلمة يطلقونها على الشعر الذي يصف المرأة أو الذي يتحدث إليها ، أو يتخيل قولاً فيها ، أو قصة تتعلق بها أو يصف ما تثيره في نفس الشاعر من حرقة و نعيم ، ومن مرادفات الغزل : التشبيب ، والنسيب *.

و من مقدمات ابن الأبار الغزلية ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا من قصيدة على روي الصاد من بحر الطويل :

و ذَاكَ نَجِيعِي فِي مُحَضَّبَهَا الرَّخِصِ	أَتَجَدُّ قَتْلِي رَبَّةَ الشَّنْفِ وَ الْخَرِصِ
كَمَا طَلَعَ الْوَسْتَانُ فِي صِبْغَةِ الْخُصِّ	تَوَرَّسَ مَا تَعْطُو بِهِ مِنْ عَيْطِهِ
حَلَالًا كَانَ الظُّلْمَ لَيْسَ لَهُ مُحْصِصِ	وَ تَسْفُهُ وَ هُوَ الْمُحَرَّمُ سَقْكَهُ
فَكَيْفَ أَرَاقَتُهُ عَلَى النَّحْرِ وَ الْقَصِّصِ	أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْقِصَاصَ أَمَامَهَا
وَ أَلْحَظَهَا بِالْهَبْرِ عَمْدًا وَ بِالْقُعْصِصِ	فِيَا لَدَمٍ قَدْ أَهْدَرْتَهُ تُدِيُّهَا
غَنِينٍ عَنِ الْحَدِّ الْمَذْذِقِ وَ الْخِرْصِ	وَ لَسَنْ صِفَاحًا أَوْ رِمَاحًا وَ إِنَّمَا
قَنِيصًا وَ مَا زِلْتُ تَرَاغُ مِنْ الْقَنْصِصِ	عَلَى غَيْرِ تَارٍ أَثَرَتْ فَوْتَ مُهْجَتِي
لِإِتْلَافِهَا الْعُشَّاقُ بِالْفَرَسِ وَ الْفَرِصِ	عَرِينٌ وَ لَيْتَ لَا كَاسٌ وَ ظَبْيَةٌ

(1) - أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس ، ص 134 .
* - يفرق عز الدين إسماعيل بين الغزل و النسيب ، فيقول إن النسيب غير الغزل ، فالغزل حديث عن شعور البهجة و الاستمتاع ، في حين أن النسيب يجمع بين النقيضين : البهجة و الحزن ، أو المتعة و الألم ، أو لنقل في شيء من التجريد أنه يجمع بين أسباب الحياة و الموت . و هذا يذكرنا بمبدأ التزاوج بين اللذة و الألم الذي تحدث عنه فرويد كثيرا . و قد جمع الشعراء منذ العصر الجاهلي بين هذين الشعورين المتناقضين في إطار واحد هو ما نسميه النسيب ، أي الحب المهدد بخطر ، الحب المهدد دائما برحيل المحبوبة ، و كذلك الحياة المهددة بالخراب ، متمثلة في الوقوف على الأطلال المقفرة ... للمزيد ينظر / عز الدين إسماعيل : روح العصر ، ص 21 - 22 .

لَقَدْ قَلَبْتُ لِلْقَلْبِ ظَهْرَ مَجْنُونٍ هَا وَ لَا ذَنْبَ إِلَّا أَنْ أَطَاعَ فَمَا يَعْصِي
وَقَيْتُ لِحَرْصٍ فِي هَوَاهَا فُخَانِي وَ قَدَمَا أَصِيبَ النَّاسُ مِنْ قَبْلِ الْحَرْصِ
عُمُومٌ مِنَ الْبَلَوَى بِهَا عَامِرِيَّة أَبِي الْحُسْنُ أَنْ أَلْقَى بِهَا غَيْرَ مُخْتَصٍّ
لَهَا اللَّهُ مَاذَا فِي الْقَلَائِدِ مِنْ حُلَى تَشِفُّ وَ مَاذَا فِي الشُّفُوفِ وَ فِي الْقُمْصِ
نَهَارٌ مُحِيًّا تَحْتَ لَيْلٍ ذَوَائِبِ ثَرِيهِ وَ تُخْفِيهِ مَعَ النَّقْصِ وَ الْعُقْصِ
وَ ذَاتُ ابْتِسَامٍ عَنْ بُرُوقٍ لَأَلَى مُؤَشِّرَةٌ لَيْسَتْ بِرُوقٍ وَ لَا عُقْصِ
تَلَوْتُ عَلَى بَذْرِ التَّمَامِ لثَامَهَا ذَا الْوَشْيِ زَرَّتُهُ عَلَى الْعُصْنِ وَ الدَّعْصِ*
مِنَ اللَّائِي يَهْوَى الْقَصْرُ لَوْ قُصِرَتْ بِهِ تَأْبَاهُ لِلْبَيْتِ الْمُطَبِّبِ وَ الْخُصِّصِ
وَ يَدْعُو بِهَا الْيَنْبُوعَ لِلْعَبِّ وَسَطُهُ فَتَهْجُرُهُ لِلْحَسَوِ مُؤَثَّرَةُ الْمَصِّصِ
شَمَائِلُ أَعْرَابِيَّةٍ فِي اعْتِيَاصِهَا أَمَطْنَ عَنِ الْحُبِّ الْمُبَرِّحِ وَ الْمَخْصِصِ⁽¹⁾

افتتح الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية ، مستجيبا لتقاليد الشعراء العرب القدماء في افتتاح مدائحهم بالغزل ، شاكيا آلام الهجر و أحزان الحرمان ، مصورا حبيبته في صورة تقليدية و قد تزينت بالحلي ، و خضبت يديها بالحناء و تعطرت ببعض النباتات الزهرية ، ثم إنها قد تنكرت له و تمنعت عليه فليس إلى وصلها سبيل ، ثم يصف محاسنها وصفا حسيا صريحا ، مقابلا بين مفاتها و ما أحدثته في نفسه و بين وسائل الحرب و ما تتركه على أجسام الأبطال ، و لعل الشاعر قد اتخذ من الغزل معادلا موضوعيا ، سكب من خلاله أحاسيسه الملتهبة و عواطفه الجياشة تجاه وطنه و قد حرم منه بعد أن وقع تحت الاحتلال الصليبي ، كما أحسن الشاعر الربط بين مقدمة القصيدة و موضوعها الأساسي ، الذي يمدح فيه السلطان أبي زكريا الحفصي بالشجاعة و الإقدام ، و يصف وقائعه التي خاضها ضد أعدائه و خصومه في الداخل و الخارج ، فالمقدمة تشي بموضوع القصيدة الأساسي من الوهلة الأولى ، فقد تضمنت — رغم كونها غزلية — الكثير من الألفاظ الدالة على أجواء

* - الدعص : كتيب صغير من الرمل الناعم ، و هو أقل من الحقف . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (دعص) ، جـ 1 ، ص 982 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 329 - 331 .

المعارك و الوقائع و الغزوات التي كان بطلها الممدوح ، مثل : قتلي ، نجيعي ، تسفكه ، القصاص ، صفاحا ، رماحا ... و غيرها من الكلمات التي تستعمل — عادة — لوصف المعارك ، و أطال ابن الأبار مقدمته هذه فهي تمثل أكثر من ثلث القصيدة .

و يواصل مقدمته قائلا :

سَقَى اللهُ دَارَ الْمُزْنِ دَارًا قَصِيَّةً	عَلَى الشَّدِّ وَ التَّقْرِيبِ وَ الْوَحْدِ وَ النَّصِّ*
يُسَائِلُ عَنْ نَجْدٍ صَبَاها مُعَاشِرٌ	وَ أَسْأَلُ عَنْ حِمَصِ النَّعَامِ وَ أُسْتَقْصِي
وَ لَوْ كُنْتُ مَوْفُورَ الْجَنَاحِ لَطَارَ بِي	إِلَيْهَا وَ لَكِنْ حَصَّهُ الْبَيْنُ بِالْقُصَصِ
فُشْتَانًا مَا أَيَّامِي السُّودُ أَوْجُهَا	بِحِسْمِي وَ مَا لِيَلَاتِي الْبَيْضُ فِي حِمَصِ
بَحِيثُ الْفَتِ الْوُرْقُ لِلشَّدْوِ تَنْبَرِي	عَلَى نَهْرَهَا وَ الْقُضْبُ تَهْتَاجُ لِلرَّقَصِ
وَ فِي يَدِ تَشْيِيبِي قِيَادُ شَيْبِيبَتِي	وَ خَلِّي وَ حِلْمِي مُسْتَقِيدٌ وَ مُسْتَقْصِي
كَلَانًا عَلَى أَقْصَى الْهَوَادَةِ وَ الْهَوَى	فَلَا عَدْلٌ يُقْصِي وَ لَا عَزْلٌ يُقْصِي ⁽¹⁾

و بعد انتهاء الشاعر من وقفته الغزلية ، يعاوده الحنين إلى وطنه مسترجعا أيامه السعيدة بالأندلس — مسقط رأسه و مرتع صباه و شبابه — التي تغرب عنها مكرها ، فيحن إليها و يشتاق إلى بعض ربوعها ، فيذكر منها حمص النعامي و يدعو لها بالسقيا — على غرار الشعراء العرب عند وصفهم للأطلال — و يتمنى عودته إلى تلك الربوع التي فرق الزمان بينها و بينها ، فاستحالت أيامه سودا و قد كانت بالأندلس بيضا ليالیه ، فهو لا يزال حزينا على ما حل بوطنه دائم الحنين و الشوق إليه ، رغم ما أحاطه به الحفصيون في بلاطهم من أسباب النعمة و رغد العيش ، و أنى يتسنى للإنسان نسيان بلده الذي شهد صباه و احتضن طفولته و شبابه و أرتبط بذكرياته ، و يزداد الموقف صعوبة إذا علمنا أن الأمر

* - النص : رفعك الشيء ، نص الحديث ينصه نصا ، إذا رفعه إلى قائله و أسنده إليه ، و نصت الطيبة جيدها ، رفعته ، و قيل النص السير الشديد و الحث ، و هو المعنى المراد في قول الشاعر . للمزيد ينظر / ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (نصص) ، ج 3 ، ص 648 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ص 331 - 332 .

يتعلق بشاعر مرهف الحس رقيق النفس ضعيف التجلد و الصبر أمام المحــــــن
و الأهوال التي عصفت بأهله و فرقت شمله و حالت بينه و بين موطنه الأندلس .
فالحنين إلى الوطن عاطفة جُبلَ الإنسان عليها لا فكاك له منها ، و إلى هذا
يشير الجاحظ بقوله : ((فاوضت بعض من انتقل من الملوك في ذكر الـديار ،
و النزاع إلى الأوطان ، فسمعتة يذكر أنه اغترب من بلده إلى آخر أمهد من وطنه ،
و أعمر من مكانه ، و أخصب من جنبه ، و لم يزل عظيم الشأن ، جليل السلطان ،
تدين له من عشائر العرب ساداتها و فتيانها ، و من شعوب العجم أنجادهــــــــــــا
و شجعانها ، يقود الجيوش و يسوس الحروب ، و ليس ببابه إلا راغب إليه أو
راهب منه ، فكان إذا ذكر التربة و الوطن حن إليه حنين الإبل إلى أعطانها))⁽¹⁾.
و من مقدماته الغزلية الممزوجة بالوصف قوله يمدح أبا زكريا الحفصي ،
بمناسبة تنصيب ولده أبا يحيى على إمارة بجاية سنة (638هـ) :

أَهْلًا بِهِنَّ أَهْلَةً وَ كَوَاكِبًا	زَحَفْتُ هِلَالٌ دُونَهُنَّ مَوَاكِبًا
تَخْذِي الرِّكَائِبِ وَ السَّلَاحِ حَوْلَهَا	تُرْدِي كَأَسْطَاطِ الْكِتَابِ كَتَائِبًا
فَالْمَوْتُ بَيْنَ أَوَانِسٍ وَ فَوَارِسٍ	جَارُوا عَلَيَّ أَعَادِيًّا وَ حَبَائِبًا
هُنَّ الطَّبَاءُ الْعَاطِيَاتُ سَوَالِفًا	وَ هُمْ الْأَسُودُ الضَّارِيَاتُ مَخَالِبًا
جَعَلُوا الدَّمَاءَ خُلُوفَهُمْ وَ خِضَابَهُمْ	مُسْتَأْصِلِينَ مُسَالِمًا وَ مُحَارِبًا
أَنْهَاكَ لَا تَغْشَ الْمَضَارِبَ خَيْفَةً	مِنْ أَعْيُنِ تَهَبُ الصَّقَاحَ مَضَارِبًا
لَمْ تَرَمْ إِلَّا أَقْصَدَتْ لِحْظَاتُهَا	فَجَرَى دَمُ الصَّبِّ الْمُتَيَّمِ صَائِبًا
يَا مَنْ لِقَلْبٍ ذَائِبٍ مِنْ غَادَةٍ	كَالصُّبْحِ تَسْحَبُ لِلصَّبَّاحِ دَوَائِبًا
وَحْشِيَّةً فِي فَازَةٍ بِمَقَازَةٍ	يَنْزُؤُ الْجَنَانُ الْوَحْشُ مِنْهَا رَاهِبًا
خَيْلًا وَ شَوْسًا مِنْ حِفَاطٍ صَادِقٍ	تَلْقَى عَرَابًا قَبْلَهَا وَ أَعَارِبًا

(1) - رسالة الحنين إلى الأوطان ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1982م ، ط 4 ، ص 6 - 7 .
* - السلهب : الطويل عامة ، و قيل هو الطويل من الرجال و الخيل ، و فرس مسلّهب : ماض ، و منه قول الأعرابي في صفة الفرس : و إذا عدا اسلهب ، و إذا قيد اجلعب ، و إذا انتصب اتلأب . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (سلهب) ، ج 2 ، ص 196 .

حُمُرُ الْقِيَابِ عَلَى الْيَبَابِ هِيَ الْمُنَى وَ كَفَى بِهِنَّ أَمَانِيًا وَ مَآرِبًا
لَوْ لَمْ تُظَلَّلْ بِالرَّمَا حِ عَوَاسِيًّا دُونِي وَ تَكَلًّا بِالصَّفَاحِ قَوَاضِيًا
فَلَكُمْ طَرِيرُ الْحَدِّ يَخْفَرُ طُورَةً وَ لَكُمْ أَصَمُّ الْكَعْبِ يَكْفُلُ كَاعِبًا
دَعْنِي أَجِدْ شَوْقًا إِلَى مَخْضُوبَةٍ أَطْرَافَهَا بِدَمِي الطَّرِيَّ خَوَاضِيًا
مَنْ رَاحَ بِالْبَيْضِ النَّوَاعِمِ هَائِمًا لَمْ يَعُدْ لِلْسُمْرِ الدَّوَائِلَ عَائِبًا
وَ الصَّبُّ مَنْ خَاضَ الْأَسِنَّةَ وَ الضَّبِّيَّ نَحْوَ الضَّبَاءِ مُطَاعِنًا وَ مُضَارِبًا
إِنْ لَا يُسَلِّ عَنِّي فُكْلٌ جَوَارِحِي جُرْحُ رَغِيبٍ بَثٍّ فِيهِ رَاغِبًا
قَدْ صَيَّرْتَنِي الْعَامِرِيَّةَ عَامِرًا* أَلْقَى الْأَسِنَّةَ كَيْفَ شِئْتُ مُلَاعِبًا
أَمَّا الْهُوَى فَأَخُو الْوَعَى لَمْ أُسْتَرَحْ مَنْ ذَا لِذَاكَ مُرَاوِحًا وَ مُنَاوِبًا
فَكَانَ عَهْدًا مِنْ وَلِيِّ الْعَهْدِ لِي أَنْ تُسْفِرَ الْعِمْرَاتُ عَنِّي غَالِبًا⁽¹⁾ .

يفتتح الشاعر قصيدته بوصف مواكب قبائل الأعراب و في مقدمتهم بني هلال ، و قد وفدوا على الأمير الحفصي بعد مبايعتهم له ، فاتوا عن بكرة أبيهم لتقديم طقوس الطاعة الولاء ، فيصفهم الشاعر بالكثرة و القوة و شدة البأس ، فقد أقبلوا على السلطان رجالا و نساء بين راكب و مترجل مسرعين نحوه ، فقد خضعت لسلطانته القبائل في مختلف النواحي و الجهات ، ثم يأخذ في وصف محاسن الهاليات و قد تعلق قلبه بهن ، فجمال الأوانس يسلب الألباب و يفتك بالقلوب كما يفتك فرسانهم بالأبطال و المقاتلين ، ثم يشبههن عند رفع رؤوسهن و مد أعناقهن من داخل الهودج بالضباء و قد مدت أعناقها لتناول أوراق الشجر ، فأطرافهن مخضبة بالحناء و عيونهن في الحسن آسرات ، كما شبه اشراقه الوجوه و سواد الشعر بالفجر و قد خلف وراءه ليلا شديد السواد ، ثم إن هؤلاء النسوة قد ضربت

* - هو عامر بن مالك عم لبيد بن ربيعة العامري أحد شعراء المعلقات ، و كان عامر بن مالك من فرسان العرب و شجعانهم ، و لقب بملاعب الأسنة ، و يرى محقق ديوان عامر بن الطفيل ، أن عمه أبو براء هو من لقب بملاعب الأسنة و ليس عامرا ، و بالرغم من ذلك فقد كان عامرا من فرسان العرب المعدودين و المشهود لهم بالشجاعة و البأس . للمزيد ينظر/ ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، ج 1 ، ص 269 . و عامر بن الطفيل : الديوان ، تقديم/ كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، 1383هـ/1963م ، ص 5- 8 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 67- 69 .

عليهن قباب حمراء وهن مرتحات ، و تولى حراستهن فرسان مدججين بالسلاح ،
فليس إلى لقائهن سبيل ، ثم يستدرك و كأنه يقرر حقيقة بديهية فيقول ، إن من أحب
الحسان حقيقة هانت في نفسه الصعاب و لم يبال بالمخاطر ، فالحب شبيه الحرب
قسيمه فلا يقدم عليه إلا الشجاع المغامر ، مثله في ذلك مثل الحرب و ساحات
المعارك .

لقد مزج الشاعر في مقدمة قصيدته هذه بين عدة موضوعات : كالوصف ،
و الغزل ، و الفروسية ، معارضا بذلك بعض مقدمات قصائد المديح العربية ، كما
تميزت مقدمة هذه القصيدة بالطول نسبيا ، على غرار جل مقدمات قصائد المديح
لديه ، فاستهلك طاقات تعبيرية كان الموضوع الأساسي للقصيدة أولى بها ، فقد
تعدت العشرين بيتا مشكلة بذلك ثلث القصيدة ، و قصر بقيتها على مدح السلطان
أبي زكريا و ولده الأمير أبي يحيى ، واصفا كليهما بالشجاعة حينا و الفروسية حينا
ثانيا و المجد و الكرم حينا ثالثا ، الأمر الذي وفر عنصر الانسجام بين مقدمة
القصيدة و موضوعها الأساسي .

و من مقدمات ابن الأبار الغزلية — أيضا — قوله يمدح المستنصر الحفصي ، من

قصيدة على روي الجيم من بحر البسيط :

وَقَدْ تَنَقَّسَ عَنْ أَنْفَاسِهَا أَرْجَا	ذَكَرْتُ بَلَجَاءَ بِالْإِصْبَاحِ مُنْبَلِّجَا
جَرَسَ الْحُلِيِّ وَ لَا وَسْوَاسَهُ الْهَزْجَا	وَمَا نَسِيتُ بِإِهْزَاجِ الْحَمَامِ ضُحَى
مَا لِلْوَشَاحِ مِنَ الْإِفْصَاحِ مُعْتَلِّجَا	عَدَاةَ زَارَتْ وَ لِلْخُلْخَالِ مِنْ خَرَسِ
فَلَمْ تَدَعْ يَوْمَ طَافَتْ لِلْحَجِيجِ حَجَا	نَجْدِيَّةً أَتْهَمَتْ تَقْضِي مَنَاسِكِهَا
حَسَّانَةً فَلَجَا فُتَّانَةً دَعَا	وَضَّاحَةً بَلَجَا نَقَّاحَةً أَرْجَا
بِمَا تَقُتُّ بِهِ الْأَرْوَاحَ وَ الْمُهَجَا	تَقُوتُ كُلَّ فُتَّانَةٍ فِي مَحَاسِنِهَا
وَ الرَّدْفُ يُنْبِضُهَا رِيَّانَ مُنْتَفِجَا	فَالْخِصَرُ يُنْهَضُهَا ظَمَانُ مُنْدَمِجَا
لِلَّهِ رَأْدُ الضُّحَى يَغْشَاهُ جُنْحُ دُجَى	ضِدَّ لِعُرَّتِهَا بَادٍ لَطَرَّتِهَا
قَرَّ الْمَلَامُ عَلَى سَمْعِي وَ مَا وَلَجَا	كَكَلَفْتُ لِلْحُسْنِ فِيهَا بِالْغَرَامِ فَمَا

قَدْ عَلَّمْتَنِي الْغَوَانِي أَنْ أَدِينَ لَهَا وَ لَيْسَ يَجْهَدُ عَوْدٌ يَحْمِلُ الْغُجَا*
حُبِّي صِرَاحٌ فَلَا أُبَلِّتُ مِنْ دَنَافٍ إِنْ شَيْبَ يَوْمًا بِسُلُوانٍ وَ إِنْ مُزَجَا
هَذِي النَّبَارِيحُ لَمْ تَبْرَحْ مُحَرَّمَةً عِلَاجَ مَا شَقَّنِي مِنْهَا وَ مَا لَعَجَا
لَا أُرْتَضِي غَدْرَ سَاجِي الطَّرْفِ غَادِرِي أَرْعَى النُّجُومَ إِذَا اللَّيْلُ الْبَهِيمُ سَجَا
حَمَى الْقَرَارَ فَوَادِي وَ الْكَرَى بَصَرِي وَ أَرْعَجْتُهُ دَوَاعِي الْبَيْنِ فَانْزَعَجَا
طَفِقْتُ الْهَجُ فِيهِ بِالنَّسِيبِ وَ إِنْ عَهْدْتُهُ بِاجْتِنَابِي مُوَلَعًا لَهَا
كَأَنَّهُ الزَّمَنُ الْعَادِي عَلَى أَدْبِي يَسُومُنِي الصَّبْرَ فِيمَا شَجَّنِي وَ شَجَا
إِذَا اسْتَرَحْتُ إِلَيْهِ زَادَنِي وَصَابًا كَأَنَّ ذَاكَ عَلَى مَنَوَالِ ذَا نُسِرَجَا⁽¹⁾

يبدأ ابن الأبار قصيدته بمقدمة غزلية ، فصورة المحبوبة لا تكاد تفارق خياله ، فالصباح المسفر يذكره طلعتها البهية و وجهها الوضاء ، و عبير نسيمه يذكره بطيب نشرها ، كما أن هديل الحمام يعيد إليه صوت حليها و أدوت زينتها التقليدية ، فجمال المحبوبة و فتنها تخلب لب الناسك المتعب ، ثم يعدد محاسنها فهي بلجاء الوجه طيبة النشر فلجاء الأسنان دعجاء العينين هيفاء الخصر مكتتزة الردف شديدة سواد الشعر ، فحسنها قد جعل الشاعر يهيم بها ، فقد سلم زمام نفسه لها ، فحببه صادق و صريح حتى أنه يتمنى ألا يشفى منه أبدا .

لقد حاول الشاعر العربي عبر العصور ، أن ينحت تمثالا نموذجيا رائع الجمال لصورة المرأة المتخيلة في ذهنه ، من خلال استثمار طاقات اللغة و إمكاناتها التعبيرية ، فالمرأة عنده رمزا للخصب و النماء يستدعيها الشاعر من ماضيه المشرق ، لمجابهة ومحاصرة رموز الجذب و الفناء — الأطلال الدارسة و الأماكن المقفرة و الرحلة المؤذنة بالخراب — في حاضره المظلم أو معادلة

* - امرأة غنجة : حسنة الدل ، و قيل الغنج ملاحه العينين ، و قيل الغنج في الجارية تكسر و تدلل في المشية .
للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (غنج) ، ج 2 ، ص 1022 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 103 - 104 .

الموقف نفسيًا ، و السعي للتخفيف من حدة الصراع و المفارقة الحاصلة على أقل تقدير⁽¹⁾ .

و بعد وصفه للمحاسن و حديثه عن الحب ، يأخذ الشاعر في بث شكواه و تسجيل آلامه النفسية بعد أن تنكرت له هذه المرأة فهجرتة و ابتعدت عنه ، فبقي وحيدا دون أنيس لا يغمض له جفن و لا يهدأ له فؤاد ، فبدأ يبحث على العـزـاء و تخفيف وطأة الهجر من خلال النسب الذي يقدم به لقصائده ، لكن دون جدوى فقد استعصى عليه و لم تسعفه فيه قريحته الشعرية ، فيأخذ في شكوى الزمن و ما أوقعه به من متاعب و آلام كلما ركن إليه و سلم له زمام نفسه ، و لعل البين و الهجر الذي يشتكي منه الشاعر إنما هو فراق وطنه و الجلاء عن أرضه و أهله و أحبته بالأندلس .

و من مقدمات ابن الأبار الطللية قوله يمدح السلطان أبا زكريا و أولاده بعد التجائه إلى الإمارة الحفصية ، من قصيدة على روي اللام من بحر البسيط :

طَلَّتْ نَجِيعِي أَطْلَاءً وَ أَطْلَالَ	بَحِثْتُ يُعَقِّدُ إِحْرَامًا وَ إِحْلالَ
مَنَازِلُ كَانَتْ الْأَقْمَارُ تَنْزِلُهَا	بِالْخِيفِ خَفَّتْ بِهِمْ نُوقٌ وَ أَجْمَالُ
جَرَّ الْبَلَى فَوْقَهُ أَتْيَالُهُ وَ جَرَى	لِشَهْبِهِ بِالْأَقْوَالِ الرَّاهِنُ الْقَالَ
وَ كَمْ عَزَيْتُ حَدِيثَ الْإِنْسَاتِ بِهَا	وَ لِي إِلَى الْإِنْسِ إِغْدَاثُ وَ إِرْقَالُ*
أَيَّامَ لَا كَدْرٌ فِي الصَّقْفِ مُعْتَرِضُ	وَ لَا لِإِلْفٍ عَلَى الْإِعْرَاضِ إِقْبَالُ
وَ لِلْعَوَازِلِ عَنَّا تَصْنَعُهَا	كَمَا تُعْنِي الْخُصُورَ الْهَيْفَ أَكْفَالُ
هَيْهَاتَ أَعْدَلُ فِي بَيْتِ الْهَوَى نَسَبِي	فَفِيمَ يَكْثُرُ لَوَّامٌ وَ عُدَّالُ
وَ كَيْفَ يُوجِدُنِي السُّلُوانُ مَعْذَرَةً	وَ عُدْرَةً لِي أَعْمَامٌ وَ أَخْوَالُ

(1) - جميل عبد المجيد : بلاغة النص - مدخل نظري و دراسة تطبيقية - دار غريب للطباعة ، القاهرة ، 1999م ، ص 69 .

* - الارقال : ضرب من سير الإبل كالرسيم و الخبب و الوخد ... و قيل هو الإجمام و الإجماز أي سرعة سير الإبل ، و أرقلت الدابة أسرعت ، و هو العدو فوق الخبب . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (رقل) ، ج 1 ، ص 1210 .

كَأَنَّ قَلْبِي فَرَّاشٌ فِي تَقَحُّمِهِ نَارًا لَهَا بِأَكْفُفِ الْغَيْدِ إِشْـعَالُ
أَمَّا قَتْلُ النِّسَاءِ أَهْوَى تَدَانِيَهَا فَدُونَهَا مِنْ سَرَاةِ الْحَيِّ أَقْسَالُ
أُدِيرُ طَرْفِي إِلَى دَارَاتِهَا كُلِّهَا وَمِلءُ قَلْبِي آمَالٌ وَ آجَالُ
هِيَ الثَّرِيَّا وَ عَيُوقُ يَحْفُ بِهَا غَيْرَانَ يَكْفُلُ مِنْهَا الظَّبِّي رُنْبَالُ*
غَزَالَةٌ كُلَّمَا أَغْرَتْ لَوَاحِظَهَا أَبَتْ وَ أَقْنَدَتْ الْعُشَّاقُ أَنْفَالَ
ظَلَّتْ تُقْلَصُ عُمْرِي وَ هِيَ فِي حُجْبٍ تَضْفُو عَلَيْهَا لِسْمَرِ الْخَطِّ أَظْلَالُ
تَعَجَّبْتُ مِنْ حَيَاتِي إِذْ رَأَتْ دَنِيْفِي وَ فِي يَدَيْهَا شِفَاءٌ لِي وَ إِبْلَالُ
مَعْسُولَةُ الرِّيقِ لَمْ أَنْكِرْ وَ قَدْ وَصِفَتْ أَنْ قِيلَ فِي قَدَّهَا الْمِيَالُ عَسَالُ
كَأَنَّ أَسْنَى اللَّالِي فِي تَرَائِبِهَا مِمَّا تَلَأَلَا حُسْنًا وَ هِيَ مِعْطَالُ
يُقَلُّ مِنْهَا قَضِيبُ الْبَانِ مُعْتَدِلًا دِعْصٌ مِنَ الرَّدْفِ مِنْهَارٌ وَ مِنْهَالُ
مَكَثَتْ فِيهَا عَلَى عَهْدِي وَ مَا مَكَثَتْ لِلْحُبِّ حَالٌ وَ لِلْمَحْبُوبِ أَحْوَالُ
وَ السَّيْفُ وَ الرُّمْحُ لَا أَرْجُو دِفَاعَهُمَا إِذَا تَمَرَّسَ بِي قَلْبٌ وَ خَلْخَالُ⁽¹⁾

يفتتح الشاعر قصيدته بوقفه طللية مستندا في ذلك إلى الإرث الشعري العربي الثري في هذا الباب و الذي يرجع إلى العصر الجاهلي ، فيصف ابن الأبار بقايا رسوم ديار أحبته و قد تحولت إلى مرتع و مرعى للظباء بعد أن كانت مسكنا للأحبة الذين غادروها و ارتحلوا عنها ، فقد أتت عوامل الفناء على هذه الديار فلم يبق منها إلا رسومها الشاخصة ، ثم يسترجع الشاعر ماضيه السعيد و أيام أنسه و صفائه بهذه الديار ، و لقاء أحبته وسط دسائس عذاله و لائميته الذين يعملون سرا و علانية لصرفه عن وجه الحبيبة و صرف وجهها عنه ، غير أن حاضره قد أضحى تعيسا بعد تفرق الشمل و هجرة الأحبة ، و على الرغم من ذلك فإن لائميته و عذاله لم يكفوا عن ملاحقته بالأذى ، و لعله يشير إلى خصومه و منافسيه بالبلاط الحفصي الذين يريدون أن يفسدوا علاقته مع الأمير ، ثم يستدرك ليعود إلى حديث

* - الرنبال : من أسماء الأسد و الذئب ، و قيل من تلده أمه وحده . للمزيد ينظر / ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (رأبل) ، ج 1 ، ص 1088 - 1089 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ص 243 - 244 .

الحب ، فيشير إلى أنه مجبول على الهوى فلا يستغرب منه ، و كيف يستغرب
الحب من رجل ينسب إلى بني عذرة ، ثم يصور نفسه في صورة الحبيب المتهالك
اللجوج الذي لا يكف عن محاولة لقاء حبيبته المحروسة وسط فرسان قومها ،
فيكتفي بتوجيه عينيه نحو منزلها و تمنى اللقاء ، غير أن ذلك مستحيل الوقوع ،
و بعدها يأخذ الشاعر في وصف محاسنها ، فهي حلوة الريق ممشوقة القوام مسقولة
الرقبة ممثلة الوسط ، و قد بقي الشاعر وفيها لها مقيما على عهدها ، بالرغم من قلة
وفائها و عدم تمسكها بالعهد على عادة الغواني .

وتحمل هذه المقدمة الطللية دلالات عميقة تتجاوز حدود الوصف الحسي
لرسم الدارسة ، وبقايا الديار المرتحل عنها ، والحبيبة الطاعنة ، ففي الجمع بين
الأطلال والمرأة — وهما عنصران أساسيان تقوم عليهما المقدمة الطللية — إشارة
إلى ما يذكر بالفناء والدمار من جهة ، وما يذكر بالخصب والحياة من جهة أخرى ،
وما اجتماع هذين الضدين إلا دليلا على إحساس الشاعر بالتناقض العام الماثل في
العالم الخارجي أو المستقر في عالمه الباطني⁽¹⁾.

و بالنظر إلى أن الطلل هو تفجع وبكاء على فقدان المكان ، فقد عبر الشاعر
عن تمسكه بالأرض ، من خلال ذكره لأماكن معينة والاستفاضة في أوصافها إلى
حد الهيام بها ، وهو الموقف الذي يقفه ابن الأبار القضاعي من موطنه الذي نزع
عنه مكرها ، من خلال مقدماته الطللية التي يفتتح بها بعض مدائحه للحفصيين .

(1) - عز الدين إسماعيل : روح العصر ، ص 19 - 20 .

- التخلص و الخروج :

حرص ابن الأبار على تحسين تخلصه و تجويد انتقاله في مدائحه في البلاط الحفصي ، من مقدمة القصيدة إلى الغرض الأساسي الذي أنشئت من أجله ، مستجيبا في ذلك لتوجيهات النقاد القدماء الذين بسطوا القول في هذا المفصل الهام من مفاصل القصيدة المركبة ، كما حددوا أساليب التخلص و طرق الانتقال بين موضوعات القصيدة .

و قد اعتنى شعراء الأندلس بتحسين تخلصاتهم من موضوع إلى موضوع آخر داخل قصائدهم المركبة ، ((و سلك شعراء الأندلس مسالك عدة للتخلص الرقيق و الانتقال الهادئ في قصائد المديح باستخدام أدوات للربط ، مثل : كأن المخففة أو الثقيلة و الكاف ، و الواو ، و الفاء ، و أو ، و أساليب الشرط و القصـــــر و الاستفهام غير الحقيقي ؛ لإيهام المتلقي باتصال المعنى داخل السياقات المختلفة و انسيابه انسيابا عفويا))⁽¹⁾ .

و من تخلصات ابن الأبار البارعة قوله :

كَلَانَا عَلَى أَقْصَى الْهَوَادَةِ وَ الْهَوَى فَلَا عَدْلٌ يُقْصَى وَ لَا غَزْلٌ يُقْصَى
كَأَنَّ جَنَاهَا مِنْ جَنَى الْعَيْشِ بَعْدَهَا لِيَحْيَى بَنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بَنُ أَبِي حَقْصٍ
إِمَامٌ أَجَارَ الْحَقَّ لَمَّا اسْتَجَارَهُ وَ قَدْ رَسَخَ الْإِدْعَانُ لِلْغَمْطِ وَ الْغَمْصِ⁽²⁾

ينهي ابن الأبار مقدمة قصيدته بعد وقفته الغزلية ، باسترجاع أيامه السعيدة بالأندلس ، التي شهدت أيام لهوه و أنسه و غزله بمن يحب ، فلم يستطع العذال أن يفرقوا بينه و بين محبوبته و لم ينقطع غزله فيها ، ثم يعقد مشابهة باستعمال أداة التشبيه الكاف المقرونة بأن المشددة ، بين أيام صفاءه الماضية بالأندلس و أيامه الحاضرة في كنف السلطان أبي زكريا الحفصي ، الذي أحاطه برعايته و وفر له

(1) - أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس ، ص 174 .
* - الغمص : غمصه حقره و استصغره و لم يره شيئا ، و غمص النعمة تهاون بها وكفرها ، و ازدرى بها .
للمزيد ينظر/ ابن منظور: لسان العرب المحيط ، مادة (غمص) ، ج 2 ، ص 1017 .
(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 332 .

حياة رغبة و عيشا كريما ، الأمر الذي يوجب على الشاعر أن يمدحه و يحسن الثناء عليه ، فلا يتأخر عن ذلك الواجب فيتحرك لسانه بالشكر و يلهج بالمدح و الثناء على الممدوح .

و من تخلصات ابن الأبار الجيدة قوله :

نَدَرْتُ دَمِي قَبْلَ اقْتِرَاحِ عِنَاقِهَا فِنَّهَا نَحْوَ الْأَذَى إِعْنَاقُ
لَمْ تَدْرِ أَنِّي فِي جَوَارِ خَلِيفَةٍ بِيَمِينِهِ الْآجَالُ وَالْأَرْزَاقُ
لَا يُشْتَكَى فِي عَصْرِهِ بِإِضَافَةٍ وَلَهُ بِمَا يَسَعُ الْمُنَى إِطْلَاقُ⁽¹⁾

بعد أن يصف الشاعر عواطفه التي تجيش في صدره نحو محبوبته و يتمنى لو تبادلته المشاعر نفسها ، غير أنها محروسة بفرسان قومها و رجال أهلها المتأهبين لقتله و إهدار دمه دون تريث و لا توان ، لكنهم يجهلون أن الشاعر في حمى الخليفة و جواره ، و قد يكون ابن الأبار يشير من طرف خفي إلى خصومه بالبلاط الحفصي ، الذين يسعون للتخلص منه و إبعاده عن البلاط ، غير أن الشاعر يبالغ في وصف الممدوح بإدعاء أن الآجال و الأرزاق بيمينه و طوع أمره* ، لكن تخلصه من الغزل إلى المديح كان بارعا ، فلا يشعر معه السامع بفجوة في الانتقال من المقدمة إلى الغرض الأساسي للقصيدة ، لأنه تدرج في معانيه و قرب بين طرفي الجزء المتخلص منه و الجزء المتخلص إليه .

و قال ابن الأبار متخلصا من الغزل إلى مديح السلطان أبي زكريا الحفصي و أولاده عند التجائه إليه ، من قصيدة لامية على بحر البسيط :

وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ لَا أَرْجُو دِفَاعَهُمَا إِذَا تَمَرَّسَ بِي قَلْبٌ وَ خَلَّالُ
لَوْلَا اتِّصَالِي بِسُلْطَانِ الْأَمِيرِ لَقَدْ لَاقَتْ بِهَا الْقُدُّ أَرَابٌ وَ آجَالُ

(1) - المصدر السابق : ص 387 .

* - لقد وقع ابن الأبار في المبالغة المموجة ، فالآجال و الأرزاق بيد الله عز و جل ، و ليست بيد البشر ، و لم يستطع الشاعر أن يحترز من الوقوع في هذه المبالغات التي يتجنبها الشعراء — عادة — بتوظيف بعض الأدوات اللغوية مثل : لولا ، و أفعال المقاربة مثل كاد ، أو شك ...

مَلِكٌ تَمَهَّدَتِ الدُّنْيَا بِدَوْلَتِهِ وَ قَدْ تَحَقَّقَهَا لِـلْحَيْفِ زَلْزَالٌ⁽¹⁾

فقد أنهى الشاعر مقدمته الغزلية بحديثه عن سطوة الحب عليه و سلطة المحبوبة على قلبه ، و قد أشار إليها بذكر بعض أدوات زينتها و حليها ، و أنه لا يبالي بالمخاطر التي يواجهها في مثل هذا المقام ، ثم يتخلص من الغزل فيذكر أن اتصاله بالممدوح هو الذي جنبه المهالك التي كادت أن تقوده إلى حتفه ، فلولا السلطان الذي احتفى به لكان من الهالكين ، ثم ينتقل إلى مدح السلطان ، فالدولة التي أقامها قد أقرت الأمن و أوجدت الاستقرار للبلاد .

(1) - المصدر السابق : ص 244 .

- خاتمة القصيدة :

اعتنى ابن الأبار بتحسين إنتهاءات مدائحه بالبلاط الحفصي اعتناءه بمطالعتها ، مستجيبا في ذلك لتوجيهات النقاد الذين اشترطوا وجوب تضمين خواتيم القصائد حكمة بالغة أو مثلا سائرا أو تشبيها بديعا ، من أجل إثارة انفعالات الممدوح وإطلاق يده بالمكافأة وإجزال الهدية .

((و ليس أقدر على إثارة انفعالات الممدوح ، من الدعاء له بالخير و العزة و دوام الأجل و الملك و تحقيق الأهداف و الآمال و النصر على الأعداء و المشركين ، و ما شابهها من معان))⁽¹⁾ .

و من خواتيم قصائد ابن الأبار قوله مادحا السلطان أبا زكريا ، من قصيدة على روي القاف من بحر الكامل :

دَامَتْ لَنَا الْأَيَّامُ أَعْيَادًا بِهِ وَ لَهَا فِي أَجْيَادِنَا أَطَوَاقُ
وَ الْفِطْرُ مِثْلُ النَّحْرِ فِي أَعْدَائِهِ مِمَّا يُسَالُ نَجِيعُهَا وَ يُرَاقُ⁽²⁾

لقد تحولت كل أيام السنة في نظر الشاعر بوجود الأمير بين رعيته ، إلى أعياد مستمرة يملؤها البشر و يغمرها السرور و تحفها البهجة ، و إن نعم الممدوح و أياديه البيضاء على الرعية قد صارت أطواقا في أعناقهم ، بالمقابل فإن تصدي الممدوح لأعدائه و مواجهتهم لا تعرف التوقف حتى في الأعياد الدينية كعيد الأضحى و عيد الفطر ، كما ينطوي البيت على تورية طريفة في كلمة النحر التي تفيد عيد الأضحى من جهة و تفيد نحر الأعداء و مقاتلتهم من جهة أخرى ، فالممدوح بار برعيته شديد البأس على أعدائه .

(1) - أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس ، ص 187 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 388 .

و قال — كذلك — يمدح السلطان أبا زكريا و يستعطفه و يسترضيه ، بعد غضبه عليه و إبعاده عن البلاط ، من قصيدة دالية على بحر الرمل :

وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَى أَمْلَاقِهَا شَبَّهَا صَاغُوا وَ صَاغَ الْعَسْجَدَا
لَا عَدَاهُ النَّصْرُ وَ التَّائِيدُ مَا غَارَ فِي الْآفَاقِ نَجْمٌ وَ بَدَا⁽¹⁾

لقد ارتفع السلطان على كل ملوك العرب و تفوق وازداد مكانة ، ففضله عليهم كفضل الذهب على النحاس و سائر المعادن ، ثم يدعو الشاعر في ختام القصيدة للمدوح بدوام النصر على الأعداء واستمرار التأييد من قبل الرعية ما دام الليل و النهار .

و قال — أيضا — يمدح السلطان أبا زكريا و أولاده الثلاثة من قصيدة لامية على بحر البسيط :

حَتَّى الْمَدَائِحُ مِنْ جَدْوَاكَ لِي هِبَةٌ مِنِّْي كِتَابٌ وَ مِنْ عَلَيَّكَ إِمْلَالُ
فِضْ أَيْهَا الْبَحْرُ مَعْرُوفًا وَ مَعْرِفَةٌ تَعْلَمُ وَ تَرَوْ صَدَى هَيْمٍ وَ جُهَالُ⁽²⁾

يشيد الشاعر بأفضال المدوح و خيره العميم و أياديه البيضاء عليه التي لا تعرف الفتور ، بل إن كل مدائحه و ما أبدعته قريحته من غرر الأشعار و بدائع الأفكار و لطائف المعاني ، هي من إلهام المدوح و إملاءاته و ما دور الشاعر فيها إلا تقييدها بالكتابة ، ثم يشبه المدوح بالبحر الخضم و يطلب منه أن يفيض بالخير و الكرم و العلم و المعرفة على من حوله ، حتى يرتوي كل ظمآن و ينير فكر كل جاهل .

(1) - المصدر السابق : ص 161 .

(2) - المصدر نفسه : ص 248 .

3 - القصيدة البسيطة :

جاءت الكثير من مدائح ابن الأبار للحفصيين في شكل قصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، فقد أسقط مقدمة القصيدة و ما يلزمها من عناصر من بعض مدائحه في البلاط الحفصي ، بادئا بموضوعه من الوهلة الأولى ، و لعلنا لا نجانب الصواب و لا نتكبح الحقيقة إذا قلنا ، إن معظم قصائد مديح ابن الأبار للحفصيين كانت بسيطة مستقلة الموضوع ، و بالرغم من بساطتها فقد جاءت بارعة الاستهلال محكمة البناء في لفظها و معناها حسنة الخاتمة .

و من قصائد ابن الأبار البسيطة المستقلة الموضوع ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا بمناسبة إسناد ولاية العهد لابنه محمد المستنصر ، بعد وفاة ولي العهد السابق ولده زكريا أبي يحيى حاكم بجاية ، من بحر الطويل على روي النون :

رَأَى اللَّهُ مَا أَرْضَاهُ مِنْ سَعْيِهِ الْأَسْنَى	فَجَدَّدَ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ لَهُ الْحُسْنَى
وَشَيَّدَ بِالتَّائِيدِ أَرْكَانَ أَمْرِهِ	فَلَمْ تُبْقِ لِلْأَعْدَاءِ صَوْلَتُهُ رُكْنَنَا
عَزَّيْنَهُمْ جُيُوشُ الرُّعْبِ * قَبْلَ جُيُوشِهِ	فَإِنْ أَخَذُوا هَوْنًا فَقَدْ وَقِدُوا وَهْنَنَا
وَ عَيَّدَتِ الْأَضْحَى خِلَالَ دِيَارِهِمْ	فَلَا عَرَوْا أَنْ قِيدُوا لِنَحْرِهِمْ بُدْنَنَا
أَلَا تِلْكَ أَعْنَاقُ الْبِلَادِ بِأَسْرَرِهَا	خَوَاضِعُ لِمَا دَوَّخَ السَّهْلَ وَ الْحَزْنََا
أَبَى النَّصْرُ أَنْ يُلْوِي بِدَيْنِ لَوَاؤِهِ	فَمَنْشُورُهُ يَطْوِي الْمَعَاقِلَ وَ الْمُدْنََا
إِذَا الْمَغْرِبُ الْأَقْصَى رَمَى بِقِيَادِهِ	إِلَيْهِ فَمَاذَا يَصْنَعُ الْمَشْرِقُ الْأَدْنَى
كَأَنِّي بِالزُّورَاءِ تَخَطَّبُ أَمْنُهُ	وَ قَدْ بَثَّ فِي مَرَآئِشِ الْعَدَلِ وَ الْأَمْنَا ⁽¹⁾

* - يشير الشاعر بقوله جيوش الرعب ، إلى قوله (صلى الله عليه و سلم) ، ((أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَ طَهُورًا ...)) . للمزيد و الإطلاع على الحديث كاملا بسنده و متنه ، ينظر/ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت ، كتاب التيمم ، جـ 1 ، ص 70 .
(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 296-297 .

يتحدث الشاعر عن المكتسبات التي ما فتئ السلطان أبي زكريا الحفصي يحققها في مملكته باستمرار ، فقد وفقه الله — عز و جل — في كل ما يقدم عليه من أعمال البر و الإحسان ، فنال بها الممدوح رضاه و بركاته ، فقد أرسى دعائم دولته التي خضعت لها الممالك و الامارات طائعة أو مكرهة ، كما تصدى الممدوح بشجاعة لأعدائه فلاحقهم و أنزل بهم الرعب بما حملته الأخبار إليهم من عزمه و استعدادة لقتالهم قبل أن تصل جيوشه إليهم ، فلما بلغ ديارهم أوقع بهم الهزيمة و تركهم بين قتيل و أسير و هارب ، و خضعت لإرادته الممالك و الإمارات ، و سلمت له زمام أمرها ، فالنصر حليفه ملازما لرايته أينما سار و حيثما حل بالحصون و المدن ، فقد دخل في بيعته و ألقى مقاليد أمره له المغرب الأقصى رغم بعده و حصانته ، فكيف لا ينقاد له المشرق الأدنى القريب منه ، فتطلعت بغداد — عاصمة الخلافة الإسلامية — تتشد أمنه و تخطب رضاه ، بعد ما بلغها من عدله و معروفه بمراكش التي استجابت لمبايعته من قبل .

فالشاعر يبدأ قصيدته مباشرة بمدح السلطان أبي زكريا دون تمهيد و لا مقدمة ، متحدثا عن شجاعة الممدوح و انتصاراته مغربا و مشرقا و حكمه العادل ، فاستجابت له الحصون و أذعن لأمره المدن و انصاعت لمشيئته القلاع و دخلت في حماه البلاد القصية فضلا عن البلاد القريبة .

و قال — أيضا — يمدح المرتضى أبا زكريا و يهنئه بمناسبة فتح تلمسان ، من

بحر البسيط على روي القاف :

لِمَنْ وَقَعَهُ بِالْغَرْبِ ضَعُضَتِ الشَّرْقَا	أَرَأَيْتَ نَجِيعَ الْمَارِقِينَ فَمَا يَرْقَا
وَأَرْجَتْ مِنَ النَّفْعِ الْمُثَارَ سَحَائِبًا	تَأْتِقَ مَصْفُولَ الْحَدِيدِ بِهَا بَرْقَا
مُطَبَّقَةً عَرْضَ الْبِلَادِ وَطُولُهَا	فَلَا وَجْهَ إِلَّا وَاجْهَتُهُ وَ لَا أَقْفَا
كَأَنَّ شِيَاتِ الْبُلْقِ تَحْمِلُ شِرَّةَ	لِقَلْبِي بَلْ أَوْضَاحُهَا تُشْهِرُ الْبُلْقَا
تَطَاوَحَ فِيهَا مَنْ بَغَى كَيْفَمَا نَبَغَى	وَ حَاقَ الرَّدَى إِلَّا بِمَنْ دَافَعَ الْحَقَا

فَمِنْ أَصِيدٍ جَيِّدًا لِفِيهِ مَجْدٌ — دَلَّ وَ مِنْ أَشْوَسٍ طَرْفًا وَ مِنْ أَهْرَتٍ شَدَقًا
أَسْوَدٌ وَ لَكِنَّ الْأَسْوَدَ حَقِيقَةً سَقَاتُهُمْ صَرْفَ الْمَنِيَةِ وَ الزَّنْ—قًا
أَدَارُوا عَلَيْهِمْ كُلَّ حَمْرَاءَ ضُمَّتْ بِشَاشَةٍ مَنْ يَسْقِي وَ إَجْهَاشَ مَنْ يُسْقَى
عَصَاةَ أَطَاعَ اللَّهُ فِيهِمْ مُبِيرُهُمْ فَحَصَّهُمْ قَدًّا وَ عَنَّتَهُمْ — دَقًّا
أَخَامِسُ تُنْمِيهِمْ زَنَاتَهُ لِل—وَعَى وَ حَقٌّ عَلَى الْأَعْصَانِ أَنْ تُشْبِهُ الْعِرْقًا⁽¹⁾

يفتتح ابن الأبار قصيدته بالمديح مباشرة ، متسائلا عن هذه الغزوة العظيمة التي دارت رحاها بالغرب و بلغت أصداؤها أسماع الشرق ، فقد غزا السلطان أبو زكريا الحفصي بني عبد الواد حكام تلمسان ، و أنزل بهم الهزيمة و استحل دماء الخارجين عن أمره ، و كان لهول هذه المعركة أن حجب الغبار نور الشمس و تراءت السيوف تلمع كأنها البرق في وسط السحاب ، و قد اتسعت رقعة هذه المعركة لتشمل البلاد كلها ، و تحرك لهذه الموقعة قلب الشاعر خفاقا ، فاندحر البغي و ارتفع الحق ، تم يتوقف الشاعر عن وصف أجواء المعركة التي يظهر أنه قد حضرها فيأخذ في وصف أبطالها من الطرفين ، فيشبههم بالأسود الضارية المتحفزة للوثوب ، ثم يصف خصوم الممدوح بأنهم عصاة يستحقون القصاص العادل ، و يذكر الشاعر قبيلة زناتة التي ينتسب إليها حكام الدولة الزيانية بتلمسان ، و أن مقاتليها أبطال أشاوس ورثوا الشجاعة عن أسلافهم ، فبالرغم من محاربتهم للممدوح إلا أن الشاعر أنصفهم و لم يقلل من شأنهم ، فقد استدركوا الموقــــــــــــــــف و دخلوا في حمى الممدوح طائعين .

و قال ابن الأبار يمدح أبا زكريا بمناسبة العفو عنه ، من قصيدة لامية على بحر الطويل :

تَحَلَّتْ بِعَلْيَاكَ اللَّيَالِي الْعَوَاطِلُ وَ دَانَتْ لِسُقْيَاكَ السَّحَابُ الْهَوَاطِلُ
وَ مَا زِينَةُ الْأَزْمَانِ إِلَّا مَنَاقِبُ يُفَرِّغُهَا أَصْلَانُ : بَأْسٌ وَ نَائِلُ
إِذَا الصَّوْلُ وَ الطَّوْلُ اسْتَقَرَّا بِرَاحَةٍ تَرَقَّتْ لَهَا نَحْوَ النُّجُومِ أَنَامِلُ

(1) - المصدر السابق : ص 379 - 380 .

وَمَنْ دَانَ هَذَا الدِّينَ حَقًّا بِنَصْرِهِ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ أَهْلِ دُنْيَاهُ خَازِلٌ
لَكَ الْخَيْرُ هَذِي الْعُجْمُ وَالْعَرَبُ تَعْتَدِي بِهَا مُنْشَاتٌ أَوْ تَرْوَحُ رَوَاحِلُ
تَمَلَّكَهَا رُغْبٌ وَرُغْبٌ مُخَامِرٌ فَرُسُلٌ عَلَى حُكْمِ الْمُتَى وَرَسَائِلُ
وَرَدَّ عَلَى رَعْمِ الْأَثُوفِ وَجُوهَهَا إِلَيْكَ أَسَاطِيلُ سَطَّتْ ، وَجَحَافِلُ⁽¹⁾

يباشر الشاعر مدحه للسلطان أبي زكريا الحفصي من مطلع القصيدة دون مقدمة و لا تمهيد ، فيقول إن الليالي التي غابت عنها نجومها التي كانت تتحلى بها و تتزين ، قد و جدت في مجد الممدوح و علو شأنه بديلا عنها ، كما أن كرمه الفياض و جوده العميم فاق جود السحاب الممطرة ، فاعترفت له بالفضل و سلمت له بالسبق ، ثم يقف ليقرر بديهية مسلم بصحتها مفادها ، أن أحسن ما في الدهر و أسما ما في الوجود فضيلتان : الشجاعة و الكرم ، فقد حازهما الممدوح و تميز بهما ، فبلغ المجد و السؤدد ، ثم يمدحه بنصرة الدين و إعلاء لواءه فأطاعه الناس و لم يخذله أحد ، فأضحى مأمول الخير مرهوب الجانب ، و قد قصده الناس قاطعين البحار بالسفن أو الفياقي و القفار بالرواحل ، كما أن الممالك من عرب و عجم قد تهيئته فراحت تخطب وده بالرسائل و الوفود ، و سبب ذلك قوة جيشه العرمرم الذي اكتسح البر و البحر ، فأرغم الخصوم و المناوئين على مسالمته و طلب عفوهِ.

لقد استجاب ابن الأبار في مدائحه بالبلاط الحفصي للشكل الفني للقصيدة العربية القديمة ، غير أن هذه الاستجابة لم تكن تامة و مطلقة ، و جاءت مدائحه للحفصيين على نمطين : قصائد مركبة متعددة الموضوعات التزم فيها بأهم أجزاء القصيدة العربية التقليدية ، من مقدمة و حسن التخلص إلى المديح و خاتمة ، غير أنه أسقط بعض أنواع المقدمات و بعض عناصرها — أيضا — كوصف الرحلة و الراحلة و مشاهد الطريق وصولا إلى الممدوح ، هذه العناصر التي أصبحت لا تتلاءم مع روح العصر و طابع البيئة و ذوق الشاعر و الممدوح معا .

(1) - المصدر السابق : ص 235 - 236 .

أما من ناحية الطول و القصر في مقدمات ابن الأبار ، فقد استهلكت جل مقدماته ثلث القصيدة ، و هو طول نسبي ملحوظ و ربما تجاوزت بعض مقدمات قصائده الأربعين بيتا ، الأمر الذي جعله يستنزف الكثير من الألفاظ و المعاني التي كان موضوع القصيدة الأساسي أولى بها .

كما أنه اكتفى بنوعين من المقدمات هي : المقدمة الغزلية في الغالب الأعم ، و المقدمة الطللية في القليل النادر ، متخليا عن غيرهما من الأنواع الأخرى .
أما الكثرة الكثيرة من مدائحه بالبلاط الحفصي ، فجاءت على شكل قصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، حيث يبدأها مباشرة دون مقدمة و لا تمهيد ، متاولا المديح من أول وهلة ، غير أنها لا تخلو من براعة الاستهلال و لا من حسن الخاتمة .

و على العموم فإن ابن الأبار في مدائحه للحفصيين ، ينقاد حيناً لطريقة الأقدمين في بناء قصائدهم و يتكرر لها حيناً آخر ، و يتناول الغرض مباشرة دون مقدمة و لا تمهيد في أحيان كثيرة ، حيث يطرق المديح من مطلع القصيدة إلى نهايتها .

ب - الصورة الشعرية :

1 - توطئة نظرية :

الصورة الشعرية شكل تعبري عما يحيش في نفس الشاعر أو الأديب من عواطف و أحاسيس ، و ما يختلج في ذهنه من أفكار و معان ، فيعمل على إيصالها إلى المتلقي، بشكل يجلب انتباهه و يثير ذائقته الفنية و يدفعه للتفاعل معها ، و لتحقيق هذه الغاية يتوسل الشاعر أو الأديب اللغة و ما تمنحه له ألفاظها و عباراتها و أساليب أدائها ، من طاقات تعبيرية مشحونة و مكثفة و موحية بما يقصد التعبير عنه .

و من تعريفات الصورة الشعرية ما جاء في قاموس مصطلحات الأدب :
((الصورة الأدبية هي ما ترسمه مخيلة الأديب باستخدام اللفظ كما ترسمه ريشة الفنان ، و تكون متأثرة بحالة الأديب النفسية ، إما بهيجة ، و إما كئيبة ، و تتجلى الصورة في التشبيه و المجاز و الاستعارة و الكناية ، و المعروف أن الصورة الأدبية الموفقة تخلق في النص جمالا و جذبا) (1).

و أشار النقد الأدبي القديم إلى الصورة الشعرية و عدها إحدى الركائز الأساسية للشعر ، غير أن حديث القدماء حول الصورة الشعرية كان مجملا ، إذ لم يفصلوا القول فيها و لم يحددوا أنواعها و أشكالها و طرق توظيفها بدقة .

و من النقاد القدماء الدارسين لتراثنا الأدبي الذين أشاروا باقتضاب إلى التصوير في الشعر ، نجد الجاحظ من خلال تعريفه للشعر فقد ذكر قائلا : ((فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج و جنس من التصوير) (2) .

(1) - محمد بوزواوي : قاموس مصطلحات الأدب ، دار مدني للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، 2003م ، ط 1 ص 161 .

(2) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحيوان ، تحقيق/ عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 4 ، 1395هـ / 1975م ، ج 3 ، ص 131 .

و لم يتجاهل عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ / 1078م) الصورة الشعرية فأشار إليها بقوله : ((و جعلوا كالمواضعة بينهم أن يقولوا اللفظ و هم يريدون الصورة))⁽¹⁾ .

و حاول ابن رشيق — من جهته — أن يفصل القول في الصورة الشعرية عند حديثه عن الوصف و التشبيه و الفرق بينهما ، فعد الوصف صورة مباشرة و التشبيه صورة غير مباشرة ، فقال : ((الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، و لا سبيل إلى حصره و استقصائه ، و هو مناسب للتشبيه ، مشتمل عليه ، و ليس به لأنه كثيرا ما يأتي في أضعافه ، و الفرق بين الوصف و التشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء ، و أن ذلك مجاز و تمثيل . و أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثل عيانا للسامع))⁽²⁾ .

أما حازم القرطاجني فقد عد التخييل عماد الصناعة الشعرية فقال : ((واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها بالأقوال ، و بإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة))⁽³⁾ .

أما النقد الأدبي الحديث فقد احتفى بالصورة الشعرية و اعتنى بدراسة جوانبها عناية فائقة ، و لعلنا لا نبالغ حين نقول إن نقاد الأدب و صيارفته في عصرنا هذا ، لم يعتنوا بقضية من قضايا الشعر عنايتهم بالصورة الشعرية ، وذلك من خلال تحديد مفهومها و إحصاء أنواعها و أشكالها و إيضاح خصائصها و مجالات توظيفها في القصيدة .

و يأتي جابر عصفور في طليعة الدارسين المحدثين الذين أولوا عنايتهم بالصورة الشعرية ، فقد عرفها بقوله : ((الصورة الفنية طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى — من

(1) - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1986م ، ص 338 .

(2) - ابن رشيق : العمدة ، ج 2 ، ص 294 .

(3) - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص 62 .

المعاني من خصوصية و تأثير . و لكن أيا كانت هذه الخصوصية ، أو ذاك التأثير ، فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته . إنها لا تغير إلا من طريقة عرضه و كيفية تقديمه))⁽¹⁾ .

و تناول مصطفى ناصف الصورة الشعرية بالدراسة و البحث ، فقد عدها نتاج مشترك لتعاون الحواس و الملكات ، و أنها عنصر إثارة للعواطف و الأفكار .
((إن التصوير في الأدب نتيجة لتعاون كل الحواس ، و كل الملكات ؛ و الشاعر المصور حين يربط بين الأشياء يثير العواطف الأخلاقية و المعاني الفكرية ، و في الإدراك الاستعاري خاصة تتبلور العاطفة الأخلاقية و تتحدد تحددًا تابعًا لطبيعته))⁽²⁾ .

و أدلى علي البطل — هو الآخر — بدلوه في موضوع الصورة الشعرية ، فقد أفرد لها بالدراسة من خلال كتابه الموسوم (الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري) ، فبحث في أصولها و تطورها في الشعر العربي القديم وصولاً إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، و يعرفها بقوله : ((فالصورة تشكيل لغوي ، يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة ، يقف العالم المحسوس في مقدمتها))⁽³⁾ .

كما نشير إلى أن موضوع الصورة قد خص بالبحث و الدراسة العميقين من طرف الدارسين الغربيين ، فقد كانت الصورة و لا تزال عندهم تحظى باهتمامهم و تتصدر دراساتهم النقدية لشعر شعرائهم .

و من هؤلاء نجد فرانسوا مورو (François Moreau) الذي يعترف من الوهلة الأولى بصعوبة ضبط مفهوم الصورة و تحديد مدلولها بدقة ، فيقول :

(1) - جابر عصفور : الصورة الفنية — في التراث النقدي و البلاغي ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1974م ، ص 392 - 393 .

(2) - مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، دار الأندلس ، بيروت ، ط3 ، 1983م ، ص 8 .

(3) - علي البطل : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري — دراسة في أصولها و تطورها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 2 ، 1981م ، ص 30 .

((إن الصورة (Image) هي واحدة من الكلمات التي ينبغي أن يستعملها عالم الأسلوب بحذر و ضبط دقيقين ، إذ إنها غامضة و غير دقيقة في نفس الآن ، غامضة لكونها تسمح باستعمالها بمعنى عام مبهم جدا وواسع جدا ، و ذلك بالنظر إلى هذا الاستعمال من منظور أسلوبى ، و غير دقيقة لأن استعمالها ، و لو في مجال البلاغة المحصور ، عائم و غير محدد بدقة))⁽¹⁾ .

و للصورة الشعرية أنواع متعددة و أشكال مختلفة ، و يعود سبب هذا إلى تعدد و تنوع و اختلاف الأدوات البلاغية و الأساليب اللغوية التي تتشكل منها . و يعترف جابر عصفور بصعوبة حصر الأنواع البلاغية للصورة الفنية ، فيلجأ إلى اختيار أهم الأدوات البلاغية المشكلة لها ، فيقول : ((و ليس ثمة مفر من التوقف عند التشبيه و الاستعارة فحسب ، و الاختيار هنا له ما يبرره بالطبع ، فالتشبيه هو أكثر الأنواع البلاغية أهمية بالنسبة للناقد و البلاغي القديم ، و الحديث عنه بمثابة مقدمة ضرورية لا يمكن تأمل الاستعارة و المجاز دونها . أما الاستعارة فإنها تتيح لنا أن نشير إلى المجاز دون أن نفصل فيه ، فضلا عن أنها — و هذا هو المهم — توضح النتائج التي ترتبت على فهم القدماء لفاعلية الخيال الشعري و حدوده و طبيعته))⁽²⁾ .

يقول علي البطل متحدثا عن أنواع الصورة الشعرية : ((يتميز في تاريخ تطور مصطلح الصورة الفنية مفهومان ، قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه و المجاز ، و حديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين هما الصورة الذهنية و الصورة باعتبارها رمزا))⁽³⁾ .

لقد كانت الصورة الشعرية و لا تزال ، الأداة المفضلة و الوسيلة الفنية الأكثر تأثيرا لدى الشعراء ، فقد استعملوها في نقل تجاربهم الشعرية و تجسيدها للمتلقى

(1) - فرانسوا مورو : البلاغة - مدخل لدراسة الصور البيانية - ترجمة محمد الولي ، عائشة جريز ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2003م ، ص 15 .

(2) - جابر عصفور : الصورة الفنية ، ص 207 .

(3) - علي البطل : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، ص 15 .

بشكل يثير انتباهه و يحرك عواطفه و يدعو للتفاعل معها ، و ذلك يعود لما تتوفر عليه الصورة ، من قدرة على الإيحاء بالمعنى و تكثيفه ، و خصوبة الخيال و حيوية الحركة ، و إمكانية عرض المعاني و الأفكار عرضا حيا مؤثرا ، و إبرازها عبر تقنية التجسيم و التشخيص و باقي الأدوات البلاغية التي تتشكل منها ، حتى لتوشك أن تمثلها عيانا و حقيقة للمتلقي .

((و لذلك فقد كانت العناية بالصورة و التماس اللطيف و الغريب منها و الإكثار من التشبيهات و الاستعارات من أهم المعايير الجمالية التي شكلت ذوق العصر ، و بخاصة ذوق الطبقة الأرستقراطية في المجتمع ؛ طبقة الحكام من الملوك و الأمراء و الوزراء و غيرهم من ذوي الجاه و المال و النفوذ))⁽¹⁾ .

غير أن الشعراء المتأخرون في مدائحهم للخلفاء و الأمراء و الأشراف ، قد ضلوا عاكفين على الصور الشعرية القديمة التي أنتجتها قرائح أسلافهم و رسمتها مخيلة سابقيهم من شعراء العربية بمهارة و دقة .

((و ظل هذا المديح المتكسب يتقلب على العصور الإسلامية منذ العصر العباسي ، فيزداد عكوبا على الصور التقليدية ، و يردد ما قيل من قبل ، و يعيد على المسامع ما قاله هؤلاء الفحول لأنهم بلغوا ذروة المديح ، و لا بد من انحدار بعد العلو الشاهق ، فأصبح الشعراء في محيط ضيق من المعاني و عدد محدود من الصور و معجم مرسوم من الألفاظ و التراكيب ، كأن الخيال قد بلغ النهاية ، فليس للشعراء أن يضيفوا في مديحهم للملوك إلا ما يقع في الندرة بعد الندرة من فكرة طارئة و حادثة طارئة))⁽²⁾ .

فالركود الذي أصاب الشعرية العربية على غرار ما أصاب جل نواحي الحياة في الفترة الأخيرة من حياة الدولة العباسية ، كان مؤذنا بزوال هذه الدولة نفسها التي

(1) - أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس - قضاياها الموضوعية و الفنية عصر الطوائف ، ص 201 .

(2) - سامي الدهان : المديح ، ص 35 .

حكمت العالم الإسلامي زمنا طويلا يفوق الخمسة قرون ، فتراجع الإبداع و جفت مصادره ، فسقط الشعراء في دائرة التقليد و الاجترار ، و عكفوا على الصناعة اللفظية و الزخاف البديعية الأمر الذي ذهب برواء الشعر و رونقه .

((و إذا عدنا إلى الشاعر المغربي وجدناه قد اعتمد في بناء صورته على الأدوات البلاغية القديمة المستخدمة في بناء الصورة ، كالتشبيه و الاستعارة و الطباق و المقابلة و غيرها من المقومات الأسلوبية الأخرى ، و إذا كانت القدرة على قول الشعر و نظمه تتفاوت من شاعر لآخر ، و هي ظاهرة عامة موجودة في سائر العصور ، فإن استعمال المحسنات و الزخارف البديعية ، يختلف من شاعر متمكن قوي الدباجة إلى شاعر ضعيف ، تعوزه الملكة الشعرية فيلجأ إلى اصطیاد الألفاظ المتقابلة أو المتجانسة أو المتطابقة ، وسيلة لتغطية ضعفه و رغبة في استهواء الممدوح))⁽¹⁾ .

لقد استقى ابن الأبار معظم صورته و معانيه من الإرث الشعري العربي القديم ، فجاءت صورته تقليدية وفق أنماط الصور الشعرية التي ابتدعها خيال أسلافه من فحول الشعراء العرب ، على غرار معاصريه من شعراء الأندلس و المغرب ، و ظل الشاعر وفيها لهذه التقاليد الموروثة في بناء صورته الشعرية ، و لم يشد عنها إلا في بعض الجزئيات و الخصائص التي وفرتها البيئة الأندلسية و المغربية ، أو ما سمحت به شاعريته و ما يمتلكه من طاقات تعبيرية خاصة به في هذا المضمار .

إن وفاء ابن الأبار للتقاليد العربية الموروثة في بناء الصورة الشعرية له ما يبرره ، فمن طبيعة الأشياء أن كل تجربة جديدة لابد لها من نموذج تحاكيه و تت رسم خطاه و تتسج على منواله ، حتى إذا نضجت هذه التجربة و استوت على سوقها ،

(1)- محمد إحدان : الحياة الأدبية و الثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، مخطوطة رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي ، كلية الآداب و اللغات ، جامعة الجزائر ، 2006م ، ص 245 .

انطلقت لتؤسس لنفسها شخصيتها المستقلة و لتضيف إلى نماذج الأسلاف عناصر جديدة من عبقيتها و تميزها .

و كان لتوجيهات النقد و حثهم الشعراء على ضرورة السير على طريقة القدماء في تشكيل الصور الشعرية ، أثره الواضح و الكبير على تقليد المتأخرين للمقدمين من فحول شعراء العربية ، فمن خالف هذا المنهج تعرض للمؤاخذة و التوبيخ .

و التقليد في صناعة الشعر أمر ضروري لكل شاعر مبتدئ ، لكن لابد له من الالتزام ببعض الضوابط التي تحكمه ، ((فلا ريب أن صناعة الشعر و سائر الفنون يعوزها أول الأمر الاقتداء بالنوابغ و الفحول و احتذاء نماذجهم و النسج على منوالهم . و لكن هذا الأمر ينبغي أن ينظر إليه من حيث أنه مرحلة فحسب ، و إلا بقي الشاعر يدور في فلك سواه و غابت ملامح شخصيته في غمار أساليب الآخرين))⁽¹⁾ .

و قد تعددت أنماط الصورة الشعرية في قصيدة المديح لابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي و تنوعت أشكالها ، إذ تعج مدائحه للحفصيين بالكثير من الصور الشعرية ، مثل : الصورة المباشرة التي تعتمد على الوصف و استعمال اللفظ بمعناه الحقيقي ، و الصورة البيانية التي تقوم على الأساليب البلاغية من مجاز و تشبيه و استعارة و كناية ، و الصورة العقلية التي توظف الحجاج و تستعمل البراهين و ضرب الأمثلة ، بحثا عن الإقناع و إثباتا للشمائل و محاسن الصفات للممدوح .

(1) - عمر الدقاق : نقد الشعر القومي ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1978م ، ص 165 .

1- أنواع الصورة :

- الصورة المباشرة :

الصورة الشعرية المباشرة ، هي تلك الصورة التي لا يعتمد الشاعر في بنائها على الأدوات و الأساليب البلاغية التي تعطي — عادة — للألفاظ دلالات جديدة غير دلالاتها الحقيقية ، بل تتشكل بواسطة الوصف المباشر اعتمادا على المعاني الحقيقية للألفاظ ، الأمر الذي يجعلها في معظم الأحيان بعيدة عن الخيال قريبة من الواقعية و التقريرية .

فالصورة المباشرة إذن ((هي الصورة التي تحكي واقع ما يصفه الشاعر على حقيقته ، و لا يدخل فيها التصوير البياني من تشبيه و استعارة و غيرها من فنون علم البيان))⁽¹⁾.

و من أمثلة الصورة المباشرة قول ابن الأبار يمدح السلطان أبا زكريا الحفصي، من قصيدة على روي النون من بحر مixel البسيط :

وَ سِرَتْ تَمْشِي إِلَى الْمُصَلَّى هَوْنًا يُغْشِي الْعُدَاةَ وَهَنَا
ثُمَّ أَبْحَتَ الْمُلُوكَ كَفًّا هَامُوا بِتَقْبِيلِهَا وَ رَدْنَا
وَ قَدْ مَلَأَتِ الْبِلَادَ أَمْنًا وَ قَدْ غَمَرَتِ الْعِبَادَ مَنًّا⁽²⁾

يصف ابن الأبار في هذه الأبيات السلطان أبا زكريا الحفصي ، أو قد خرج في صبيحة عيد الضحى قاصدا المصلى ، لأداء صلاة العيد مشيا على الأقدام في تواضع و وقار ، ثم أقبلت الوفود من ملوك و أمراء لتتهنئته بالعيد و بازدياد ولده عثمان ، فالمناسبة مزدوجة و السعادة تغمر الجميع ، فالسادة و الأشراف يتهافتون لتقبيل كف السلطان ، و تقديم طقوس الطاعة و الولاء في حب و رضى كبيرين ، فقد نشر الأمن و أرسى الاستقرار في كامل مملكته ، و وطد أسس دولته التي دانت

(1) - محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي ، ص 467 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 304 .

لعزتها مختلف الممالك ، و أذعنت لسلطانها المدن و الأمصار ، و غمر بكرمه
و عطفه كل رعيته .

فهذا الوصف يقدم لنا صورة مباشرة تتغل الحدث بأمانة و واقعية ، فقد انعدم
الخيال فيها و جفت منها العاطفة و فقد الإيحاء ، فالشاعر استعمل الألفاظ بمعانيها
الحقيقية ، بعيدا عن المجاز و التشبيه و الاستعارة و باقي فنون البلاغة ، فكأننا أمام
تقرير عادي حول حدث من الأحداث ، أو تأريخا لواقعة من الوقائع ، فالألفاظ على
قدر المعاني .

و من الصور المباشرة — كذلك — قوله يمدح السلطان أبا زكريا و ابنه محمد
المستنصر ، بمناسبة تنصيبه وليا للعهد سنة (646هـ) ، من قصيدة دالية على بحر
الرجز :

وَلَمْ يَدَعْ أُمَّةَ أَحْمَدَ سُدَى حَيْثُ ارْتَضَى لِعَهْدِهَا مُحَمَّدًا
لِلَّهِ مَا أَشْرَفَ آثَارُهُمَا فِي الصَّالِحَاتِ وَالِدًا وَ وَلَدًا
مَا بَيْنَ هَادٍ مِنْهُمَا وَ مُهْتَدٍ تَبَدُّوا كَمَالَاتُ الْوُجُودِ إِذْ بَدَأَ⁽¹⁾

إن السلطان أبا زكريا لم يرد أن يترك رعيته دون راع من بعده ، فقام بتعيين
ولده محمد وليا لعهد ، حرصا منه على استمرار الدولة و صيانة للأمة من الضياع
و التمزق ، ثم يشيد الشاعر بالأعمال الصالحة و الخدمات الجليلة التي قدمها
السلطان و ولي عهده للرعية ، فلا تزال آثار منجزاتهما ماثلة للناس ، فقد اتبع الولد
نهج الوالد في حكم البلاد و رعاية مصالح العباد ، فكان خير خلف لخير سلف .

فالشاعر يسرد حدث إسناد ولاية العهد من قبل السلطان لولده محمد ، و يصف
الأعمال الصالحة التي قدمها للأمة ، واقتفاء الولد آثار أبيه في الحكم ، و هو سرد
مباشر بلغة تقريرية جافة من العواطف خالية من الخيال ، هي أقرب إلى الوصف

(1) - المصدر السابق : ص 166 .

التاريخي منها إلى لغة الشعر ، فقد غلب على هذه الصورة الفكر و انحصر الفن ، وغابت عنها فنون البلاغة و البيان .

وتكثر مثل هذه الصور المباشرة التي ينقل من خلالها الشاعر واقع ما يراه نقلاً أميناً ، في شعر الاستتجاد و الاستتهاز عند ابن الأبار ، خاصة إذا كان بصدد وصف آثار النكبة و تقرير الحال التي آلت إليها المدن الأندلسية عقب اجتياحها من طرف الجيوش الصليبية ، أما في مدائحه فالشاعر قليل اللجوء إلى مثل هذه الصور لعدم قدرتها على تحقيق الغرض المرجو من المديح ، و عجزها عن الإشادة بفضل الممدوح وتخليد ذكره ، و قلة فاعليتها في تحريك عواطفه و ودغدة أحاسيسه لنيل رضاه و استحقاق الجائزة و المكانة عنده .

- الصورة البيانية :

الصورة البيانية هي تلك الصورة التي تتأسس على علم البيان خاصة و الفنون البلاغية عامة ، و لذلك تسمى بالصورة البيانية أو البلاغية ، و هي صورة غير مباشرة ؛ لأن الألفاظ المشكلة لها تتخلى عن معانيها و دلالاتها الحقيقية ، لتكتسب معانٍ و دلالات أخرى مجازية ، و تكون أكثر إichاء بالمعنى و أوفر حظا من الخيال و أبلغ أثرا في النفس .

((و لعل أول ما تتميز به الصورة البلاغية ، هو التزامها بالحدود العقلية و اكتفاؤها بمحاكاة الواقع ، و يستوي في ذلك أن تكون الصورة تشبيهية أو استعارية أو كناية . كما تتميز — في الغالب — بقيامها على طرفين هما المشبه و المشبه به ، أو المستعار منه و المستعار له ، أو المكنى به و المكنى عنه))⁽¹⁾ .
و من روائع الصور البيانية عند ابن الأبار ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا الحفصي من قصيدة همزية على بحر الكامل :

تَقَعُ الْجَلَالُ وَ هُوَ رَأْسُ رَأْسٍ فِيهَا يُوقَعُ لِلسُّعُودِ جَلَاءُهَا
كَالطُّودِ فِي عَصْفِ الرِّيحِ وَ قَصْفِهَا لَا رَهْوَها يَخْشَى وَ لَا هَوَجَاءُهَا
سَامِي الدَّوَابِّ فِي أَعَزِّ دَوَابِّهِ أَعْلَتْ عَلَى خَيْمِ النُّجُومِ بِنَاءُهَا
كَالغَيْثِ صَبَّ عَلَى الْبَسِيطَةِ صَوْبُهُ فَسَقَى عَمَائِرَهَا وَ جَادَ قَوَائِمَهَا⁽²⁾

يصور الشاعر ممدوحه في صورة جبل عظيم شامخ القمة لا تهزه الأحداث الجسام و لا تحركه الرياح العاتية ، فالممدوح يتصف بالثبات و الرزانة و الاستقرار عند شدائد الوقائع و أثناء عظام الأحداث ، ثم يصفه بالعلو و الرفعة فقد تجاوزت مكانته نجوم السماء ، كما أن فضل الممدوح قد شمل الجميع في المدن العامرة و الفيافي الخالية ، و لم يستثنى أحدا فهو كالغيث أينما وقع نفع .

(1) - الربيعي بن سلامة : تطور البناء الفني في القصيدة العربية ، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، 2006م ، ص 164 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 39 .

لقد اعتمد ابن الأبار على الأدوات البيانية من تشبيه في قوله : (كالطود ، كالغيث) ، و استعارة مثل قوله : (وهو راس راسخ) ، وهي صورة بيانية تقليدية مألوفة لكثرة تداولها في الشعر العربي ، فقد شبه الشعراء القدماء الثبات بالجبل و الجود بالمطر ، لكن الشاعر بالغ في وصف ممدوحه و غالى في نعتيه بالرفعة و العلو ، فجعله أعلى مكانة و أسما منزلة من نجوم السماء ، و هي مبالغة ممجوجة و غير مستساغة ، فقد أطلق العنان لخياله المجنح فجنح به عن المألوف و خرج به عن حد الاعتدال ، ((فالمبالغة بهذا الشكل قد لا تكون مستساغة لأنها مبنية على الوهم ، فلا النجوم لها خيم و لا السلطان يعلوها ، و ليس هذا من الخيال الصالح للأدب))⁽¹⁾ .

يقول ابن الأبار مادحا أبا زكريا مصورا شجاعته و يمينه و بركته على الناس :

إِنْ صَالَ وَسَطَ الزُّحُوفِ لَيْثًا صَابَ خِلَالَ الْمُحُولِ مُرْتًا⁽²⁾

فالممدوح يضارع الليث في الشجاعة و الإقدام في ساحات المعارك و ميادين الوغى ، كما يشبهه بالسحاب الممطر الذي يزيل عن الأرض الجفاف و الجذب و يعيد لها خصبها و اخضرارها ، فكذلك الممدوح بكرمه و بره برعيته التي تنتظر منه ما تنتظره الأرض من السحاب الممطر .

و هي صورة تقليدية أساسها التشبيه ، فقد جرت عادة الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي على تشبيه الشجاع بالأسد و الجواد بالسحاب الممطر ، ولم يخرج ابن الأبار في تشبيهاته عن تلك التقاليد العربية الراسخة في هذا المجال ، بل كان وفيا لها فقد وظفها في مدائحه للحفصيين .

(1) - إسماعيل زردومي : شعر الاستغاثة للأندلس - مخطوطة رسالة الماجستير ، كلية الآداب ، جامعة باتنة ،

1995م ، ص 172 .

(2) - ابن الأبار : الديوان ، ص 303 .

و قال يمدح أبا زكريا الحفصي مصورا جوده و كرمه ، من قصيدة بائية على بحر الكامل :

مَلِكٌ أَقَامَ الْحَقَّ عِنْدَ قَعُودِهِ وَ أَعَادَ فَيْضَ الْجُودِ بَعْدَ نُضُوبِهِ⁽¹⁾

ينوه الشاعر بممدوحه و ما اتصف به من عدل و جود ، فقد أسس مملكته على العدل و المساواة ، كما أنه أعاد الكرم و الجود ليفيض ببركاته و يغمر الناس به بعد أن كاد يجف نبعه و يتوقف تدفقه ، و الشاعر في هذا البيت يصور عن طريق الاستعارة المكنية ، الجود و الندى الذي أعاد السلطان إحياءه و بعثه ، في صورة نهر متدفق قد فاض ماؤه على ضفافه فسقى كل ما حوله ، فكذلك جود الممدوح و كرمه الذي أذهب البؤس و الفقر على الرعية ، و زاد في جمال الصورة بعض المحسنات البديعية كالطباق في قوله : (أقام ، قعوده ، فيض ، نضوبه) ، الأمر الذي جعلها أكثر وضوحا في الذهن و أشد تأثيرا في النفس .

و هي صورة بيانية تقليدية قوامها الاستعارة المكنية ، و قد كثر توظيفها في شعر المديح العربي على مر العصور و اختلاف البيئات .

و من أمثلة الصورة البيانية في مدائح ابن الأبار قوله من القصيدة نفسها :

مُتَبَسِّمًا وَ رِمَاحُهُ تَبْكِي دَمًا فِي الْيَوْمِ تُحْجِبُ شَمْسُهُ بِكُغُوبِهِ

حَيْثُ الْمُهِندُ مُسْمِعٌ بِصَلِيلِهِ وَ الْمَوْتُ سَاقٍ لِلْكَوْمَةِ بِكُوبِهِ⁽²⁾

فقد صور الشاعر شجاعة الممدوح و ثبات جأشه و ثقته الكبيرة في تحقيق الانتصار على الأعداء ، فهو يخوض المعارك و يواجه الأهوال مبتسم الوجه طلق المحيا — خلافا لعادة المحارب في مثل هذه المواقف ، حيث يكون عابس الوجه مقطب الجبين — كأنه قد ضمن النصر قبل أن تنتهي المعركة ، فقد عظم الخطب و جسم الكرب فالقتال يشتد و المعركة تزداد ضراوة و قد حجب غبارها أشعة

(1) - المصدر السابق : ص 78 .

(2) - المصدر نفسه : ص 79 .

الشمس ، فلا تسمع في خضم ذلك إلا أصوات السيوف و لا ترى إلا الرماح تقطر دما ، و قد أضحى الموت يتخطف الأبطال من كل جانب ، ففي ظل هذه الأجواء الدامية و الأخطار المحدقة ، يقف الممدوح يستعرض الأبطال و المقاتلين باسم الثغر منبسط أساريير الوجه ، فالصورة بيانية قوامها الاستعارة المكنية ، فالرماح تبكي و السيوف تصيح و الموت كأنه إنسان يسقي بكأسه الأبطال ، و هي صورة تقليدية كثيرا ما رسمها الشعراء لممدوحيه و هم يخوضون المعارك و يقودون الجيوش* .
و من الصور القائمة على التشبيه في مدائح ابن الأبار بالبلاط الحفصي ، قوله يمدح الخليفة المستنصر ، من قصيدة على روي الحاء من بحر الكامل :

كَالطُّودِ إِلَّا عِنْدَ نَعْمَةٍ مَادِحٍ فَهُنَاكَ يَجْمَعُ لِلْأَنَاءِ مُزَاحًا⁽¹⁾

يشبه الشاعر ممدوحه في الثبات و الرزانة و رسوخ قدمه ، بالجبل العظيم الشامخ القمة الذي لا تحركه العواصف و لا يتغير بتغير الزمان ، لكنه رقيق النفس مرهف الحس سريع التأثر عند سماعه للمديح و الإنشاد ، كثير المزاح طيب المعشر ، فالممدوح يتميز بالصرامة و الجد و الصلابة و الثبات في موقف الجد ، كما يتميز بروح الدعابة و الهزل و المزاح في المواقف و المقامات التي تتطلب ذلك.

و من صورته القائمة على التشبيه — كذلك — قوله يمدح حاكم بجاية بعد أن أسندت له ولاية العهد من قصيدة دالية على بحر الكامل :

هَدِي بِجَايَةٍ قَدْ سَدَدَتْ ثُغُورَهَا بِمُبَارَكٍ يُمْضِي الْأُمُورَ مُسَدِّدًا
كَالغَيْثِ كَفًا إِنْ حَبَا ، كَاللَّيْثِ قَلْبًا إِنْ حَمَى ، كَالْبَدْرِ وَجْهًا إِنْ بَدَا⁽²⁾

* - لقد صور المتنبي سيف الدولة الحمداني في قلب المعركة وضاح الوجه باسم الثغر يستعرض الأبطال و الفرسان من جيش العدو مهزومين تنزف جراحهم دما ، حيث يقول المتنبي يمدح سيف الدولة عقب انتصاره في موقعة الحدث : تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلُّهُمْ هَزِيمَةً وَ وَجْهُكَ وَصَاحٌ وَ ثَغْرُكَ بِاسْمٍ . ينظر/ المتنبي : الديوان ، تحقيق عبد الرحمان البرقوقي ، دار صادر ، بيروت ، ط 18 ، 1998م ، ص 387 .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 114 .

(2) - المصدر نفسه : ص 168 .

يوجه الشاعر الخطاب إلى السلطان أبي زكريا ، فيقول له إنك قد حصنت مدينة بجاية و سددت ثغورها بتتصيب ولي العهد محمد حاكما لها ، ثم يصف هذا الأخير باليمن و البركة ، و أن له كفاءة ودراية في تسيير شؤون الحكم ، ثم يعدد مناقبه و شمائله ، فيشبهه بالمطر النافع في الجود و الكرم إن هو أعطى و أكرم ، و بالليث الضاري في الشجاعة و الإقدام إن هو تصدى للأعداء ، و بالقمر في وسط الشهر وجها في الجمال و الإشراف إن أطل على الناس .

فهذه الصورة تقوم على التشبيه من جهة ، فالممدوح يشبه الغيث في الجود و الليث في الشجاعة و البدر في جمال الوجه ، و تقوم على المجاز من جهة ثانية حيث نلمحه في قوله (كالغيث كفا) فهو مجاز لغوي علاقته السببية ، حيث ذكر كف اليد التي هي سبب الكرم و مصدره .

و من الصور البيانية القائمة على الاستعارة و المبنية على التجسيم و التشخيص، قول ابن الأبار يمدح السلطان أبا زكريا من قصيدة همزية من بحر الكامل :

بَرَكَتْ بِكُلِّ مَحَلَّةٍ بَرَكَائِيُهُ شَفَعًا يُبَادِرُ بِدَلِّهَا شَفْعَاءَهَا⁽¹⁾

يصور ابن الأبار شمائل ممدوحه و شيمه الكريمة تصويرا حسيا ، فبركات السلطان أبي زكريا و أياديه البيضاء على رعيته قد عمت البلاد و حلت بكل مكان ، وفي كل موضع ، فجوده غمر الناس جميعا فلم يبق منهم محتاجا و لا محروما إلا شملته هذه البركة ، وزاد في وضوح هذه الصورة و تأثيرها قدرة الشاعر الفنية و مهارته في تجسيم و تشخيص* الصفات المعنوية في صور مادية محسوسة تطفح

(1) - المصدر السابق : ص 39 .

* - التجسيم بمعناه الفني هو أن يتخيل الأديب الفنان الأمر المعنوي أو العرض صورة مادية معينة يرسمها في ذهنه ويصير هذا الأمر في خياله جسما ، على وجه التمثيل والتشبيه والاستعارة ، ومثال ذلك أن يتخيل للمعاني المجردة ذواتا محسوسة تحس وترى ، والمصورون الفنانون يمتازون بهذه الطبيعة فيتخيلون - العدالة كما رسموها - امرأة تمسك بيدها ميزانا وهي معصوبة العينين ... فإذا رأينا شاعرا يذكر : الرجاء الدامي ، أو الأمل البسام ، أو الأملحان الجريحة ، أو الآمال الهاتفة الراقصة ، أو الصمت الذاهل الشريد ، فإن ذلك من باب التجسيم و التشخيص ، وإذا كانت الاستعارة أهم أدوات التجسيم فإن الكناية والتشبيه ، والتشبيه التمثيلي من أدواته أيضا . للمزيد ينظر/ صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، شركة الشهاب ، الجزائر ، ص 101 - 103 . والمتصفح للقرآن الكريم يجد أن الكثير من الآيات قد حفلت بخاصية التجسيم =

بالحركة و تمتلئ بالإيحاء ، فقد جسد في هذا البيت و شخص بركة الممدوح و يمنه و خيره العميم — و هي صفة معنوية — في صورة حسية مرئية و مدركة بحاسة البصر ، هي صورة ناقة و قد بركت في مكانها لتسقي بلبنها كل الناس ، و لقد كانت الناقة عند العرب رمزا للكثير من الصفات و المعاني السامية* .

((و هكذا جاءت الصورة الفنية في شعرنا العربي القديم مستمدة من معطيات الحواس ، خاصة المرئي منها و المسموع ، فكانت ضربا من المحاكاة لعالم الواقع ، يقربها من فنون الرسم و التصوير و التمثيل . و لقد جعلت الحسية الصورة الفنية قريبة المأخذ ، سهلة الإدراك ، جزئية العلاقة في ما يربط بين طرفي الصورة التقليدية : المشبه و المشبه به ، أو المستعار و المستعار منه ، أو الفكرة و ما يكنى به عنها))⁽¹⁾ .

= ومن الأمثلة على ذلك نذكر قوله تعالى : ((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ، وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ)) . فالذنوب جسمت هنا كأنها أعمال تحمل على الظهور زيادة في التجسيم وإمعانا في إيضاحها وتقريرها في ذهن السامع . ينظر/ سورة الأنعام ، الآية 31 .

* - تغنى الشاعر العربي القديم بناقته طويلا و أطنب في وصفها ، و جعلها رمزا للكثير من المعاني و الصفات ، فهي مركبته في رحلته و أنيسه في وحشته و سفينته لقطع بحرا من رمال الصحراء و وسيلته إلى الممدوح ، بالإضافة إلى كونها مصدرا لطعامه و شرابه ولباسه ، فالناقة أداة في الصراع من أجل البقاء و رمزا للثبات و الصمود و المقاومة ، و عنوانا للخصب و الخير و البركة .

(1) - حسن كاتب : الصورة الفنية في شعر حاتم الطائي — مادة تشكيلها و تداخل الحواس فيها - مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 12 - ديسمبر 1999م - شركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، ص 185 .

- الصورة العقلية :

الصورة العقلية هي التي يعتمد الشاعر في تشكيلها على معطيات عقلية ، و تقوم على الحجاج من أجل إقناع المتلقي بالمعنى المراد نقله ، و دفعه للتفاعل معه و اتخاذ موقف صريح منه ، وإبعاد الشك و التردد عنه ، بفضل البراهين و الحجج و الأمثلة التي يسوقها الشاعر ؛ لتقوية اليقين في صورته و معانيه التي يريد إيصالها إلى المتلقي .

و من هذا المنطلق لم يهمل الشعراء في مدائحهم عنصر الإقناع و الحجاج العقلي ، فضمنوا صورهم ألوانا من الحجج و البراهين و طائفة من الأمثال و الشواهد العقلية ؛ ((بغرض المضاعفة من قدرة الصورة على التأثير الانفعالي و الإثارة لمشاعر الممدوح لحثه على اتخاذ الموقف المناسب إزاء التجربة الشعرية التي يتلقاها ... و إقناعه بصحة ما ترمي إليه الصورة من صفات و معانٍ و دلالات رفيعة يراد إثباتها للموصوف كي يتناسب ذلك و رغبة الشعراء في الدعاية لممدوحهم بنسبة الفضائل و الصفات العظيمة إليهم ، و توسل الشعراء في سبيل ذلك بالمحور التماثلي التشبيهي الذي تقترن من خلاله صورتان مركبتان توضعان جنبا إلى جنب ، و بينهما وجه شبه يدرك من مضمون السياق ، و هو نوع من التمثيل))⁽¹⁾ .

و على هذا الأساس جاءت الكثير من الصور الشعرية لابن الأبار في مدائحه للحفصيين ، عقلية تقوم على ضرب المثل و إيراد الحجة و البرهان ، لتحقيق عنصر الإقناع في صورته و معانيه .

و من الصور العقلية في مدائح ابن الأبار للحفصيين التي يجنح فيها نحو الحجاج و الإقناع بضرب الأمثلة ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا من قصيدة بائية على بحر الكامل :

(1)- أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس - قضاياها الموضوعية و الفنية عصر الطوائف ، ص 228 .

يَا حَضْرَةَ التَّوْحِيدِ زَانِكَ حَاضِرًا ثُمَّ اسْتَقَلَّ يَسْدُ ثَغْرَكَ غَائِبًا
وَالْأَسَدُ قَدْ تَنَزَّاهُ عَنْ غَابَاتِهَا لثَغْرَ أَطْرَاقًا لَهَا وَجَوَانِبًا
وَالْبَيْضُ لَوْلَا هَجْرُهَا أَعْمَادَهَا مَا وَاصَلْتُ بَرِّي الرَّقَابِ ضَوَارِبًا⁽¹⁾

ينادي الشاعر الحضرة الحفصية و يصفها بالتوحيد ، فهي من قلاع الإسلام الكبرى و حصونه المنبعة ، و إن بني حفص لا يزالون على عهد الدولة الموحدية سائرون ، فازدهرت هذه الدولة بوجود السلطان أبي زكريا على رأسها ، و قد خرج إلى احدى ثغورها — بجاية — فنصب ابنه حاكما عليها لحمايتها و تسيير شؤونها ، ثم يقيم الشاعر عقد مماثلة و مشابهة بين خروج السلطان من الحضرة لتعزيز الأمن و تحقيق الاستقرار ببعض أطراف مملكته ، و بين خروج الأسد من وسط الغابة إلى أطرافها لبيسط السيطرة على الغابة كلها ، و من جهة أخرى فإن خروج السلطان إلى ثغر بجاية يشبه مفارقة السيوف لأعمادها في المعارك ، فلولا ذلك لما تحققت الفائدة منها في رد كيد المعتدين و إنزال القصاص العادل بهم .

و أتى ابن الأبار بهذين المثالين لتأكيد أهمية الخطوة التي أقدم عليها السلطان ، و إقامة الدليل و الحجة على جدواها في إرساء السلم و حفظ الأمن و تعزيز الاستقرار .

و من الصور العقلية في مدائحه للحفصيين — أيضا — و التي يلجأ فيها إلى الإقناع و الحجاج بالأدلة و البراهين ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا من قصيدة صادية على بحر الطويل :

خِلَافَتُهُ أَلَوَتْ بِكُلِّ خِلَافَةٍ كَذَلِكَ بَطْلَانُ الْقِيَاسِ مَعَ النَّصِّ⁽²⁾

يمدح ابن الأبار السلطان الحفصي بحسن سياسته لشؤون مملكته التي انصاعت لإرادتها بقية الممالك فدخلت في حماه ، فخلافته قد أزاحت كل خلافة غيرها فبسط

(1) - ابن الأبار : الديوان ، ص 71 .

(2) - المصدر نفسه : ص 336 .

حكمه على جميع الممالك و الدول ، فكما أن القياس و الاجتهاد الفقهي يبطل بوجود النص الشرعي ، فكذلك خلافة السلطان الحفصي تلغي و تبطل كل خلافة سواها .
فالشاعر يقيم الحجة على بطلان أي خلافة في وجود خلافة أبي زكريا ، عن طريق القاعدة الأصولية القائلة : (لا اجتهاد مع نص) .
و قوله — كذلك — من القصيدة نفسها :

فَلَا يَرْجُ ظِمَانٌ سِوَاهُ لِرِيٍّ مَحَالٌ وَجُودُ الظِّلِّ فِي عَدَمِ الشَّخْصِ⁽¹⁾

يمدح الشاعر السلطان الحفصي بالكرم و الجود ، فقد أضحى الممدوح ملاذ كل محتاج و رجاء كل فقير ، فلا كريم غيره في عصره و لا جواد سواه من عامة الناس و خاصتهم ، فاستحالة و جود ندا له في الجود و الكرم ، كاستحالة و جود الظل في غياب الأجسام المادية الشاخصة و المنتصبة .
فقد استدل ابن الأبار على تفرد ممدوحه بالكرم و الجود ، عن طريق حجة منطقية مأخوذة من عالم الطبيعة هي : استحالة و جود الظل عند انعدام الأجسام المادية الشاخصة .

لقد كانت الصورة الشعرية في مدائح ابن الأبار للحفصيين تقليدية ، إذ حاكى أسلافه من الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي في صياغتهم لصورهم و ما أبدعته مخيلاتهم ، ولم يخرج عن هذا الإطار الفني المتوارث إلا في القليل النادر ، و كان يرتفع حيناً في صوره إلى مصاف الفحول من الشعراء العرب ، و يسقط أحياناً كثيرة بسبب نضوب الخيال لديه و نزوعه إلى العقل و المنطق و المباشرة و التقريرية ؛ لكونه مؤرخاً و فقيهاً و لغوياً قبل أن يكون شاعراً ، فسيطرة المقاييس العلمية على فكره أضعفت من انطلاق خياله ليخلق في آفاق أرحب ، و هذه النزعة تلمس أكثر ما تلمس في صوره المباشرة و كذا في صوره العقلية حيث تكادان تخلوان من الفنون البلاغية و البيانية ، أما صوره البيانية فكان تواردها في مدائحه

(1) - المصدر السابق : ص 338 .

للأسرة الحفصية تواردا غزيرا ، بل إننا لا نبالغ في شيء إذا تقلنا ، إن معظم صور ابن الأبار في مدائحه للحفصيين تشكلت من الفنون البيانية من تشبيهه و استعارة و مجاز و كناية ، فالاستعارة — مثلا — كان نصيبها من التواجد في صورته و معانيه وفيرا ، فكثرة الاستعارة في لغة الشعر أمرا لازما ، حيث ((تنصدر الاستعارة بشكل كبير بنية الكلام الإنساني ، إذ تعد عاملا رئيسا في الحفز و الحث ، و أداة تعبيرية ، و مصدرا للترادف و تعدد المعنى ، و متنفسا للعواطف و المشاعر الانفعالية الحادة))⁽¹⁾ .

و جاءت معظم الصور الشعرية عند ابن الأبار في مدائحه للحفصيين حسية عامة و بصرية خاصة ، ولم يشد ابن الأبار في هذا الأمر عن المسار الطويل للشعرية العربية ؛ فالتصوير الحسي طابعا مسيطرا و ملازما للشعر العربي القديم منذ نشأته و في كل البيئات التي عرفها مشرقا و مغربا ، و هذه الحسية تهمة طالما رددتها النقد الحديث و وصم بها الشعر العربي القديم الذي يكتفي — حسب — بوصف ظواهر الأشياء دون أن يتعمق بواطنها .

((إن ما يؤخذ على الصور الحسية — عادة — من برودة و محدودية في التأثير ليس أمرا صحيحا دائما ، فكثيرا ما تستحيل هذه الصور الميتة ، على يد شاعر موهوب ، إلى صور متحركة عامرة بضروب الحياة ، مؤثرة في المتلقي تأثيرا بعيد المدى))⁽²⁾ .

(1)- يوسف أبو العدوس : الاستعارة في النقد الأدبي الحديث — الأبعاد المعرفية و الجمالية ، الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط 1 ، 1997م ، ص 11 .
(2)- حسن كاتب : الصورة الفنية في شعر حاتم الطائي — مادة تشكيلها و تداخل الحواس فيها - مجلة العلوم الإنسانية ، عدد 12 ، ص 186 .

خاتمة البحث :

بعد دراسة و بحث و محاورة واستتطاق لأهم المصادر و المراجع التي تمحورت حول مختلف جوانب الحياة في القرن السابع الهجري بالأندلس ————— و المغرب ، توصل البحث إلى النتائج التي يمكن إجمالاً أن نعدها من مكملات ما دار في دراسات و بحوث أخرى ، بالرغم من قلتها كما سبق الذكر ، و هي و إن كانت جديرة بالاهتمام ، إلا أن الدراسة و البحث في الأدب المغربي ، لا يزال بحاجة إلى مزيد من الدرس و البحث و التنقيب ، قصد الوصول إلى مـدركات و معارف أخرى هي في حكم الغائب عن الباحثين و الدارسين عموماً .

فقد عرفت الحياة السياسية بالأندلس وبلاد المغرب الكثير من الأحداث و الصراعات بين المسلمين فيما بينهم من جهة ، و بين المسلمين و النصارى من جهة أخرى ، و أدت إلى سقوط المدن و الممالك الإسلامية بالأندلس في أيدي النصارى ، و تراجع المسلمين و هجرتهم إلى المشرق و المغرب ، و كانت هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة (609هـ) إيذاناً بهذا التراجع ، ولم يتبق للمسلمين بالأندلس في نهاية القرن السابع الهجري إلا مملكة غرناطة بقيادة بني نصر .

كما شهد هذا القرن ببلاد المغرب تفكك الدولة الموحدية إلى ثلاث دويلات متنافسة هي :

— دولة بني حفص بالمغرب الأدنى و شرق المغرب الأوسط ، عرفت ازدهاراً كبيراً ، و هاجر إليها الأندلسيون بكثرة ، واستقطبت جل العلماء و الأدباء من أهل الأندلس .

— دولة بني زيان بالمغرب الأوسط ، و عاصمتها تلمسان ، و كان طابعها حربياً أكثر إلى جانب عنايتها بالعلم و العلماء أيضاً .

— دولة بني مرين بالمغرب الأقصى ، و التي قضت نهائياً على دولة الموحدين وذلك سنة (667 هـ) .

و عرفت الحياة الاقتصادية بجوانبها الثلاثة : (الزراعة ، و الصناعة ، و التجارة) في الأندلس خلال القرن السابع الهجري نشاطا ملحوظا ، و ساعد على هذا النشاط عوامل مختلفة منها : العامل الجغرافي ، و العامل المناخي ، و كذا العامل البشري ، و على غرار ذلك عرفت الحياة الاجتماعية تطورا متزايدا ، و برزت مظاهر الثراء و الرفاهية بجلاء في بداية هذا القرن ، غير أن الأوضاع السياسية المتفجرة ؛ جعل النشاط الاقتصادي يخبو و ينكمش ، فانعكس سلبا على الجانب الاجتماعي ، و بدأت هجرة الأندلسيين نحو بلاد المغرب تتزايد .

و في بلاد المغرب عمل الموحدون و حكام الإمارات المستقلة عنهم ، على توفير الشروط الضرورية لدفع العجلة الاقتصادية إلى الأمام ، و من أهم هذه الشروط : تحقيق الأمن و الاستقرار ، فنشطت الحركة الاقتصادية ، و ساهم ذلك في تحسين معيشة السكان و ازدهار الحياة الاجتماعية ، و استمر هذا الوضع إلى نهاية القرن السابع الهجري .

ازدهرت الحياة الثقافية خلال هذا القرن بالأندلس و المغرب ، و حرص الخلفاء الموحدون على رعاية المثقفين في كل مجالات العلم و المعرفة ، و قد استمدوا نشاطهم الثقافي من توجيهات و تعاليم مؤسس دولتهم محمد بن تومرت ، و برغم الخلافات السياسية داخل الأسرة الموحدية ، و الصراعات الدامية مع الممالك النصرانية ، و التي أدت إلى هجرة أبناء الأندلس و مثقفيها ؛ فقد واصلت الحياة الثقافية سيرها الأمام متوثبة تارة و متأنية تارة أخرى .

و عمل حكام الإمارات المستقلة عنهم في الأندلس و بلاد المغرب على ترقية الحياة الفكرية ، و بذلوا جهودا كبيرة في بناء المراكز الثقافية ، و جلب العلماء و تقريبيهم ، و لم تخب جذوة العلم و نهم المعرفة في أبناء الأندلس و المغرب حتى في أحلك الأيام و أصعب الأوقات ، و نبغ الكثير من العلماء و المثقفين في جل مجالات العلم و المعرفة ، و من أمثال هؤلاء العلماء : ابن الأبار القضاعي الأندلسي الفقيه المؤرخ الكاتب الشاعر .

و ينحدر ابن الأبار من قبيلة عربية ، هي قبيلة قضاة اليمنية التي استوطن
جل أفرادها المهاجرين شرق الأندلس خاصة مدينتي أندية و بلنسية و المناطق
المجاورة لهما .

نشأ ابن الأبار في بيت علم و ثراء ، تنشئة صالحة محاطا برعاية عائلته التي
وفرت لابنها ظروفًا تساعد على النبوغ و التفوق ، فشب الشاعر شغوفًا بالمعرفة ،
حريصًا على طلب العلم ؛ فقد كان والده من أعيان بلنسية و علمائها .

كان مسار ابن الأبار في طلب العلم حافلًا و ثريًا ، فقد حفظ القرآن عن والده
و أخذ العلوم الشرعية و اللغة و الأدب ، إذ تتلمذ على أكثر من مائتي شيخ من
علماء الأندلس ، وفق نظام الدراسة المتبع وقتئذ و هو نظام الاستماع و الإجازة .
لم يركن ابن الأبار للراحة و الفراغ بل لقد كانت الرحلة لطلب العلم ديدنه و السفر
لتحصيل المعارف دأبه ، الأمر الذي يفسر نبوغه المبكر و مكانته التي حققها .

شغل ابن الأبار مناصب سياسية مرموقة ، فقد قربته بعض الحكام و الأمراء ،
بالأندلس أو بالإمارة الحفصية ، لعلمه الغزير و كفاءته في إدارة شؤون الحكم .
عرف ابن الأبار بنفسيته المتأججة و حدة في طبعه كانت تعتريه ، نغصت عليه
حياته و جلبت له العقاب و غضب الأمراء الحفصيين ، فقد تعرض للإبعاد عن
الخدمة بالبلاط الحفصي و النفي إلى بجاية في الكثير من المناسبات .

توفي ابن الأبار بتونس يوم الثلاثاء 21 محرم سنة (658هـ/6 جانفي 1260م) ،
بعد أن بلغ من العمر ثلاثًا و ستين سنة ، حيث أقدم المستنصر الحفصي على قتله
و إحراق جثته و كامل كتبه بعد أن وجهت له العديد من التهم ، فقد وقع ابن الأبار
ضحية مؤامرة حيكت حوله بإحكام ، و تحالفت ضده أطراف عملت في السر
و العلانية على التخلص منه ، و راحت تجمع ضده التهم و تستثمر الفرص للإيقاع
به ؛ لأنه يشكل تهديدًا لمصالحها بالبلاط الحفصي ، و لم تدخر هذه الأطراف جهدًا
في سبيل تحقيق غايتها المنشودة ، فكانت نهايته نهايةً مأساوية .

اشتهر ابن الأبار القضاعي بغزارة التأليف و جودة التصنيف ، فقد ألف ما يزيد عن الخمسين كتابا في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية : التاريخ ، الفقه ، الحديث ، سير و تراجم الأعلام ، الأدب نثرا و نظما ، اللغة ، و نشرت بعض كتبه بعد تحقيقها من طرف ثلة من الباحثين و الأساتذة المحققين عربا و مستشرقين .

ترك ابن الأبار ديوانا شعريا يضم العديد من الأغراض الشعرية ، وخاصة المديح الذي يغطي أكثر من ثلثي الديوان معظمه في مدح الأسرة الحفصية الحاكمة فقد كان يقيم في بلاطهم منذ سنة (636هـ) إلى غاية مقتله سنة (658هـ) .

و قد قام الأستاذ عبد السلام الهراس بتحقيق هذا الديوان و نشره سنة (1986م) .

لم تبتعد موضوعات مدائح ابن الأبار في البلاط الحفصي عن التقاليد الموروثة في القصيدة العربية ، لا في مبانيتها و لا في معانيها و أساليبها و ألفاظها ، و لم يشد عنها إلا في تلك الخصائص التي تمنحها البيئة و يفرضها روح العصر أو تخضع للفروق الفردية القائمة بين الأشخاص ، و قد تمكن ابن الأبار من استلham هذا الموروث الشعري العربي و التجاوب معه ، حيث أعاد إنتاجه من جديد مع شيء من التحوير لتحقيق الانسجام و التكيف مع معطيات المكان و مقتضيات الزمان ، الأمر الذي جعله يتناص مع ما أبدعته قرائح أسلافه من الشعراء مشرقا و مغربا .

و ألقت ثقافة ابن الأبار الدينية — باعتباره فقيها — ظلالتها على مدائحه في اللفظ و المعنى ، فقلما تخلو قصيدة من إحالة صريحة أو ضمنية إلى بعض آيات القرآن الكريم و الحديث الشريف أو العبارات الدينية المتداولة على ألسنة الفقهاء .

جاءت صور ابن الأبار أقرب إلى الواقعية شأن شعر العلماء و الفقهاء ، و كان الطابع العام لمدائحه هو تسجيل الأحداث و سرد الوقائع و رواية الأخبار في غالب الأحيان ، فهي أشبه بوثيقة تاريخية إضافية للأحداث التي عرفها القرن السابع الهجري و تاريخ الدولة الحفصية في مرحلة النشأة و التأسيس ، و هذا الأمر متوقع

من شخصية معروفة بالتاريخ و الفقه أكثر من معرفتها بالشعر ؛ فهو مؤرخ شاعر و ليس شاعرا مؤرخا ، و مع ذلك فإننا لا نعدم الكثير من مواطن الجودة ، فقد عانق الخيال الشعري في تلاحم قلما يحصل للشعراء ذوي الشاعرية الفذة و الموهبة المبدعة .

استند الشاعر إلى قاموس لغوي فصيح ، و ابتعد عن الغرابة في اللفظ و المعاضلة في المعنى ، مع الجنوح للصنعة اللفظية و المحسنات البديعية من أجل خلق جوا موسيقيا مشحونا بالأفكار و المعاني التي يريد أن يوحي بها ، مستجيبا — بذلك — للمناسبة التي قال فيها قصيدته .

و كان ابن الأبار — بمسلكه هذا — مسائرا لطابع عصره ، الذي عرف أهله توظيفا كبيرا لهذه الأساليب التعبيرية ، و هي سمة وصمت الأدب في مرحلة الضعف و الانحطاط، التي أذنت بقدمها في الفترة التي عاش فيها أو قبلها بقليل . و لعل للأوضاع السياسية التي ميزت عصر ابن الأبار و إقامته في البلاط الحفصي دورا حاسما في جنوحه نحو هذه الأساليب البديعية و الميل إلى الزخرفة اللفظية ؛ لما يتطلبه المقام من حذر و التواء و تورية في مخاطبة هؤلاء الحكام ، خوف غضبهم و خشية بطشهم و رغبة التقرب منهم و نيل الحظوة عندهم .

استجاب ابن الأبار في مدائحه للحفصيين للشكل الفني للقصيدة العربية القديمة ، غير أن هذه الاستجابة لم تكن مطلقة ، فجاءت مدائحه على نمطين : قصائد مركبة التزم فيها بأهم أجزاء القصيدة العربية التقليدية من مقدمة و حسن التخلص إلى المديح و خاتمة ، غير أنه أسقط بعض أنواع المقدمات و بعض عناصرها — أيضا — كوصف الرحلة و الراحلة و مشاهد الطريق وصولا إلى الممدوح ، التي أصبحت لا تتلاءم مع روح العصر و طابع البيئة و دوق الشاعر و الممدوح معا .

تميزت مقدمات مدائح ابن الأبار بالطول النسبي ، فقد استهلك جلها ثلث القصيدة ، ربما تجاوز في بعض مقدمات قصائده الأربعين بيتا ، الأمر الذي جعله يستنزف الألفاظ و المعاني التي كان موضوع القصيدة الأساسي أولى بها .

كما أنه اكتفى بنوعين من المقدمات هي : المقدمة الغزلية في الغالب الأعم ، و المقدمة الطللية في القليل النادر ، متخليا على غيرهما من الأنواع الأخرى .

أما الكثرة الكثيرة من مدائحه بالبلاط الحفصي ، فجاءت على شكل قصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، حيث يبدأها مباشرة دون مقدمة و لا تمهيد ، متناولا المديح من أول وهلة ، غير أنها لا تخلو من براعة الاستهلال و لا من حسن الخاتمة .

و يمكن القول : إن ابن الأبار في مدائحه للحفصيين ينقاد حيناً لطريقة الأقدمين في بناء قصائدهم ، و حيناً يتكرر لها ، و أحيانا كثيرة يتناول الغرض مباشرة دون مقدمة و لا تمهيد ، حيث يطرق المديح من مطلع القصيدة إلى نهايتها .

جاءت الصورة الشعرية في مدائح ابن الأبار للحفصيين تقليدية ، إذ حاكى أسلافه من الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي ، ولم يخرج عن هذا الإطار الفني المتوارث إلا في القليل النادر .

و كان يرتفع حيناً إلى مصاف الفحول من الشعراء العرب ، و يسقط أحيانا كثيرة ؛ لنضوب الخيال لديه و نزوعه إلى العقل و المنطق و المباشرة و التقريرية ؛ لكونه مؤرخا و فقيها و لغويا قبل أن يكون شاعرا ؛ فسيطرة المقاييس العلمية على فكره أضعفت من انطلاق خياله ، و هذه النزعة تلمس أكثر ما تلمس في صورهِ المباشرة و صورهِ العقلية حيث توشك أن تخلو منهما الفنون البلاغية و البيانية .

أما صورهِ البيانية فكان تواردها في مدائحه تواردا غزيرا ، و كانت تتشكل من الفنون البيانية من تشبيه و استعارة و مجاز و كناية ، فالاستعارة — مثلا — كان نصيبها من التواجد في صورهِ و معانيهِ وفيرا ، و يعد هذا التواجد للاستعارة في لغة الشعر أمرا لازما .

و تميزت جل الصور الشعرية في مدائح ابن الأبار للحفصيين ، بالحسية عامة و بصرية خاصة ، فالتصوير الحسي هو الطابع المسيطر و الملازم للشعر العربي القديم منذ نشأته و في كل البيئات التي عرفها مشرقا و مغربا .

قائمة المصادر و المراجع

- * - القرآن الكريم ، برواية حفص عن عاصم .
- * - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت .
- أولا المصادر :
- 1- ابن الأبار أبو عبد الله محمد : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق/ السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، 1956 م .
- 2- ابن الأبار أبو عبد الله محمد : الديوان ، تحقيق/ عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر/ ديون المطبوعات الجامعية ، تونس/ الجزائر ، ط 2 ، 1986 م .
- 3- ابن الأبار أبو عبد الله محمد : المقتضب من تحفة القادم ، تحقيق/ إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية/ دار الكتاب المصري/ دار الكتاب اللبناني ، ط 2 ، 1982 م .
- 4- ابن الأثير ضياء الدين : المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995 م .
- 5- التجيبي أبو بحر صفوان بن إدريس : زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر ، أعده و علق عليه/ عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1980 م .
- 6- التنسي محمد بن عبد الله : تاريخ ملوك بني زيان (مقتطف من : نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان) ، تحقيق/ محمود بوعياض ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، 2007 م .
- 7- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : الحيوان ، تحقيق/ عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 4 ، 1395هـ / 1975 م .

- 8- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : رسالة الحنين إلى الأوطان ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط 4 ، 1982م .
- 9- الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1986م .
- 10- ابن جني أبو الفتح عثمان : ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز و مقصور و ممدود ، تحقيق/ عبد الباقي الخزرجي ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، باتنة — الجزائر ، 1986م .
- 11- الحموي تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله : خزانة الأدب و غاية الأرب ، تحقيق/ عصام شعيتو ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط 1 ، 1987م .
- 12- ابن الخطيب لسان الدين : تاريخ إسبانيا الإسلامية (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام) ، تحقيق/ ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، لبنان ، ط 2 ، 1956م .
- 13- ابن خلدون عبد الرحمن: كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1981م .
- 14- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2000م .
- 15- ابن خلدون يحيى : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق/ عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980م .
- 16- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
- 17- ابن رشيق أبو علي الحسن : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، 2007م .

- 18- الزبيدي محمد مرتضى : تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، مصر ، ط 1 ، 1306هـ.
- 19- زهير بن أبي سلمى : الديوان ، شرح و تحقيق/ أحمد طلعت ، دار القاموس الحديث / دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 .
- 20- ابن سعيد علي بن موسى المغربي : المَغْرِب في حلى المَغْرِب ، تحقيق/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 .
- 21- السويدي محمد أمين البغدادي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، دار إحياء العلوم ، بيروت .
- الشنقيطي الشيخ أحمد: شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 5 ، 1404هـ/1983م .
- 22- الصفدي صلاح الدين : الوافي بالوفيات ، دار النشر فرانز شتاينر ، شتوتغارت ، ألمانيا ، ط 2 ، 1991 م .
- 23- ابن طباطبا العلوي : عيار الشعر ، تحقيق/ عبد العزيز بن ناصر المانع ، دار العلوم للطباعة و النشر ، الرياض ، 1985م .
- 24- عامر بن الطفيل : الديوان ، تقديم/ كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، 1383هـ/1963م
- 25- ابن طولون محمد : فص الخواتم فيما قيل في الولائم ، مطبعة دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 1983م .
- 26- الغبريني أحمد : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق/ رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1970م .

- 27- ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، تحقيق/ أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، 1427هـ/2006م .
- 28- قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق/ كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 3 ، 1979م .
- 29- القرطاجني حازم : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تحقيق/ محمد لحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1966 م .
- 30- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر ، القاهرة .
- 31- ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تقديم/ محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد الريحي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1968 م .
- 32- ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب : الوفيات ، تحقيق/ عادل نويهض ، المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1971م .
- 33- الكتبي أحمد بن شاكر: فوات الوفيات ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1974م .
- 34- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد : الفاضل ، تحقيق/ عبد العزيز الميمنى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط 2 ، 1995م ،
- 35- المتنبي : الديوان ، تحقيق/ عبد الرحمان البرقوقي ، دار صادر ، بيروت ، ط 18 ، 1998م .

36- المقرئ أحمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، 1968 م .

37- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين : لسان العرب المحيط ، تقديم/عبد الله العلي ، إعداد و تصنيف/ يوسف خياط و نديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1970م .

38- النمري أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ، و أنس المجالس و شذذ الذاهن و الهاجس ، تحقيق/ محمد مرسى الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1402هـ/1982م .

ثانيا المراجع :

39- أحمد أمين : ظهر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط 5 ، 1969 م .

40- إسماعيل عز الدين : روح العصر ، دار الرائد العربي ، لبنان ، 1978م .

41- البطل علي : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري - دراسة في أصولها و تطورها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 2 ، 1981م .

42- ترحيني فايز : الإسلام و الشعر ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1990م .

43- جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال ، مصر ، 1913م .

44- الحاجري محمد طه : في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية - العصر الجاهلي و القرن الأول الإسلامي - دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، 1982م .

45- حساني مختار : موسوعة تاريخ و ثقافة المدن الجزائرية ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2007م .

- 46- الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 2 ، 1405هـ / 1985م .
- 47- حمادي عبد الله : دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة و النشر ، الجزائر ط 1 ، 1406هـ / 1986م .
- 48- الخالدي صلاح عبد الفتاح: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، شركة الشهاب ، الجزائر .
- 49- خليف يوسف : في الشعر العباسي — نحو منهج جديد ، دار غريب للطباعة ، القاهرة .
- 50- الدقاق عمر : ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق العربي ، بيروت ، 1973م .
- 51- الدقاق عمر : نقد الشعر القومي ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1978م .
- 52- دقالي محمد أحمد : الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري) ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، مصر ، ط 1 ، 2008 م .
- 53- الدهان سامي : المديح ، دار المعارف ، مصر ، ط 4 ، 1984م .
- 54- الركابي جودت : في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، 1980م .
- 55- أبو زهرة محمد : تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، مصر ، 1976م .
- 56- بوزواوي محمد : قاموس مصطلحات الأدب ، دار مدني للطباعة و النشر و التوزيع ، المدية ، ط 1 ، 2003م .
- 57- السد نور الدين : الشعرية العربية — دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي — ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م .

- 58- ابن سلامة الربيعي : تطور البناء الفني في القصيدة العربية ، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، 2006م .
- 59- الصلابي علي محمد : دولة الموحدين ، مؤسسة اقرأ للنشر و التوزيع — و الترجمة ، مصر ، ط 1 ، 2007م .
- 60- ضيف شوقي : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 1 ، 1995 م .
- 61- الطمار محمد : تاريخ الأدب الجزائري ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، ط 1 ، 2007 م .
- 62- الطويلي أحمد : في الحضارة العربية التونسية ، دار المعارف ، تونس ، ط 1، 1988م .
- 63- عبد المجيد جميل : بلاغة النص — مدخل نظري و دراسة تطبيقية — دار غريب للطباعة ، القاهرة ، 1999م .
- 64- عبيدات داود عمر سلامة : الموحدون في الأندلس ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، 2005 م .
- 65- أبو العدوس يوسف : الاستعارة في النقد الأدبي الحديث — الأبعاد المعرفية و الجمالية — الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط 1 ، 1997م .
- 66- العربي إسماعيل : المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م .
- 67- العريس محمد : موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، دار اليوسف ، بيروت ، ط 1 ، 2005م .
- 68- عصفور جابر : الصورة الفنية — في التراث النقدي و البلاغي — دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1974م .

- 69- العقاد عباس محمود : اللغة الشاعرة ، مكتبة غريب ، القاهرة ، 1988م .
- 70- علام عبد الله علي : الدولة الموحدية بالمغرب (في عهد عبد المؤمن بن علي) ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، 2007 م .
- 71- عنان محمد عبد الله : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، مصر ، ط 1 ، 1964 م .
- 72- فيلالي عبد العزيز : تلمسان في العهد الزياني ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2002 م .
- 73- كنون عبد الله : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .
- 74- لاشين عبد الفتاح : الخصومات البلاغية و النقدية في صنعة أبي تمام ، دار المعارف القاهرة ، 1982م .
- 75- لويس ارشيبالد : القوى البحرية و التجارية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، تقديم محمد شفيق غربال ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، 1370هـ/1950م .
- 76- مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، إخراج ، إبراهيم أنيس و آخرون ، دار المعارف ، مصر ، ط 1 ، 1973 م .
- 77- مرتاض محمد : النقد الأدبي القديم في المغرب العربي — نشأته و تطوره (دراسة و تطبيق) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000 م .
- 78- مقلد محمد يوسف : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، منشورات مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط 1 ، 1962 م .
- 79- مورو فرانسوا : البلاغة — مدخل لدراسة الصور البيانية — ترجمة محمد الولي و عائشة جريز ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2003 م .

80- موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين ، إعداد/ رابح خدوسي و آخرين ، دار الحضارة ، الجزائر ، 2003 م .

81- ناصف مصطفى : الصورة الأدبية ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 3 ، 1983م .

82- نجا أشرف محمود : قصيدة المديح في الأندلس — قضاياها الموضوعية و الفنية عصر الطوائف — دار الوفاء لنديا الطباعة و النشر ، مصر ، ط 1 ، 2003م .

83- نويهض عادل : معجم أعلام الجزائر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر ، بيروت ، ط 2 ، 1980 م .

ثالثا الدوريات :

84- الطالب محمد : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، مجلة الأصالة ، تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية الجزائر ، مطبعة البعث ، الجزائر ، 1973 م ، العدد 16 .

85- كاتب حسن : الصورة الفنية في شعر حاتم الطائي — مادة تشكيلها و تداخل الحواس فيها — مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 12 — ديسمبر 1999م — شركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر .

86- لراوي العلمي : ابن الأبار بين التأليف و الإبداع ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 13 — جوان 2000م — شركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر .

رابعاً الرسائل الجامعية :

- 87-** إحدادن محمد : الحياة الأدبية و الثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، مخطوطة رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي ، كلية الآداب و اللغات بجامعة الجزائر ، 2006م .
- 88-** زردومي إسماعيل : شعر الاستغاثة للأندلس — مخطوطة رسالة الماجستير ، جامعة باتنة ، 1995م .
- 89-** عالية علي: شعر الفلاسفة في الأندلس — في القرنين الخامس و السادس الهجريين — مخطوطة رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة ، 2004 - 2005م .
- 90-** لراوي العلمي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير بابن الأبار (595 - 658هـ/ 1199 - 1260م) حياته و مؤلفاته و دراسة فنية لشعره ، مخطوطة رسالة الدكتوراه ، جامعة الإخوة منتوري ، قسنطينة ، 1997 - 1998م .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة البحث	أ - ح
تمهيد :	صور الحياة في عصر ابن الأبار القضاعي
أ- الصورة السياسية	2 — 17
1- في الأندلس	2
2- في المغرب	9
ب- الصورة الاقتصادية و الاجتماعية	18 — 33
1- في الأندلس	18
2- في المغرب	26
ج- الصورة الثقافية	34 — 45
1- في الأندلس	34
2- في المغرب	39
د- الصورة الدينية	46 — 50
1- في الأندلس	46
2- في المغرب	49
الفصل الأول :	ابن الأبار القضاعي حياته و آثاره
أ- حياة ابن الأبار القضاعي	52 — 86
1- نسبه	52
2- مولده	55
3- نشأته و تعليمه	57

- 4 - شيوخه..... 61
- 5 - رحلاته 68
- 6 - أخلاقه 76
- 7 - مكانته بين أهل عصره 79
- 8 - وفاته 84
- ب - آثاره الأدبية و العلمية..... 87 — 102
- 1 - تلامذته 87
- 2 - مؤلفاته 89
- 3 - ديوانه 99
- 4 - قصائد المدح في ديوانه في البلاط الحفصي 101

الفصل الثاني : موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط

الحفصي

- أ - توطئة نظرية 104 — 115
- ب - الموضوعات 116 — 151
- 1 - المدح بالمجد 116
- 2 - المدح بالشجاعة..... 120
- 3 - المدح بالكرم..... 124
- 4 - المدح بالعدل 128
- 5 - المدح بشرف الأصل 132
- 6 - المدح بالنجدة و الإغاثة..... 136
- 7 - المدح بالحلم..... 140
- 8 - المدح بالعلم 143
- 9 - المدح بالدين و الورع 146

الفصل الثالث : البناء و الصورة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط
الحفصي

أ- البناء الشعري	153 — 181
1- توطئة نظرية	153 — 160
2- القصيدة المركبة	161 — 176
— مقدمة القصيدة	161
— التخلص و الخروج	172
— خاتمة القصيدة	175
3- القصيدة البسيطة	177 — 181
ب- الصورة الشعرية	182 — 201
1- توطئة نظرية	182 — 188
2- أنواع الصورة	189 — 201
— الصورة المباشرة	189
— الصورة البيانية	192
— الصورة العقلية	198
خاتمة البحث	202
مصادر و مراجع البحث	208
فهرس المحتويات	218